

كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية
التاريخ الذى أحمله على ظهرى
ماء الحياة
د. سيد عويس
حلمى التونى

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٩ - ذو الحجة ١٤٠٦ - سبتمبر ١٩٨٦

NO : 429 SEPTEMBER 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حلمـــى التـــونـــى

التاريخ الذى أحمله على ظهرى

(الجزء الثانى)

ماء الحياة

●

بقلم

الدكتور سيد عويس

●

دار الهلال

السفر الى الخارج طلبا للعلم

فى يوم ١٥ من شهر ابريل عام ١٩٤٠ تكونت أول هيئة تنفيذية « لمكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » . وقد روعى فى تكوينها تمثيل وزارة الشئون الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة واحد المستشارين القانونيين واحد رجال التربية ومديرة المكتب . وقد مثل اعضاء هذه الهيئة السادة الاستاذ محمد عبد الخالق حسونه « وكيل وزارة الشئون الاجتماعية » والسيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة والمستشار محمد فتحى والاستاذ اسماعيل القبانى والسيدة الزا ثابت « مديرة المكتب » . واصبحت السيدة الزا منذ ذلك الحين مديرة المكتب . واستمرت فى هذا المنصب حتى يوم ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ عندما عينت مديرا لهذا المكتب فى أول يناير عام ١٩٤٤ . ولن أنسى ماحييت هذا اليوم . وكم من الايام التى لا انساها منذ أن مات ابى وتركت مدرسة الخديوية الثانوية ثم أشرفت على وكالة أبى بعد وفاته وعندما تركتها للتفرغ للدراسة وعند حصولى على شهادة البكالوريا ثم يوم تعيينى بمصلحة الحدود ويوم التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ويوم استقالتى من مصلحة الحدود لأعمل بمؤسسة الزفاف الملكى ثم تركها مضطرا لأعمل مديرا لمعسكر الاطفال بكوم امبو ويوم عودتى الى المؤسسة ، ويوم حصولى على دبلوم الخدمة

الاجتماعية ، وهاأنذا اترك المؤسسة لكى اعمل مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . ايام من ايام عمرى لا يمكن أن انساها تركت آثارها فى نفسى كما تركت بصماتها على شخصيتى . وبدأت عملى الجديد وكان لا يختلف اختلافا جذريا عن عملى بالمؤسسة . ولم يكن عمل المكتب غريبا على فى أثناء عملى بالمؤسسة ، حيث كانت الصلة بين المؤسسة وبين المكتب فى شخص السيدة مديرته والسادة الزملاء اخصائى المكتب صلة وثيقة . واذكر من هؤلاء الاخصائيين الاعزاء الاستاذ محمود فهمى والاستاذ أحمد مرزوق والاستاذ توفيق عمار والاستاذ واصف يوسف . ومع ذلك فالبيئة الجديدة غير بيئة المؤسسة ، والاوضاع غير الاوضاع . كنت فى المؤسسة اعمل فى مجال تطبيق « طريقة خدمة الجماعة» وانا الآن فى المكتب أعمل فى مجال تطبيق « طريقة خدمة الفرد » وفى مجال تطبيق « البحث العلمى الاجتماعى فى ميدان الجريمة وانجناح » . وبدأت عملى فى المكتب من حيث انتهت السيدة الزا أول مديرة له . كانت اهدافى فى أول الامر ان أدرس دراسة موضوعية ماهو كائن حتى اعمل فى سبيل تحقيق مهام المكتب واغراضه التى وضعت فى خلال الفترة السابقة مااستطعت الى ذلك سبيلا . وقد تضمن نشاط المكتب الاجتماعى الطبى النفسى فى ذلك الحين مايلى :

ــ القيام ببحث دقيق لحالة كل حدث « يحول من محكمة الاحداث بالقاهرة » وببحث دقيق للبيئة التى يعيش فيها وعلاقة هذا كله بأعمال التشرد أو الاجرام التى تصدر عنها . ويشفع مثل هذا البحث الاجتماعى ببحث عن حالة الحدث الصحية والنفسية ولذا يكون

فى متناول القاضى المعلومات الدقيقة التى يستعين بها فى فهم حالة كل حدث .

ـ اقتراح الحل الملائم لكل حالة تعرض سواء فيما يتعلق بالتربية أو المعالجة النفسية أو بتغيير بيئة الحدث أو بالحاقه باحدى المؤسسات التى تلائم حالته الخاصة .

ـ المساعدة فى تنفيذ العلاج المقترح وبوجه خاص مراقبة الحدث واسرته اجتماعيا « فى حالة اعادة الحدث الى أهله اى الحكم بالتسليم » والتاثير الصالح فى كل منهما .

وكانت مهام المكتب واغراضه التى كان على وزملائى بالمكتب تحت اشراف الهيئة التنفيذية القيام بتحقيقها مايلى :

ـ الاقتصار على مشروع الخدمة الاجتماعية فى محكمة الاحداث بالقاهرة دون سواها فى الوقت الحاضر ، واعتباره تجربة اذا نجحت امكن تعميمها . « تيسر لمحافظة الاسكندرية انشاء مكتب للابحاث الاجتماعية على غرار مكتب القاهرة فى عام ١٩٤٣ » .

ـ أن تكون الهيئة التى تشرف على هذا المشروع هيئة خاصة « الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية » الى ان يثبت نجاحه وفائدته للبلاد .

ـ السعى لدى وزارة العدل لتقديم المعاونة فى تنفيذ هذا المشروع بنجاح ، حيث أن سماح السيد النائب العام باجراء بعض الابحاث فى محاكم الاحداث قد افاد كثيرا . ولكنه لم يكن سوى خطوة أولى فى هذا السبيل .

وفى ضوء تحديد هذه المهام والاغراض رات الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث

بالقاهرة الاهتمام بدراسة بعض الموضوعات الآتية :

ـ الاعتراف الرسمي من وزارة العدل بالخدمات الاجتماعية لمحاكم الاحداث كمشروع تقوم به هيئة خاصة.

ـ الاعتراف الرسمي بمؤسسة الزفاف الملكي كمأوى مؤقت وببعض المعاهد التعليمية الاخرى كملجأ الحرية مثلا .

ـ عقد جلستين اخريين اسبوعيا بمحاكم الاحداث وتعيين وكيل نيابة آخر .

ـ سرية الجلسات التي تعقد بمحاكم الاحداث .

ـ اصدار قانون اسقاط السلطة الابوية .

ـ تخصيص مكان في الاصلاحيات لقبول الاطفال المحكوم عليهم .

ـ بدء تعاون مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة مع مكتب الآداب بشأن الاحداث المتهمين بالتشرد والتسول وجمع الاعقاب .

ـ الاهتمام بانشاء شرطة خاصة بالاحداث .

ـ طلب الاعتراف بمؤسسة الزفاف الملكي لالحاق الاحداث الذين تحت اشراف المكتب بها بدلا من ارسالهم الى الاصلاحيات .

ـ الاهتمام بانشاء مكان خاص لحجز الاحداث في خلال فترة المحاكمة ، اي انشاء دار للملاحظة .

ـ طلب الاعتراف بملجأ السيوفية الخاص بالفتيات لاقامة الفتيات الاحداث اللائي تحت اشراف المكتب .

ـ الموافقة على قيام المكتب بحفظ كل حالة حدث يودع في مؤسسة . « اي اقتصار عمل المكتب على القيام بالمراقبة الاجتماعية للحدث وأسرته اذا اقتضت الضرورة ذلك أو بعد الحكم على الحدث بالتسليم » .

ـ الاهتمام بتعديل قانون تشرد الاحداث .
ـ الاهتمام ببذل بعض الجهود لدى وزارة العدل على استقرار قاضي محكمة الاحداث بمنصبه حتى يتمكن من دراسة مشاكل الاحداث وفهم نفسياتهم لطول خبرته بهم على ان يحصل على كل ترقياته مع وجوده فى نفس المركز .
ـ الاهتمام بانشاء مؤسسات لضعاف العقول وذوى العاهات من الاحداث .
ـ الاهتمام بتكوين اتحاد يضم الهيئـــات المهتمـــة بالاحداث الجانحين ويشرف على أعمالها وينسقها بحيث لا تتعارض مع بعضها .
ـ طلب مساهمة وزارة العدل فى توسيع نطاق اعمال المكتب وتدعيمه ماليآ .
وظل مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحــداث بالقاهرة منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٨ يعمل على تحقيق مهامه واغراضه وان تعددت . وقد تحمل هذا المكتب فى خلال هذه الفترة عبئا كبيرا جدا . وقد اضطر الى ذلك اضطرارا على الرغم من وجود بعض الظروف المواتية التى مهدت السبيل الى وجوده . ان المكتب فى هــذه المرحلة كان رائدا فى ميدان علاج الاحداث الجانحين . وقد تحمل العبء وحده . لقد بدأ كما يلاحظ القــارىء كجهاز للمراقبة الاجتماعية
فى محيط الاحداث الجــانحين فى مدينــة القــاهرة . فاغراضه على المستوى النظرى تدل دلالة واضـــحة على ذلك . وعمله كان يقوم على اساس تقــديم البحوث الاجتماعية والطبية والنفسية الى المحكمة لتنويرها . وفى حالة صلاحية البيئة المنزلية لتسليم الحدث اليها يطلب

المكتب من المحكمة الحكم بالتسليم ، ثم يقوم المكتب بعد ذلك بالمراقبة الاجتماعية للحدث وأسرته فترة من الزمن . اى ان عمل المكتب كان فى حالة الحكم بتسليم الحدث ، اى اطلاق سراحه ليعيش فى بيئته المنزلية ، هو القيام بمراقبته والاشراف عليه فى هذه البيئة فترة من الوقت ، وفضلا عن ذلك كان يقوم بالبحوث اللازمة السابقة على الحكم .

واذا كان لكل شيء تاريخ ، فالملاحظ ان مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى ضوء خبرة السيدة الزا اول مديرة له ، وهى خبرة سويسرية فرنسية ، قد حاكى أول ماحاكى الاعمال التى كانت تقوم بها المكاتب التى على غراره فى سويسرا وفى فرنسا فى ذلك الحين . والواقع انه حاكى اعمال « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين » . وكانت اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين فى ضوء المشروع الذى قدمته السيدة ألزا الى مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية فى يوم ١٣ من شهر مارس عام ١٩٤٠ ، هى نفس اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة عند انشائه والملاحظ ان المكتب الاول مثل المكتب الثانى كان تابعا لاحدى الهيئات الاجتماعية الاهلية هى « جمعية الخدمة الاجتماعية للطفولة المعرضة للتدهور الخلقى » .

وكنت اعمل فى خلال الفترة من شهر يناير عام ١٩٤٤ حتى آخر عام ١٩٤٨ بلا توان . كانت السيدة الزا عضوا فى الهيئة التنفيذية التى تشرف على المكتب ، كما كانت عضوا « مؤسسا » للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومن ثم فقد كانت ترى احيانا وهى بهاتين الصفتين فضلا

عن انها كانت اول مديرة للمكتب ان تتحكم في بعض تصرفاتي . وكنت حريصا على ان تكون هذه التصرفات حرة طليقة مادمت قد أصبحت المسئول عن ادارة المكتب. وكانت تحدث بيني وبين السيدة الزا بعض ما كنت اتوقعه من خلافات . ولكن الظروف أصبحت غير الظروف . لقد تفرغت لادارة بيتها فلم يكن لديها الوقت لتلبي ما كانت تطلبه هي من مقابلات ثنائية معي . وموظفو المكتب اصبحوا غير الموظفين القدامي . بقي « واصف يوسف » « أقدم اخصائي بالمكتب » ولكن اضيف اليه « عبد العزيز فتح الباب » الذي الح على الالحاح الشديد لكي ينتدب من وزارة الصحة التي كان يعمل بها ليكون معي بالمكتب كما كان معي في المؤسسة من قبل . وكان هذا الشاب يعيش وحده مع أخيه « حميدو » ضعيف العقل . وكان موضع تكريم أمي وحبها التي كانت تعتبره اخا بل شقيقا لي ، وكان قد تعود زيارة منزلي زيادة في الالحاح لكي ينتدب أو يعار الى المكتب . وقد اعير عبد العزيز فتح الباب فعلا الى المكتب وصار زميلا لواصف يوسف . وضم اليهما « توفيق عمار » الذي مالبث ان تركنا ليعمل في ميدان تخصصه ويترك مهنة الخدمة الاجتماعية لمن يسعد بها . وكان توفيق عمار اخا شقيقا للاستاذ الدكتور عباس عمار أستاذ الجامعة الذي صار وزيرا للشئون الاجتماعية فيما بعد . وضم « افنيس عطا الله » اخصائية اجتماعية حديثة ايضا ، ثم « خيرية ياور » ذات الخبرة في ميدان الخدمة الاجتماعية والتي لم تتح لها الفرصة لتستكمل دراستها . وحتى أعضاء الهيئة التنفيذية للمكتب قد تغير أعضاؤها كذلك لانتقال الاعضاء القدامى الى مواقع عمل اخرى او لعوامل اخرى . واصبح الاعضاء الدكتور محمد صلاح الدين

والاستاذ الدكتور محمد عوض محمد والمستشار محمـد فتحى والسيدة الزا ثابت وقاضي محـكمة الاحـداث بالقاهرة ثم مـدير المـكتب . وكانت لكل هذه التغييرات آثار على العلاقات التى بينى وبين زملائى وعلى العلاقات التى بينى وبين اعضاء الهيئة التنفيذية وعلى العلاقات التى بينى وبين السيدة الزا . اننى كنت حريصا الحرص كله على أن يكون اعضاء المكتب من الزميلات والزمـلاء اسرة واحدة . فقد كانوا إخوات واخوة لى فعلا وحقا . وكان الهم الاكبر الذى يشغل بالى هو ان نؤدى واجباتنا كل فى موقعه . حاولت أن نعمل جميعا عملا جادا فى ظل الحب والاحترام اللذين كانا يسودان علاقاتنا . وعلى الرغم من الاعباء العديدة والظروف غير المواتية وبخاصة عندما كان يتغير قاضي المحكمة او وكيل النيابة ، أى عندما يستبدل بمن عرفناه وعرفناه وفهمنا وفهمناه واحترمنـا واحترمناه ، آخر لضرورة النقل لا يعرف عن وظيفـة المكتب ولم يسمع عن مهنة الخدمة الاجتماعية وعلاقتها بالمحكمة شيئا . كنا نبدأ من جديد : نقيم على شـرف القاضي الجديد او وكيل النيابة الجديد أو كليهما « حفل شاى » للتعارف . وكنا حريصين على ذكر اسم أحدهما متبوعا بلقب « بيه » . فقد أخذنا من الماضي درسا قاسيا عندما كنت او كان احدنا نذكر « الاستاذ فلان » مجردا من لقب « بيه » ! كان تأثير ذلك على العمل الذى بيننا رهيبا ، والاحداث وذووهم كانوا هم الضحايا . فاذا قال تقرير المكتب « يمينا » حكم القاضي « شمالا » والعكس بالعكس . وكانت أمهات الاولاد عند الاختلاف ، وبعضهن كن لا يحرصن على الاخلاق القويمة ، أسلحة فى يد القاضي احيانا او فى يد وكيل النيابة احيانا آخرى ضدنا . وقد يحدث العكس عند الصفاء فنجد القاضي يشكو لى من

ان وكيل النيابة الشاب يحرص على ان تمكث فى مكتبه « ام فلان (احد الاحداث) الوسيمات » فترة طويلة تثير الشبهات . وكنت لا ارد ولا اصد . وكان زميلاتى وزملائي يحرصون معى على القيام بعملنا وعلى أن نكون صابرين « فالصبر مفتاح الفرج » ، و « اصبر على الجار السو لا يرحل يالبجى له داهية» . وقد تعلمت درسا لا انساه . فقد كنت حريصا جدا على توقير رجال القضاء واحترامهم وامامى الدكتور محمد صلاح الدين والمستشار محمد فتحى وغيرهما قدوة صالحة ، ولكن ماكان يحدث بين المكتب وبين المحكمة اكد لى ان الناس ومنهم رجال القضاء بشر يخطئون كما يصيبون .

ومهما يكن من الامر فانه على الرغم من الاعباء العديدة والظروف غير المواتية ، كما ذكرت آنفا ، فقد كان شعار الاخصائيين الذين كانوا يعملون بالمكتب فى ذلك الحين : الابتسام امام المشاكل ، والتفاؤل بالمستقبل على الدوام . كنا نعمل من اجل ان نعيش ، ولكننا كنا كذلك نعيش من أجل ان نعمل . كانت مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة حديثة في بلادنا لاتزال . وكنا نحاول ما استطعنا من جهد ان نؤكد الحاجة الماسة الى أدوارها الاجتماعية فى كل ميدان وفى كل لحظة . ولم يقف فى سبيل تحقيق ذلك فى ميدان المراقبة الاجتماعية بالمحاكم او غيره من الميادين اى شيء . ذلك لاننا آمنا ايمانا صادقا بان المجتمع المصرى فى ذلك الحين كان فى مسيس الحاجة الى هذه المهنة الانسانية والى أدوارها الاجتماعية العديدة .

وأرجو ان يلاحظ القارىء ان ماذكرته عن خلافات حدثت بينى وبين السيدة الرا لم يمنع ابدأ التقارب الانسانى الذى حدث بينى وبينها . لقد كانت خلافات

كما قلت من قبل متوقعة . وكنت في ضوء خبراتي السابقة إعتبر حدوثها أمرا عاديا . ولكن الذى حدث فعلا هو التفاهم الذى كان منذ أيام مؤسسة الزفاف الملكي بل منذ ايام المحاضرات في مدرسة الخدمة الاجتماعية في القاهرة ، والذى استمر بعد ذلك حتى كتابة هـــذه السطور . ان السيدة الزا بزواجها حرمت من العمـــل الاجتماعي في أى ميدان الا أن تكون متطوعة . لقـــد رفض زوجها أن تعمل في ميادين الخدمة الاجتماعية ، وهي الاخصائية الاجتماعية المحترفة ، بأجر . وانتهزت الفرصة لكي تتعلم اللغة العربيه حديثا وقراءة وكتابة . وكنت إحد مدرسيها . وكنا نتقابل في المكتب ساعات محددة في الاسبوع . وكان مكان المقابلة يعقد احيانا بمنزلهـــا تحت سمع زوجها وبصره . واذ كنت اقوم بتـــدريس اللغة العربية للسيدة الزا فقد كانت هي أيضا تساعدني في اتقان اللغة الانجليزية . وكانت فوق ذلك تمـــدني ببعض الكتب لكي اقرأها ويتسع في ضوء هـــذه القراءة أفق تفكيري . كنت اقرأ كتب علوم الاقتصـــاد والتاريخ والفلسفة وكانت كلها باللغة الانجليزية التي لا ادعي انني كنت اتقنها في ذلك الحين ، ومن ثم كان يساعدني الاستاذ راؤل مكاريوس على فهم ما أقرأ ، وهو احـــد اقـــرباء زوجها ، في الكثير من الاحيان . كما كان يســـاعدني زوجها في بعض الاحيان . كانت العلوم التي أقرؤها ذات موضوعات لم اسمع عنها من قبل . وكانت تشغل تفكيري وانا اقرؤها وبعد أن اقرأها . وكنت أحس بأن العلاقات الاجتماعية والسياسية تبدو امام عيني واضحة وضوحا لم اكن اعهده قبل قراءة هذه الكتب . ولم اكن في هذه الفترة إستسيغ الاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية فآلت السيدة الزا على نفسها أن تيسر لى هذا الاستماع

والاستمرار فيه حتى سعدت به ومازلت حتى الآن . كانت تدفع لى مايوازى ثمن التذكرة لكى أحضر حفلات فى قاعة « ايوارت » حيث بعض الفرق الموسيقية العالمية تقيمها ويحضرها من الناس يملئون القاعة ويزيدون . وتذكرت الاستاذ يعقوب فام الذى كان يطلب من معلم الموسيقى ابراهيم افندى قنديل أن يحضر مثل هذه الحفلات « على حساب المؤسسة » لكى تزداد ثقافته الموسيقية مما يعود على أولاد مؤسسة الزفاف الملكى بالفائدة . كانت السيدة الزا تفعل معى ومع زملائى الاخصائيين الاجتماعيين بالمكتب من حيث الاهتمام بالاستماع الى الموسيقى العالمية ما كان يفعله أستاذى يعقوب فام مع معلم الموسيقى . ولم يكن زملائى يهتمون بالاستماع الى الموسيقى العالمية بتشجيع السيدة الزا فقط بل كانت تشجعهم إيضا على القراءة فى العلوم التى كنت اقرؤها . وكنا جميعا والسيدة الزا معنا تذهب الى المتاحف محاولة منها أن نستوعب بعض ماتعكسه اللوحات المعروضة فنتذوقها ومن ثم يرتقى مستوانا فى حب الجمال والاستمتاع بتذوقه . كانت لا تعمل عملا مهنيا قالت السيدة الزا أن تصنع بعض الرجال من ابناء الشعب المصرى فى شخص بنات وابناء المكتب وبخاصة الذين كانوا يمتهنون مهنة الخدمة الاجتماعية . وعلى الرغم من مشاغل السيدة الزا فى بيتها فى ذلك الحين فانها كانت تحرص على وجود الوقت لتقوم بكل هذه النشاطات . واننى أذكر جيدا أنها كانت حريصة على زيارة بيوتنا جميعا . وقد زارت هذه البيوت فى المناسبات « فى العيد أو فى شهر رمضان مثلا » وفى غير المناسبات . ولم يمرض واحد منا أو احد اقاربه الا وكانت يد السيدة الزا تمتد بالمساعدة

العاقلة الضرورية . وكانت لا تتورع في نقل المريض او المريضة في عربتها « وكانت عتيقة ولكنها تعمل » الى المستشفى . او تعيد المريض او المريضة من المستشفى الى البيت ، وقد يكون موقع هذا البيت في حارة « درب القشات » بقسم الدرب الاحمر مثلا ! وهى الحارة التى كانت تسكن فيها اسرة عبد العزيز فتح الباب عندما كانت والدته مريضة في ذلك الحين .

وكانت كل هذه الخدمات التى كانت تقوم السيدة الزا بها لى او لزميلاتى وزملائى تقابل بالامتنان . فنحن كأناس مستضعفين نتعامل ، في ضوء قيمنا مع الذين يجاملوننا ، بالجميل . ومن ثم ازدادت الرابطة الانسانية التى كانت تربطنا بالسيدة الزا . وكان اعجابى بها وبما تقوم به اعجابا يفوق الوصف . فهى عند اعضاء اسرتى ملاك للرحمة وللحب وللخير . وهى عندى الملاذ الذى ألجأ اليه اذا ما المت بى مصيبة من المصائب . ولن انسى ابدا وقفتها معى عندما مرضت امى ، وجاء معها الدكتور عبد العزيز عسكر والدكتور حليم مترى . جاءا ليريا ما اصاب امى دون أن يتوقع احدهما اجرا منى . كانت السيدة الزا ومازالت تفعل الخير بانماطه دائما وكانت ومازالت تخدم الانسانية لذاتها .

وعندما فكرت السيدة الزا في انشاء جمعية اجتماعية لكي تشغل فيها وقت فراغها الذى بدأ فى عام ١٩٤٧ وكأنه يطول ، اقترحت عليها ان نجمع أولاد المؤسسة الذين تخرجوا فيها ويعيشون فى احد احياء القاهرة — وكانت فى ضوء خبرتها فى المؤسسة وفي المكتب تعلم عن هؤلاء الاولاد الكثير على أن نجعل من العدد الذى نجده من الاولاد في الحى الذى نختاره نواة لنادي اجتماعي ثقافى . وقد لاقى هذا الاقتراح قبولا عند السيدة

الزا . وكان قد أيده الزميل واصف يوسف . وبعد تجارب قمنا بها وجدنا أن حى بولاق هو الحى المناسب ، فهو حى شعبى لا توجد فيه خدمات اجتماعية الا القليل فضلا عن أن عددا يزيد على العشرين من ابناء مؤسسة الزفاف الملكى كانوا من الحى كما كانوا ومازالوا فى ذلك الحين على علاقة متينة بى وببعض الاخصائيين الاجتماعيين الذين كانوا يعملون بالمكتب . وفى غضون شهر يونيو عام ١٩٤٧ تأسست « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » التى كانت السيدة الزا أول رئيسة لها واصبحت مديرة لها حتى كتابة هذه السطور . وقد أكد تأسيس هذه الجمعية العلاقات الانسانية الكريمة بينى وبين السيدة الزا . واصبحت هذه العلاقات فى ضوء تجارب الحياة ، الحلوة والمرة على السواء ، علاقات انسانية كريمة لا انفصام لها .

وفى خلال عام ١٩٤٨ « أوائل شهر فبراير » اتيحت لى الفرصة لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم محاكمة الاحداث وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية، وسافرت فعلا الى المملكة المتحدة ، وانتهت دراستى فى شهر سبتمبر من نفس العام . كانت هذه الفرصة ، فرصة السفر الى الخارج فى نظرى فى ذلك الحين معجزة لم اكن اتوقعها وأن تمنيتها . ولم أكن مستعدا لنفقاتها من حيث بعض الامور أهمها شراء ملابس وحقيبة ومايلزم لهذه الرحلة الى بلاد غير البلاد والحياة مع اناس غير الناس الذين أعيش معهم . وجاء اجتماع الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث . وكان الرئيس الدكتور محمد صلاح الدين ، وكسكرتير لهذه الهيئة كنت أجلس بجواره ، وقد حضر من الاعضاء الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد والدكتور عبد العزيز

عسكر والسيدة الزا ثابت وقاضي محكمة الاحداث الذى
كان فى هذه الفترة الاستاذ حمدي حافظ . ولما عرض
موضوع طلب قرض لى حوالى خمسين جنيها مصريا
من الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، انبرى
الدكتور محمد عوض معترضا على اساس انه لاداعى لهذا
القرض فالمجلس البريطانى « الداعى » سيتكفل بكل
المصاريف . فعندما ذكرت اننى فى حاجة الى هذا المبلغ
لكي أستعد لشراء بعض الملابس التى ارى أنها ضرورية ،
ذكر الدكتور عوض انه لاداعى لذلك فهو لديه « معطف »
قديم ومستعد ان يعطيه لى ، وان الحاجة الى هذا
المعطف هو كل ماهو ضرورى من الملابس . ولابد ان
وجهى قد احمر خجلا عندما سمعت ماقاله هذا الدكتور ،
ولكن الدكتور محمد صلاح الدين الذى كان يجلس بجوارى
ضغط بيده على ساقى القريب منه وكأنه كان يقول
« تجلد ولا تقل شيئا » ثم اردف سيادته مقترحا تأجيل
هذا الموضوع الى جلسة قادمة . وتأجل الموضوع وعرضه
الدكتور محمد صلاح الدين على مجلس ادارة الجمعية
المصرية للدراسات الاجتماعية الذى وافق على منحى
القرض على ان ادفعه على اقساط شهرية ، ولكن السيدة
زاهية مرزوق « عضو مجلس الادارة وتقوم مقام امين
الصندوق الذى كان مسافرا خارج القطر » ذكرت ان
ميزانية الجمعية لاتسمح باعطاء قروض لأحد . ثم جاء
دور الدكتور محمد صلاح الدين الذى كتب مذكرة
يطلب اعطاء القرض على ان يكون هو نفسه ضامنا لى .
فتقهقرت السيدة زاهية ودفع المبلغ واشتريت الملابس
الضرورية وبعض مايلزم للرحلة ، ولم يكن من حسن حظى
معطف الدكتور محمد عوض محمد القديم من نصيبى .
وهنا اقف وقفة لكى اقرر حقيقة ذكرها لى الدكتور عوض

عن تعاسة الحال التي كان يعيش في ظلها وهو صغير ثم وهو شاب حتى حصل على درجته العلمية . وانا اذ اذكر هذه الحقيقة كما ذكرت لي أعجب أشد العجب من تصرفه نحوي ولم اكن أعيش حياة الغني والرفاهية . لماذا فعل هذا الرجل مافعل ؟ وعندما سألت هذا السؤال اجاب الاستاذ الدكتور عبد العزيز عسكر الطبيب النفسي « ان الدكتور عوض وامثاله معذورون ، فان اول مايستقبل في الصباح يستقبل وجهه . فانظر الى وجهه . انظر الى وجهه مليا تجدالاجابة ياعويس » . واذا كان الامر كذلك فماذا عن موقف السيدة زاهية ؟ انني حتى الآن لم اجد تفسيرا .

والملاحظ كما يرى القارىء ان السفر الى الخارج لكي أستكمل تعليمي العالي كان رغبة قديمة . كان رغبة ابي ورغبة أمي ورغبتي . وقد فاتني السفر الى الخارج قبل هذه المرة ثلاث مرات . الاولى وكنت وزميلاتي وزملائي مازلنا طلابا بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فعندما جاءت المنحة الدراسية للسفر الى الولايات المتحدة الامريكية للمدرسة اختير لها شخص لم يكن طالبا بالمدرسة . اختير لهذه المنحة عبد الحميد زكي وكانت الحرب العالمية الثانية على الابواب فاقتنصها وسافر في الوقت المناسب . وعاد الى مصر بعد أن وضعت الحرب أوزارها وتحت أحد ابطيه درجة الدكتوراه وتحت الابط الثاني زوجة أمريكية . ثم أصبح عميدا للمدرسة عندما آثرت برتا فهمي ان تشارك زوجها في أعماله التجارية ، وتركت العمادة من أجل التجارة . فعندها في ضوء قيمها الاجتماعية الامريكية ان النجاح كل النجاح هو النجاح المادي . تركت السيدة برتا عمادة المدرسة بعد عودة عبد الحميد زكي نورا . اما المرة الثانية

فقد كانت الدفعة الاولى قد تخرج اعضاؤها . وعندما جاءت المنحة الدراسية الثانية للمدرسة للسفر الى الولايات المتحدة الامريكية اختارت ادارة المدرسة الزميل بدراوى محمد فهمى الذى كان منتدبا من وزارة الاوقاف العمومية فى ذلك الحين ليعمل مساعدا للسيدة العميدة برتا فهمى . فكانت الادارة تعرفه وكان هو بالضرورة يعرف اعضاءها . كان بدراوى أحد خريجى المدرسة وكانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها فكانت الفرصة للسفر مواتية . فسافر للدراسة وعاد الى مصرنا العزيزة بعد خمس سنوات حاملا درجة الدكتوراه ، واصطدم بما حدث فى نظام المدرسة ولم يجد له مكانا بها وسعى الى الانتقال الى وزارة الشئون الاجتماعية التى كانت قد انشئت فى شهر اغسطس عام ١٩٣٩ ينتظر الوقت المناسب لكى يعود ادراجه الى المدرسة ليكون عميدا لها . وبعد انتهاء الحرب اعلنت وزارة المعارف العمومية عن بعثتين دراسيتين للتخصص فى مهنة الخدمة الاجتماعية وعلومها . وكان أملى فى واحدة منها كبيرا ، كنت الثانى على الدفعة الاولى وكانت خبراتى كبيرة فى مجالين من مجالات طرق مهنة الخدمة الاجتماعية وهما « مجال تطبيق طريقة خدمة الجماعة » . « مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد » . وكانت تجاربى فى « ميدان الجريمة وجناح الاحداث » التجارب الاولى لاول اخصائى اجتماعى مصرى محترف . وكذلك كانت تجاربى « فى مجال تطبيق البحث العلمى الاجتماعى فى هذا الميدان « من التجارب الرائدة . وتوقعت كما توقع غيرى ، المنافسون وغير المنافسين ، أن تكون من نصيبى احدى هاتين البعثتين . وكان استاذى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى يكاد ان يؤكد لى تحقيق هذه الامنية . فقد

كان يعمل بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحـداث بالقاهرة اخصائيا نفسيا عندما كنت أعمـل بالمؤسسة وكانت العلاقة بين المؤسسة وبين المكتب علاقة مهنيـة يمليها وجود العديد من الاحداث الذين يشرف المكتب عليهم ومن ثم يقوم بدراستهم نفسيا الدكتور القوصى .
وكان الدكتور يهمه تتبع حالة كل حدث قام بدراسته من الذين ارسلوا الى المؤسسة . وعلى الرغم من استقلال المؤسسة عن المكتب اداريا واستقلال المكتب عن المؤسسة اداريا فان حرص الدكتور القـوصى على تتبع الحالات التى قام بدراسة أعضائها من الاحـداث الذين أرسلوا الى المؤسسة كان حرصا شديدا . وكنت فى ضوء اقتناعى بما كان يقوم به اقوم بتيسير مهمـة الدكتور القوصى وكنت أقابله فى « معهد التربية » : محل عمله ، او فى منزله ، لهذا الغرض مرة او اكثر فى كل اسبوع . انني كنت أؤمن بالعلم . وانا اذ اساعد الدكتور القوصى اسهم فى تحقيق اجراء التجارب العلمـية فى محيط السلوك البشرى غير السوى . وكنت افعل ماافعل عن طواعية ولكن من وراء ظهر الاستاذ يعقـوب فام المشرف على المؤسسة فى ذلك الحين . كنت اعلم مدى ماتفعله « الغيرة المهنية » بين العلمـاء . وكان أستاذى يعقوب فام عالما مافى ذلك من شـك ، وكان أسـتاذى الدكتور القوصى عالما مافى ذلك شك ايضا ، ولكن حدسى من حيث هذه الغيرة لم يجيء عبثا . كان الواحد منهما يعتز بما حقق من امجاد . وكان الدكتور القوصى لانه كان يحمل درجة الدكتوراه حديثا ولانه كان مازال فى المرحلة الاولى فى العمل الميدانى اكثر طموحا وماحققه كان اقل . ومع ذلك فانه فى ضوء خبرتى كان اتصـال الدكتور القوصى باحد اخصائى المؤسسة يثير عنـد

الاستاذ يعقوب الفرع . فقد كان يرى رحمه الله ان المسالة مسالة مبدأ . فاذا كان الدكتور القوصي يريد شيئا فليدخل البيوت من ابوابها .

ومع ذلك فقد رشح لكل من البعثتين الزميل محمد محمد شلبي « وكان من الدفعة الاولى » والزميل محمود فهمي (وكان من الدفعة الثانية) . واذكر انني اصبت بغصة عندما علمت بهذا الترشيح ولم ابرأ منها الا عندما رشحني المجلس البريطاني فى شهر فبراير عام ١٩٤٨ لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم محاكمة الاحداث واساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية . ووجدت نفسي بعد حوالى عشرة ايام اخوض البحر فى احدى السفن الانجليزية . ابحرت من ميناء بورسعيد الى ميناء « ليفربول » ، ومنها الى مدينة « لندن » . وعشت هذه الايام مع ضابطين طيارين مصريين واحد المهندسين واحدى الانسات من موظفى وزارة الشئون الاجتماعية في ذلك الحين . كنا خمسة أشخاص نجتمع على مائدة الافطار ومائدة الغداء ثم مائدة العشاء . فقد رأى المسئولون عن التنظيم فى السفينة أن تفرد لنا نحن المصريين الخمسة مائدة واحدة نتقابل سويا عليها . ولعل هذا كما رأوا ان يكون افضل فالعادات تكون بيننا بالضرورة متقاربة ، واللغة التى نتحدث بها واحدة ، وربما كانت افكارنا وموضوعات أحاديثنا غير متباينة . ومن العجيب أن كل هذه التوقعات لم تصب كبد الحقيقة . فقد كان كما يقال : كل له غرض يسعى ليدركه . بانت ظاهرة « الفردية » واضحة ونحن مازلنا على المركب في عرض البحر . ولم اكن اعجب كثيرا فقد علمتنى الحياة باننا بشر . وان الناس فيهما يعشقون مذاهب . ولكن الذى فاجأنى أننى وجدت ماكنت اتوقع

فى سرعة مذهلة . فلم تحظ الآنسة التى شاركتنــا الرحلة باهتمام احد الاهتمام الذى تتوقعه انثى مصرية من شبان مصريين . فعلى الرغم من ذكائها ورشاقة قدها واتقانها الفائق لتحسين وجهها « بالمكياج » ، فان الشبان الاربعة لم يهتموا بها الاهتمام الذى تتوقعه أنثى مصرية من شبان مصريين . ومع ذلك كانت تجتمع معهم ثلاث مرات على الاقل يوميا وربما أكثر من ذلك . وكــانت تتحدث مثل مايتحدثون فى مواضيع لايعرفون عنهــا شيئا . وكانت تحدثنى اكثر مما تحدث الآخرين . فالمشاركة فى العمل يسرت الاستمرار فى الحديث . وبدا لى ان هذه الانسة لا هم لها الا ان تتزوج . وكان كل الشبان الذين معها متزوجين قالت لى مرة ان سنها قد بلغت السابعة والعشرين وانها أن لم تتزوج قبل سن الثلاثين ستنتحر . وقد فزعت جداً لما قالت ولكنى لم اعلق على ماقالته بشىء .

كنت لاول مرة اركب سفينة كبيرة لها ادوار متعددة . وفيها اناس من كل الجنسيات ، وقد اسعفتنى لغتى فى الحديث مع كل من يتحدث معى . فقد كنت طالبا بالمعهد البريطانى أتعلم اللغة الانجليزية منذ اللحظة التى تركت فيها المؤسسة اى منذ شهر يناير عام ١٩٤٤ . وقــد امتحنت قبل السفر فى امتحان « الدبلوم العام العالى فى التربية » الذى تعقده جامعة لندن فى كل عام « يمتحن فى هذا الدبلوم على مرتين ، وقد امتحنت فى عـلوم المرة الاولى فى اواخر عام ١٩٤٧ » وهاانذا انتظــــر النتيجة . وكانت الحرب قد انتهت ولكن رائحتهــا مازالت تزكم الانوف . وكانت الحرب فى فلســطين على قدم وساق . وكنا نسمع عن الحكومات العربية ومايفرق بينها . كما كنا نسمع عن موقف الانجليز من القضــية

الذى كانت تؤازره دول الغرب الاخرى . ولاول مرة كنا نسمع كلمة « لاجئين » وعندما كنا نقرؤها فى الجرائد الانجليزية لم نكن نعلم معناها ، فكلمة
كانت كلمة جديدة على قاموسنا فى ذلك الحين . والواقع عندما أقول « كنا » فأنا اقصد « كنت » فأنا منذ دخولى ميدان الخدمة الاجتماعية اصبحت اهتماماتى كلها منصبة على الاصلاح الاجتماعى . وكنت ارى ان هذا قدرى . فالحاجة فى ضوء خبرات طفولتى وشبابى ومهنتى الى تغيير المجتمع المصرى فى ذلك الحين الى الافضل كانت ماسة . كنت اردد ان السياسة لا يمكن ان تكون خطبا ومظاهرات او تكسير الترام والفوانيس فقط . ان السياسة لابد ان تكون معرفة الواقع الحى ، معرفة ماهو كائن ، موضوعيا ، لكى نغيره الى مايجب ان يكون او الى مايمكن أن يكون . اعتبرت ان عملى الاجتماعى فى ذلك الحين قدرى . واننى فى حقيقة الامر اعمل بالسياسة . فالسياسة يجب ان تكون كما كنت اقول فى ذلك الوقت محو الامية والقضاء على الفقر ومكافحة الامراض بكل أنواعها جسمية كانت او نفسية او عقلية . كنت بعيدا عن السياسة بالمعنى الذى كنت أفقهه قبل ان اقتحم العمل الاجتماعى ولكننى لم أكن اسخر من الذين يعملون بصدق فى السياسة . كنت كلما تذكرت الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد ومن قبلهما عرابى وعبد الله النديم كان تذكرى هذا يشجعنى وكنت كلما اتذكر هؤلاء الزعماء وغيرهم اتذكر أبى وهو يجلس مع أصدقائه الوطنيين عندما كانوا يتحدثون حديث السياسة ويذكرون مدى التضحيات التى بذلها الزعماء عن طواعية فى سبيل مصرنا الخالدة .

وفى ميناء ليفربول وقفت السفينة ونودى على اسمين

كان أسمي بينهما ، أما الاسم الثاني فقد كان أسم الآنسة التي كانت ترافقنا . وطلب منا ان ننزل الى المدينة حيث توجد حفلة اجتماعية مقامة بقصد جمع التبرعات للعجز والعجزة في المدينة . ولما كنا « الانسة المرافقة وأنا معها » مهتمين بالعمل الاجتماعي فقد دعينا لنحضر هذه الحفلة ثم نبيت في المدينة ومنها نذهب الى مدينة لندن في صبيحة اليوم التالي .

وهانذا في مدينة لندن . كان ذلك في منتصف شهر فبراير عام ١٩٤٨ . وهانذا أبلغ سن الخامسة والثلاثين من عمري . فترة طويلة مرت حتى تحقق الحلم . مدينة واسعة مزدحمة . الناس فيها غير الناس الذين اعرفهم . وبدأ لي بل تحقق أن العلاقات الاجتماعية مختلفة عما كنت اعرف وامارس . كنا في السفينة ولاول مرة في حياتي تاكل على المائدة بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذي كنت امارسه في بيتي في القاهرة . كانت أمامي ملاعق وشوك وسكاكين مختلفة الاحجام والاغراض . فهذه ملعقة « الشوربا » وتلك ملعقة « الحلو » وهذه « شوكة لا تستعمل الا اذا كان الطعام سمكا » وهذه سكين يمكن ان تستعمل لقطع اللحوم ، وهناك سكين لا تستعمل الا اذا كنت تأكل فاكهة معينة . ولكن هناك نوعا ثالثا لا يستعمل الا اذا كان الشخص منا يأكل سمكا أيضا ، فآكلة السمك لها شوكة خاصة كما ان لها سكينا خاصة كذلك . لقد كنت أعلم بعض هذه الاشياء منذ ان كنت تلميذا بالمدرسة الابتدائية . وعندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية . ولكن هذا الزمن كان قد ولى ، واصبحت آكل كما كانت أمي وزوجتي تأكلان ، وكما كان اعضاء أسرتي الآخرون وحتى أصدقائي يأكلون . وعندما ذهبنا « الانسة المرافقة وانا معها » الى الفندق ، وجدنا

أوضاعا أخرى مختلفة . وكان أهم مالفت الانظار الطقس البارد والثلج الذى بدأ ينهمر فنحن فى شهر فبراير . ولم أكن قد رأيت الثلج من قبل عيانا بيانا الا فى أفلام السينما ، وهاأنذا أواجهه وجها لوجه . ونحن لم نختر الفندق الذى وصلنا اليه ، بل اختاره لنا ، مسبقا كما تأكد لنا بعد ذلك ، مندوب المجلس البريطانى الذى استقبلنا على محطة لندن . فكان وجود هذا المندوب رحمة أكرمنا الله بها وبلسما مر على نفوسنا التى كان يملؤها مزيج من القلق والحيرة من المجهول فبدد كل ذلك بسحر لقائه غير المتوقع . وعرفت غرفتى فى الفندق كما عرفت الانسة المرافقة غرفتها ، وكان الوقت موعدا مناسبا لتناول طعام الغداء ، فجلسنا على مائدة واحدة . وحرصت على أن أصحب الآنسة المرافقة على المائدة فى مواعيد الوجبات الثلاث . وظن البعض أننا زوج وزوجة . فقد كنت ترى احدى الانجليزيات تقتحم جلستنا على المائدة فتتحدث مع الانسة المرافقة حديثا عابرا وفى خلال هذا الحديث تحاول أن تشبع فضولها بالسؤال عما اذا كنا زوجين ، ولم يكن يهمها فى قليل أو فى كثير مضمون الاجابة عن هذا السؤال الفضولى . كنا شابين وكان من المحتمل أن تكون هذه الآنسة زوجتى وأن أكون أنا زوجها لولا أننا لم تكن كذلك . وكنا نجلس فى احدى حجرات الفندق لقراءة الجرائد أو للتحدث أو التعليق على ماكنا نرى من ظواهر وعلاقات اجتماعية وانماط السلوك . ولم تكن فى الفندق الوحيدين . كان معنا العديد من الناس . كان بعضهم من أهل البلاد وكان بعضهم أجانب مثلنا . وكانت المملكة المتحدة قد خرجت من الحرب مثخنة بالجراح . وكنا نرى آثار ذلك فى الطعام وفى الشراب

وفي الملابس وفي الشوارع حيث البيوت المهدمة ــ وكان انقطاع التيار الكهربائي يحدث اكثر من مرة في اليوم . ولكن الناس كانوا يعلمون سلفا الوقت الذى سينقطع فيه التيار . وبدات احس بقيمة الانسان في هذا المجتمع تجسدت امامي صورا عديدة من المواطنة . فانا اذكر « نحميس » الموظف في المعهد البريطاني بالقاهرة الذى ما ان علم بسفري الى لندن حتى ارسل على عنوان منزلي « بطانية » من الصوف اعطيها لاخته التي تعيش وتعمل في لندن . والملاحظ ان هذا النحميس على الرغم من انه يهودى ، وهذا في حد ذاته في ضوء قيمي في ذلك الحين وحتى الان لا غبار عليه ، كان موظفا متعسفا يتلذذ فعلا وواقعا بعذاب الاخرين والاشتراك في تعذيبهم سواء كانوا طلبة او موظفين يعملون تحت امرته . كان موضع ثقة المسئولين عن المعهد من الانجليز المسيحيين او اليهود فان علم ذلك عند ربي . وانا اذكر ايضا « مس ديفونشير » احدى الذين اسهموا في انشاء الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وكانت تعيش في مصر ، انها عندما علمت بسفري الى لندن طلبت مني ان آخذ معي « بلوفر » من الصوف لكي اعطيه لاحدى السيدات اللاتي يعشن في لندن ، وارسلت معه خطابا موجها الى فيه عنوان المرسل اليها ومرفق به ورقة بخمسين قرشا مصريا كمصاريف بريد اذا اردت ان ارسله بالبريد . ولعل من اهم مظاهر المواطنة ماقام به مندوب « المجلس البريطاني » من اجراءات تتعلق بالاجانب الوافدين الى المملكة المتحدة ، وكان اهمها في ذلك الحين الدفتر الذى عن طريق « كوبوناته » يصرف الشخص منا نصيبه الاسبوعي من الوان الاطعمة مثل .

اللحم والجبن والسكر والبيض والفاكهة « كان لا يباع الموز الا لمن هم في سن الثامنة عشرة فاقل » وكل انواع الحلوى وبخاصة « الشيكولاته » والملابس « كان لايمكن شراء منديل الا اذا دفع المشترى ثمنه مع عدد معين من الكوبونات » .. الخ . ولا يمكن ان انسى ابدا عندما احسست ذات مرة بالجوع ورايت ان اشترى قطعة من الشيكولاتة لأسكت بهما صراخ معدتي . وذهبت الى المحل الذى يبيع الحلويات ومنها الشيكولاتة فوجدت « طابورا » وقفت فى أخره وجاء الذى بعدى فوقف من ورائى حتى وجدتنى وجها لوجه امام البائع فطلبت قطعة معينة من الشكولاتة وسالت عن الثمن فذكره وقال وبالاضافة الى النقود تعطيني وذكر عبارة سمعتها « رشن كوبنز » — Russian Coins وترجمتها عندى « نقود روسية » . فقلت والطابور من ورائى يطول « اننى هنا فى لندن ولست فى موسكو فكيف احصل على نقود روسية ..؟ وفطن الرجل الى ما انا فيه من حرج لولا أن اخرج الشخص الذى كان من ورائى دفتره الخاص بشراء الحلوى واعطى البائع ما طلب من كوبونات . ان البائع لم يطلب منى نقودا روسية ، فهو لم يذكر العبارة التى اعتقدت اننى سمعتها ، انه ذكر عبارة — Ration Points والذى تفضل الشخص الذى كان يقف خلفى فى الطابور وتطوع باعطائها للبائع حتى احصل على بغيتى . ولولا ذلك ماكنت احصل عليهما . فالكل فى هذا المجال سواء والا فالقانون يقف للمخالف بالمرصاد . وانا لا اعنى هنا ان مواطنى المملكة المتحدة ملائكة . فقد رايت من بعضهم ما يؤكد صورا عديدة من التعصب العنصرى والتعصب الثقافى . ولكنهم كانوا يفعلون مايفعلون بأساليب غير مفضوحة ،

فيكفي ان عيني سوداوان ولم تكونا زرقاوين لاعامل معاملة غير منصفة . وسائق « التاكسي » اذا طلبت منه الذهاب الى السفارة المصرية مثلا يعـــاملني معاملة فظة ويصر اصرارا على طلب « البقشيش » الذي يوافق عليه . اما اذا كان ذهابي الى المجلس البريطاني فالمعاملة تبدو معاملة كريمة واذا اعطيته « بقشيشا » يأخذ ما اعطيتــه دون ان ينبس ببنت شفة . كنا نحن المصريين نعلم ذلك . وكنا نحن المصريين نتحمل ذلك من أجل ان نحصل على مانريد انظر الى بائعة الفاكهة وانا اشتري منها في ذلك الحين « والحرب مازالت رائحتها تزكم الانوف » وادفع ثمن ما أشتري تنسى « لانها تجهل » أن النقود التي أدفعها هي نقود امتصها الانجليز المستعمرون من دماء الشعب المصري الذي يكدح ليجعل من ارض مصر مزرعة للقطن الذي تغزله وتنسجه مصانع « لانكشير » . انظــر الى هذه البائعة وهي تزمجر في وجهي قائلة « انتم الاجانب تأتون الينا وتأكلون أقواتنا » . انها لاترفض البيع لي ولكنها بقولها لي ذلك أجد حلقي مرا . انظر أيضا وانا الحريص على ان أكون في الوقت الذي حدده لي أحد المسئولين في المجلس البريطاني لمقابلته ، فذهبت مبكرا حوالي الساعة . وعندما مررت في الشارع وجــدت سينما لا تعرض الا الاخبار . فقلت ادخل هذه السينما لارى الاخبار حتى يحين موعدي . وكــان من ضــــمن الاخبار « الامير عبد الله » امير الاردن في ذلك الحين وهو يصلي في المسجد الحرام . وعندما كبر للصـــــلاة « وكان هو الامام » سمعت همهمات انسانية تملأ القاعة المزدحمة ، ولما ركع صارت الهمهمات ضحكات ، وانقلبت الضحكات صيحات ساخرة عندما سجد . وانتهت الصلاة وانتهى العرض . وخرجت ساخطا متعجبا مفكرا . كان

ماحدث وانا في قاعة السينما مفاجأة لي لم أكن اتوقعها من شعب متحضر . انني كثيرا ماذهبت الى الكنيسة في القاهرة ، وكنت اجلس جادا واشاهد ما اشاهد وانا في رهبة . كنت ، ومازلت ، لا افرق بين دخول مسجد من المساجد او كنيسة من الكنائس . انها أماكن لها سمات خاصة وتعيش في ظل مناخ ثقافي يدعو الى التأمل والتفكير الجاد . اما مارأيت في قاعة « سينما ستوديو وأحد » اى القاعة التي عشت فيها اول تجربة لي عندما كان الامير عبد الله يصلي في المسجد الحرام فقد كان امـــرا غير متوقع . وقد دعاني هذا الامر الى التفكير كثيرا . ولم اصل الا الى انني ذكرت انه اذا كانت النيات حســـنة فالثقافة التي يعيش في ظلها المواطنون في المملكة المتحدة متباينة . هم يقدسون امورا قد لا نقدسها ، ونحن نقدس امورا قد لا يقدسونها . ولكنني في ضوء خبراتي الماضية وحتى ذلك الحين وبعد ذلك الحين وحتى كتابة هـــذه السطور اجدني أقرر ان النيات لا تكون حسنة على الدوام وان المصالح ، مصالح الناس ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، اى ان كل او معظم مايصدر عنـــا من انماط السلوك يكون في ضوء كل ذلك . — Hull

وكنت جالسا بعد الغداء مع الآنسة المرافقة عنـــدما جاء مندوب المجلس البريطاني الذى ابلغنا بأن البرنامج قد أعد . فكل الدارسين سيذهبون الى ميناء « هل » غدا ، وكنا في الاسبوع الرابع من شهر فبراير . وبعد قضاء اربعة اسابيع سيوزع الاعضاء الى مواقع عمل كل فيما يخصه . وعرفت لاول مرة اننـــا لسنا وحدنا بل سيكون معنا دارسون آخرون . ولمـــا كان تخصصي وهو « دراسة نظم محاكمة الاحـــداث

وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية » ، فان هذا يعنى ان اتصالى بالآنسة المرافقة لن يدوم . وقد كان ذلك لى املا ، كنت ادعو الله وانا ساجد ان يتحقق . فقد تركت أمي وزوجتي واحمد وسمير وتيسير « التى شرفتنا فى يوم ٢٣ من شهر ابريل عام ١٩٤١ » ومسعد « الذى شرفنا فى يوم ١١ من شهر ابريل عام ١٩٤٣ » . وهم الاعزاء الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم وكانوا يعيشون معي . كانوا قطعة مني وكنت قطعة منهم .
لا ارى سيدة عجوز الا وذكرت أمي ، ولا ارى شابة فى الثلاثين او اكثر بقليل الا وذكرت زوجتى . واطفالى احمد الذى أصبح الآن فى سن الخامسة عشرة وآمال التى اصبح سنها احدى عشرة سنة وسمير الذى بلغ من العمر تسع سنوات ، وتيسير التى أصبحت فى سن السابعة من عمرها ومسعد الذى لم يعد الخامسة من عمره . انهم اجزاء من حياتى التى عشتها ولولا أن حرمنى جدى من اكمال التعليم وانا فى السنة الرابعة الثانوية فى مدرسة الخديوية الثانوية عدوا ، ولولا امل ابى الذى كنت فى صدق ابغى ان احققه ، ولولا شغفى بالعلم الذى كان يزداد يوما بعد يوم ـ ماتركت هؤلاء الاعزاء ، الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم ، وكانوا يعيشون معى . كنت فى الغربة ولكن مشاعرى نحو هؤلاء الاعزاء كانت تجعلنى لا احس مرارتها . وكان لى من تدينى الدفين وجاء يحمينى من النزوات ومن التفكير فيها .
ركبت القطار الى ميناء « هل » وكان المناخ عاصفا . والثلج من السماء ينزل غزيرا غزيرا . ويبدو أن الدارسين كانوا يركبون نفس القطار . ولكنى لم اكن اعرف احدا منهم سوى الآنسة التى كانت ترافقنى . وما ان وصلنا الى الميناء حتى وجدنا عديدا من الاشخاص سيدات

ورجال واقفين ينتظرون . واذا بهم بعد أن علموا من نحن « أقصد الدارسين جميعا » يرحبون بالجميع . كان البرد قاسيا وادخلنا في مبنى فيه قاعة في احد اركانها مدفاة فاذا بنا نلتف حولها وكأننا « كتاكيت » تلتف حول « دجاجة » تلتمس الدفء من جسدها . كنا عشرين شخصا من بلاد متعددة . كان بعضنا من فرنسا ومن بلجيكا ومن ايطاليا ، وكان البعض الآخر من المانيا الغربية ومن الدانيمارك ومن اليونان فضلا عن زميلتي وانا. وجلسنا على موائد كان يجلس عليها الذين استقبلونا . كان ممن يجلسون نساء ورجال أو نساء فقط . وطلب منا ان يجلس كل واحد منا على احدى الموائد . وكان عدد الموائد عشرين . فجلست على واحدة منها ، وجلس كل دارس على مائدة ايضا . وعرفنا أن الجالسات والجالسين على الموائد كانوا كلهم من اهل الميناء ، وكانوا على وفرة من الرزق لكي يستضيفونا .
وكان نصيبي ان اذهب مع السيدة التي كنت أجلس معها على المائدة التي لم أختر الجلوس عليها ولكنني جلست لمجرد وجود كرسي خال أمامها . ذهبت مع السيدة ضيفا على اسرتها كما ذهب زميلاتي وزملائي ضيوفا على أسر من استضافوهم . وكانت فرصة مزدوجة لكل من الضيوف والمضيفين . كنا نحمل ثقافات متعددة . وكانت الفرصة مواتية لكي نتبادل عناصر ثقافة كل واحد منا .
وعرفنا نحن الدارسين البرنامج الدراسي الذي سنتبعه ونحن في ميناء هل . كان يتضمن دراسة نظم الخدمة الاجتماعية في هذا الميناء . وكان برنامجا حافلا على الرغم من انه كانت تتخلله فترات تناول الطعام الجماعي وبعض الحفلات التي كانت تقام على شرفنا . وانني اذكر انه بعد مرور اسبوع ونحن في الميناء اذا بالزميل جمال نصوحي

والزميل احمد كمال بنضمان الينـا . وقد وجـدا فى التو بأسرتين استضافتاهما واستكملا معنا البرنامج الذي استغرق اربعة اسابيع . وجدت فى خلالهـا حياة الطبقة الانجليزية ذات المستوى المادى الرفيع كيف تعيش . وكنت حريصا وانا اعيش فى الاسرة التى قدر لى ان اعيش مع اعضائها على ان الاحظ مايبدو لى من علاقات اسرية بين الزوج والزوجة وبين الام والابنـة « وحيدة الاسرة » وبين الاب والابنة ، وبين الجميـع والخدم والحشم الذين يحيطون بهم . كانت اسرة فيها النعيم المادي واضحا جدا ، ولكنها كانت بيئة لم اطق ان اعيش فيها الا لكى الاحظ وادرس واتعلم . كنـا نتحدث احيانا فى العلوم الاجتماعية التى كنت الم بها : وكان صاحب البيت « الزوج » مهتما بالسياسة وبعلاقة مصر بانجلترا ومايجب ان تكون ، وكانت صاحبة البيت « الزوجة » ، وكانت تبدو فى الخمسين من عمرها ، تهتم اهتماما بالغا بزينتها وبموعد طبيب الاسـنان وبالذهاب الى « الحمام التركى » الذى يوجد فى مينـاء « هل » . اما ابنة الاسرة الوحيدة فقد كـانت شابة فى العشرين من عمرها وربما اكثر من ذلك ، وكانت قـد تخرجت فى مدرستها رفيعة المستوى ، المدرسة التى يذهب اليها من كانوا من طبقتها ، — Public School وقد بدا لى انها متوقعة ان تتأهل فى القريب العاجل ، وان خطيبها فى رحلة عمل وينتظر ان يعود قريبا . ولما عرفت هذه الاسرة اننى — Egyptian ظنوا اننى — Gypsy وشتان بين مضمون كل اسم . فاعضـاء الاسرة على الرغم من الثراء فى المال وفى « الثقـافة » لم يستطيعوا ان يفرقوا بين معنى الاسم الاول وهـو

« مصرى » وبين معنى الاسم الثانى وهو « غجرى » . اى شخص يستطيع أن يقرأ « الطالع » مثلا . ولما كنت اعرف قليلا فى « قراءة الكف » تركت اعضاء الاسرة وبخاصة الزوجة والابنة والزوج يثقون فى هذه المعرفة على الرغم من تاكيدى لهم جميعا ثقتى فى عبارة « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وجاءنى الجيران وبخاصة النساء من كل مكان لاقرأ لهن « الكف » . واصبحت سمعتى فى هذا المضمار فى محيط الاسرة التى اعيش معها وجيرانها سمعة عالية لم اتخلص منها الا عندما إتم الدارسون وانا منهم « برنامج دراسة نظم الخدمة الاجتماعية فى ميناء هل » .

ومن ميناء هل ذهبنا الى لندن وعشت فى نفس الفندق الذى كنت أعيش فيه قبل ان اتركه للذهاب الى ميناء هل . لم اعد الى الفندق وحدى ولكنى كنت فى صحبة الزميلة المرافقة والزميلين جمال نصوحى واحمد كمال . وبتنا ليلتنا كل فى حجرته ، وفى الصباح وجدنا الزميل صالح الشبكشى جالسا فى احدى غرف الاستراحة فى الفندق . وكانت فرصة رائعة ان نعيش فى بلد اجنبى وكأننا كنا نعيش فى بلدنا . ومالبثنا ان تفرق الجمع . ذهب كل واحد منا الى الموقع الذى سيتدرب فيه . ولما كان اهتمامى هو دراسة نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم فقد اختير لى ان اذهب الى«وولتش» حيث يقع مكتب للمراقبة الاجتماعية بالمحاكم فيها . ونصحنى المجلس البريطانى ان انتقل الى احدى الاسر التى تقع بالقرب من هذا المكتب . وذهبت فعلا الى أسرة « مستر بريموكوم » ، حيث وجدت زوجته وابنه وخطيبة ابنه وبعض الدارسات والدارسين ممن يتحدثون اللغة الفرنسية اما لانهم فرنسيون او جاءوا من بلاد

يتحدث اهلها اللغة الفرنسية . وقد جاءوا الى اسرة مستر بريموكوم لكى يتدربوا على التحدث باللغة الانجليزية . اى ان هذه الاسرة كانت ، وربما مازالت ، مدرسة لتعليم الحديث باللغة الانجليزية عن طريق الممارسة ، وبخاصة وان ربة الاسرة « مسز بريموكوم » كانت فرنسية الاصل . ومهما يكن من الامر فان هذه الوظيفة لم تكن لتهمنى فى شيء . فقد جئت الى الاسرة لكى ابيت واتناول وجبات الطعام لقربها من المكتب الذى وقع الاختيار عليه لاتدرب فيه على نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم . وقد وجدت بمرور الزمن ان عددا من النزلاء كانوا فى الاسرة من اجل نفس الفرض اى لمجرد المبيت وتناول وجبات الطعام فحسب . وبقيت فى موقعى ادرس واتدرب . ادرس الحياة واتدرب فى مكتب المراقبة الاجتماعية بالمحاكم . وكانت خبرتى تسمح لى بالمقارنة الموضوعية بين ما كنت اعمل فى مكتب القاهرة وما اراه فى مكتب وولتش . ومرت الايام سراعا وابلغت بموعد الانتهاءمن التدريب فى هذا الموقع على ان اكون فى ميناء « كارديف » « ويلز » فى الاسبوع الاول من شهر مايو عام ١٩٤٨ . لأتدرب فى مكتب المراقبة الاجتماعية بمحاكم كارديف لفترة شهرين ونصف تقريبا أكون بعدها فى لندن فى منتصف شهر يوليو حيث انضم دارسا مع بعض المراقبات الاجتماعيات والمراقبين الاجتماعيين الذين يعملون او سيعملون فى مكاتب المراقبة الاجتماعية فى انجلترا او ويلز . وكما كنت الشخص الوحيد المدرب فى مكتب وولتش أصبحت فى كارديف الشخص الوحيد ايضا . واذا كانت وولتش احدى ضواحى لندن حيث يقع بالقرب منها خط « جرينتش » المشهور فان كارديف عاصمة مقاطعة ويلز . وهى فى حقيقة الامر ميناء

كبير ونشاطاته التجارية يعرفها القاصى والدانى .
عشت فى « رشموند غاردس » وهو بيت تديره صاحبته « مسز برنر » لتساعد زوجها الذى يعمل فى أحد المصانع فى بلد قريب لمواجهة الحياه والصرف على تربية ابنهما الوحيد الذى يدرس فى احدى الكليات . عشت فى هذا البيت لفترة شهرين ونصف شهر تقريبا . جئت فى الاسبوع الاول من مايو وكنت وحدى وتركته الى القطار فى منتصف شهر يوليو وكان معى مسز برنر وزوجها وابنها مودعين . وعلى الرغم من اننى كنت مستغرقا فى دراساتى الاجتماعية فقد كانت الامور السياسية تجتذبنى . فأنا اقرأ الجريدة فأقرأ ضمن ما اقرأ ماكان يحدث فى فلسطين قبل شهر مايو عام ١٩٤٨ وماحدث فى اثناء هذا الشهر . وكنت احاول ان اتخيل ماسيحدث بعد ذلك فى فلسطين التىاصبحت « اسرائيل » . ومع ذلك فان التفكير السياسى عندى لم يكن ذا بال لانه لم يكن عميقا . وكنت أرى فى ذلك الحين ان مهنة الخدمة الاجتماعية فى محيط الاحداث الجانحين هى قدرى . ولكن رأيتنى اذ اترك القراءة فى السياسة أعود فأقرأها . وبدأت اطالع صحف «التيمز» و « الديلى اكسبرس » و « الديلى ميل » فضلا عن « الديلى وركر » . وكنت أجد الاعلانات عن الكتب فى الجريدة الاخيرة وامنى نفسى بشرائها فى يوم من الايام . وكنت اجد الاعلانات عن المحاضرات وموضوعاتها التى كانت تجتذبنى وانذر فيما بينى وبين نفسى اننى عند عودتى الى لندن سأحضرها . اننى كنت أحضر الصلاة فى الكنائس واسمع المواعظ فيها وفى الاذاعة ، وانا المسلم الذى مازلت أؤمن بأن الدين هو المعاملة ، فما على لو ذهبت الى محاضرة من المحاضرات او كل

المحاضرات التي تنشر عنهـــا وتعلن عن موضوعاتها ومواعيدها صحيفة الديلي وركر ؟ انني اريد أن اتعلم . الم يكن هتافى مع آخرين وانا فى التاسعة أمام مكتب وزير المعارف العمومية فى النصف الاول من الثلاثينات، بأعلى صوت ، « نريد ان نتعلم » ؟ وهاهو ذا العلم يرحب بى افلا ارحب به ايضا ؟ الم اسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ؟ ان الدراسات السياسية مازالت بعيدة على الرغم من اشواقى اليها . ولكن عام ١٩٤٨ ، شهر مايو ، وانا فى الغربة ، عام التقسيم ومذبحة « دير يسن » وقيام دولة اسرائيل قد زاد من هذه الاشواق الى الدرجة التي جعلتنى أشعر بالذنب لتقاعسي عن محاولة فهم مايدور حولى فى دائرتى الضيقة وفى بلدى وفى العالم اجمع ، ان هذا العام قد فعل فى نفسي الكثير والعظيم ولعله ان يفعل الاكثر والاعظم . وسرعان ما تذكرت ماكان يحدث من نقاش بين تلاميذ اسرة البريموكوم . كان من بينهم وطنيان من فيتنام ، وكانا يتحدثان كثيرا عن « هوشى منه » : تعاليمه وأهدافه نحو تحرير وطنه من المستعمر الفرنسي « الغـــربى » والاساليب التي يتبعها فى سبيل تحقيق هذا المأرب . كانا يذكران لى ، وقد علما أنني مصري وان مصر مازالت تحت نير الاستعمار الانجليزى ، فى السر لافى العلانية كل ذلك ، وكانا يضيفان نبذات عن تاريخ حياة « هوشى منه » . وكان كل ماسمعته منهما جديدا على اجتذب انتباه افكارى . وعلمت أن ضروب المعرفة الوان شتى ، وان القضايا الانسانية متعددة . وان النظر الى كـل قضية قد يحتمل اكثر من رأى ومن اتجاه ومن هدف .

وعلى الرغم من اهتمامى الشديد بكل الامور المتعلقة بتدريبى وانا فى كارديف ، فانني تركت جانبا للتفكير

في الامور الاخرى . وعزوت عزوفى عن عدم الاهتمام الكافى بالامور السياسية وانا الذى نشأت فى حضن أفكار مصطفى كامل ومحمد فريد ومن قبلهما عبد الله النديم الى عدم الوعى الكافى عندى . اننى لم أفرق فى ذلك الحين بين مفهوم « المصلح الاجتماعي » ومفهوم « المصلح السياسى » ومفهوم « المفكر » . وكنت افرق بين المصلح الاجتماعى والمصلح السياسى مع العلم بأن اهداف كل واحد منهما تكون أو لابد ان تكون واحدة . كنت افرق بين الدورين . ولم اكن اعلم شيئا عن مفهوم المفكر ودوره . وقد حدست فى ذلك الحين ، وكانت سنى قد زادت على الخامسة والثلاثين ، ان مفهوم المفكر غير مفهوم المصلح سواء كان هذا المصلح اجتماعيا أو سياسيا . وان دور المفكر لا يمكن أن يكون سوى أن يرشد المصلح ، انه لا يصلح ولكن يرشد المصلحين وينشر الوعى بين القادرين على استيعاب هذا الوعى . وتساءلت فى صدق وفى روية « ماهو قدرى » ؟ ولم استطع الاجابة عن هذا السؤال فى ذلك الحين . ولكننى اكدت لنفسي اننى مازلت ، على الرغم من أننى كنت قد تصورت اننى بدأت فعلا ، فى البداية . وأمامي ماوسعنى الزمن مصدران من المعرفة الانسانية المنتظمة منها وغير المنتظمة وهما الدراسات الاكاديمية ودراسات المجتمعات الانسانية : دوائر المعارف الحية التى احيا بين أعضائها من الناس سواء أكانوا افرادا ام كانوا جماعات . وتذكرت فى حسرة اننى حتى الان لا اعرف الا القليل القليل عن تاريخ مصرنا الخالدة منذ عصر ماقبل التاريخ وحتى الآن اننى لا اعرف عن المجتمع المصرى المعاصر شيئا هاما ، ولا اعرف عن ثقافته ومصادرها سواء اكانت فرعونية أم فارسية ام يونانية ام رومانية ام مسيحية ام عربية

اسلامية ام مملوكية ام تركية ام غربية الا الشدوات .
فاذا كنت اريد ان ابدأ فمن هنا يجب ان ابدأ .
وفى منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ عدوت الى لندن لاكون ضمن جماعة من الدارسات والدارسين البريطانيين لتلقى دراسات اكاديمية عن موضوع التخصص الا وهو نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم . وانا لا اذكر امورا كثيرة عن ميناء كارديف . ومن الامور التى اذكرها اننى كنت احذر من الذهاب الى حى بعينه بعد الساعة السادسة مساء . وكنت لا اذهب الى هذا الحى بعد السادسة مساء ، ولكنى كنت ، حبا فى الاستطلاع ، اذهب الى هذا الحى نهارا جهارا . وكنت سائرا ذات يوم متجها نحو البحر فاذا بشاب يتحدث من ورائى بصوت عال قائلا باللغة العربية : « والله العظيم الجدع ده مصرى » ، وقد لفتت سمعى كلماته فالتفت اليه فاذا به يضحك جذلا مسرورا . كان مصريا من ميناء « بورسعيد » قذفته امواج المقادير الى ميناء كارديف حيث اقام وتزوج وانجب ، ولكنه مازال فى صميم كيانه مصريا . وكانت لحظة انسانية اذكرها على الدوام .
واذكر ايضا اقامتى مع اسرة بوينر . فقد كانت اقامة طيبة . اعتبرت واحدا منهم . وفى فترات العطلات الرسمية عدا عطلات الاسبوع كنت ارافق اعضاء الاسرة فى رحلاتهم القصيرة التى يختلسونها من الزمن ترويحا عن النفس او اداء لواجب من الواجبات . ومن هذه الواجبات زيارة ام مستر بوينر التى كانت تعيش بسبب كبر سنها فى « دار ضيافة » للمسنين والمسنات .
وذهبت مع اعضاء الاسرة لزيارة الام ظانا انها تعيش فى بيت عادى . ولما وجدتها مع غيرها تعيش فى دار ضيافة اهتز جهاز قيمى . انها تعيش حياة سعيدة مافى ذلك

من شك ،حياة مشتركة فى مكان جميل نظيف هادىء يشع المشاعر الانسانية التى تصدر عن قلوب صافية قلوب المرضات والمشرفات والاطباء وغير هؤلاء من العاملين . وكانت السيدة العجوز فى غرفتها عندما وصلنا الى الدار ، واستقبلنا ابنها وزوجته وحيدها ثم انا . وما ان علمت بأننى مصرى تهللت اسارير وجهها الذى تملؤه الغضون وقالت « مصر » انها ذكرت فى « الكتاب المقدس » . وكانت معلومة جديدة على لم اكن أعرفها من قبل اليوم . وجلسنا فترة من الوقت ، وعندما آن وقت الرحيل رحلنا ؛ واذا بى اذكر امي وانا اسأل نفسى ماذا يكون الامر اذا مافعلت لامي مافعله مستر بوينر لامه ؟ ورددت على ذلك توا وكأننى اتحدث « مستحيل .. مستحيل » .

كان الدارسون من النوعين ، وكان معظمهم من البريطانيين ، ولم اكن الاجنبى الوحيد بينهم بل كانت معنا آنسة من الملايو . كانوا يعيشون ويتعلمون ويتدارسون فى مكان مخصص لذلك فيما عداى والمواطنة الوافدة من الملايو . ان الدارسات والدارسين البريطانيين سيعملون معا فى نفس الميدان كل فى موقعه . واريد بحياتهم المشتركة ان يكون التعارف بينهم على أسس وطيدة . فالعمل فى ميدان الاحداث الجانحين وبخاصة فى مجال تطبيق نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم يحتاج الى التعاون بين العاملين فى هذا الميدان ، حتى ولو كانت مواقع العمل متباعدة . فالذى يعمل فى لندن قد يحتاج لمن يعمل فى كارديف والعكس صحيح . ان الاحداث هم ابناء الوطن ورعايتهم انى وجدوا مسألة لايشك فيها احد من الدارسات والدارسين .

واذا كانت الحياة فى ميناء هل بالنسبة لمن حضروا

البرنامج الدراسى لنظم الخدمة الاجتماعية فى هذا المبناء وانا منهم حياه محددة ، فان الحيـــاة فى وولتش وفى كارديف ثم في لندن كانت بالنسبة لظروفى اكثر حرية. كنت ذهب واروح فى غير اوقات العمل الرسمية كيفما اشاء . وعندما كنت في لندن فى المرة الاخيرة اى فى خلال الفترة من منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ حتى نهاية شهر اغسطس عام ١٩٤٨ ، كانت نشـــاطاتى الحرة وكانما بلا حدود ففضلا عن ذهابى الى المحـــاكم بدرجاتها ومستوياتها « محاكم الاحداث ومحكمة اولدبيلي المشهورة مثلا » والى مؤسسات الاحداث ودور الضيافة التى يودع فيها الشبان وغيرها ، ذهبت أيضـــا الى البرلمان البريطانى وحضرت احدى الجلسات ، وذهبت الى المتحف البريطانى ورأيت المـــكان المخصص للآثار المصرية وتفقدتها فى حسرة وكأننى غريب عنها . وذهبت الى مكتبة لندن ورايت المكان الذى كان يجلس فيه «كارل ماركس » يقرأ ليكتب ويكتب ليقرأ دون انقطاع . ولم اترك يوم احد الا وذهبت الى « هايد بارك » . واتيحت لى الفرصة لاشترى الكتب التى ارغب فى شرائهـــا . وحضرت المحاضرات التى كانت جريدة الديلى وركـــر تعلن عنها ، وزرت كنائس لندن وسمعت المواعظ . وكان ينبوع المعرفة متدفقا فشربت وشربت ولكنى لم أرتو . ومهما يكن من الامر فان دراستى فى المملكة المتحدة فى خلال الفترة فبراير ــ سبتمبر ١٩٤٨ لدراسة نظـــم محاكمة الاحداث واساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية كانت أول دراسة علمية وعملية لى فى الخارج . وكانت اتاحة الفرصة لهذه الدراسة فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية السابقة عليها أمرا كنت آمل ان يتحقق ولكنى لم اكن اتوقع تحقيقه فعلا ! ومن اجله تركت الاعـــزاء

من أهلى وزملائى . وكانت آثار هذه الفرصة فى نظرتى نحو الحياة آثارا عميقة للغاية . وظهرت عن طريقهـا امامى بجلاء ووضوح مصـادر العلم وتقاليـده تتلألأ وتشع بنورها وهديها . وبدأ حرصى واعيا . كل ذلك بقصد الفهم الموضوعي لما ارصد من ظواهر المجتمعـات الانسانية التى اعيش فيها ، وبخاصة المجتمع المصرى ، او بعض المواقف الاجتماعية التى بدات ان اراها او بعض العلاقات الاجتماعية الجديدة او القديمة التى لم اكن اجدها امامى على الدوام .

وفى ضوء خبراتى الجديدة التى حصلت عليهـا فى خلال دراستي لنظام المراقبة الاجتماعية بالمحـاكم فى المملكة المتحدة فى خلال عام ١٩٤٨ ، تبين لى بعض الفروق فى النظامين المتبعين فى مصر وفى المملـكة المتحدة . وعلى الرغم من العبء الكبير الذى حمله مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى خـلال الفترة التى مرت بعد انشائه ، وعلى الرغم من العقبات التى صادفت اعماله فى خلال هذه المدة ، فقـد لفت نشاطه انظار الكثيرين المهتمين بشئون الاحداث الجانحين ويعتبر عام ١٩٤٩ ، فى ضوء خبرات المكتب القديمة المتجددة ، عاما طيبا بالنسبة للاحداث المصريين الذين تدفعهم الظروف الى ارتكاب جريمـة من الجرائم او اذا وجد احدهم فى حالة من حالات التشرد فى صورة المتعددة وذلك بصفة عامة ، ثم على مكتب الخـدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة بصفة خاصة . وذلك لان وزارة العدل كانت قد شكلت لجنة فى يوم ١٥ من شهر مايو عام ١٩٤٨ لدعم مكاتب الخدمة الاجتمـاعية لمحاكم الاحداث فى مصر من السادة الاستـاذ محمد حسن العشماوى والدكتورمحمد عوض محمد والاستاذ

محمد فهيم وقاضي محكمة الاحداث بالقاهرة في ذلك الحين ، وقد اشتركت في اعمال هذه اللجنة بعد عودتي من المملكة المتحدة بوصفي مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وقد اهتمت اللجنة ببحث حالة كل من مكتبي القاهرة والاسكندرية . وانتهت من دراستها ورفعت تقريرها الي وزير العدل وطلبت اعتماد مبلغ ٨٠٠٠ جنيه مصرى سنويا لمكتب القاهرة وتمت الموافقة على هذا المبلغ على ان يصرف للمكتب مبلغ ٤٥٠٠ جنيه مصرى سنويا له ويصرف مبلغ ٣٥٠٠ جنيه مصرى لانشاء دار للملاحظة تلحق بالمكتب .

واذا كنت قد بدات العمل في مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة في اول شهر يناير عام ١٩٤٤ فانه عندما عقدت العزم على ان استكمل دراساتي العليا في الخارج لكي احصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجرام في اوائل شهر فبراير عام ١٩٥١ ، راى المسئولون على الكتب في ذلك الحين أن اتركه . انني لم اقدم استقالة لانني لم اكن ارغب في ترك المكتب الذى صار جزءا من كياني وصرت جزءا من كيانه . وارجو ان يلاحظ القارىء انني عندما عقدت العزم على أن استكمل دراساتي العليا لم أكن متسرعا . لقد كان هذا الموضوع شغلي الشاغل منذ أن عدت من المملكة المتحدة في شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . اى بعد أن رايت مارايت من ضروب المعرفة وعناصرها في مدينة لندن وفي غيرها . عدت الى القاهرة وانا اكثر ثقة في نفسي وكانت ثقتي في العودة كبيرة لا تتزعزع . وكنت قد ارتبطت معنويا بمواثيق مع ابي ان لا اخيب ظنه في وان احقق حلمه لكي استكمل دراساتي العليا . وكانت امي تشاركني معنويا في هذا الارتباط . ولكن ! في شهر

يناير عام ١٩٥٠ ، في يوم ١٩ من شهر يناير ، أي بعد عشرين عاما من وفاة أبي ، ماتت أمي . واصبحت مقيدا بمواثيق ابي ومواثيق امي حتي لا اخيب ظنهما ولكي احقق حلمهما . انها لم تمت فجاة . ولكنها مرضت واحضرت لها الاطباء وماتت بعد أيام من اعلان مرضها الذي يبدو انها كانت تخفيه عني حتي لا تزعجني . وقد حضرت لحظة وفاتها ولكني كنت في غرفتي فلم أرها وهي تموت . ولكن ابنتي تيسير التي كان عمرها في ذلك الحين لا يعدو التاسعة كتبت في مذكراتها ماسمعت ومارأت . قالت تيسير :

عندما احاول ان اتذكر ذكرياتي مع هـذه السيدة الحبيبة اجدني عاجزة عن ان اوفيها حقها من الوصف لانها تمثل الحنان كله والحب كله .. والدفء كله ، لقد عشت معها طفولتي المبكرة .. بعض منها أتذكره واحسه ولا انساه ، والبعض الآخر احسه فقط ، ولكنه ترك اثرا في نفسي لاينسى .. وهي انها احن واحسن انسانية خلقت على الارض ..

ومن هذه الذكريات :

ـ احب واحسن منظر رؤيتي لستي « جدتي » في الصباح الباكر عندما استيقظ فأجدها تفطر « لقمة وحبة دقة » لنفير ريقها قبل شرب قهوة الصباح . كانت هذه من اهم ماتتميز به .. وكنت اجلس بجانبها واعيش معها لحظات بهجة وحب وحنان .

ـ في يوم التقط بابا لنا صورة انا وهي ومسعد . انا في حضنها .. ايديها ايديها الحنون تلفها حولي وانا امسك يدها .. ومسعد يجلس على حجرها .

ـ كنت انام معها على سرير واحد انا ومسعد ، انا في ظهرها ورجلي ويدي تلتفت حولها .. ومسعد في

حضنها .. وكانت تقول انني « البد » في ظهرها ..
ـ كانت هذه السيدة تعيش معنا وتساعد والدتي في كل شيء في المنزل من عجين وغسيل ـ وطبيخ . وكان « تقرص » العيش ونطلب منها « سمير ومسعد وأنا » ان تعمل لكل واحد منا « حنون » لترضينا جميعا .
ـ كانت ستي طيبة واميرة وكريمة تعيش معنا وكأنها لا تعيش . كانت مثل الملائكة .. مثـــل النسيم .. والطريف كانت دائما تخرج لتزور اخواتها بالمنشية « حي الخليفة » وبيت عويس .. كانت روحها هناك .. وكانت تأخذنا معها في بعض الاحيان . وخصوصـــا في بعض المناسبات السعيدة مثل فرح أحد ابناء اخواتها . ولكنها كانت في كثير من الاحيان تهرب منا فلا نراها وهي خارجة متسللة بملاءتها السوداء . وعندما نشاهدها وهي قادمة من بعيد قلبنا يدق .. ونعرفها على الفور .. وكانت تحضر عند الغروب .. وكنت واخي سمير واخي مسعد نقابلها بهتاف : ستي جت .. ستي جت . ستي جت . وكانت تحضر معها الفاكهة مثل التفاح والمـــوز وكذا الحلويات . وكان وجودها معنا يضفي على الحياة متعة حلوة وطعم جميل وبهجة طيبة افتقدناها برحيلها عنا ..
ـ منظر لم ولن أنساه مهما حييت الا وهو عندمامرضت هذه السيدة العظيمة الحبيبة . وكنت لا اعي شيئا مما سيترتب عليه مرضها هذا .. وكنت العب وفسـرحانة بالضيوف الكثيرة وهن سيدات يلبسن الملابس السوداء ومعظمهن اخوات ستي . وقد كانت ستي على فـراش الموت ودخل أبي عليها وكانوا اخواتها يعملون له الف حساب . وقد سألها عن صحتها فتحاملت على نفسها وقالت أنها بخير . ثم اسلمت الروح .
ربما اذكره الان أنني بعد عودتي من رحلتي الدراسية

فى المملكة المتحدة الى القاهرة ، كان استقبالى من الزميلات والزملاء حسنا .. وكان هذا متوقعا . اما ماكان غير متوقع فقد كان حرص السيدة زاهية مرزوق والدكتور محمد عوض محمد على مقابلتى . قابلتنى الاولى فى مكتبها فى وزارة الشئون الاجتماعية وكانت كما يقول المصريون « سمن على عسل » ، ودهشت لذلك كثيرا وحاولت تفسيره فلم استطع فى ذلك الحين ولا بعد ذلك الحين . ان هذه السيدة لان اسمها « زاهية » كان الآخرون يتداولون اسمها فيما بينهم لا بقصد التفاخر به او اضفاء المديح لصاحبته ولكن على العكس من ذلك تماما . الى الدرجة انهم كانوا يستبدلون باسم زاهية اسم « داهية » اما الدكتور عوض فقد كان موضع الاحترام فقد كان عالما مرموقا مافى ذلك من شك . كان صاحب مدرسة تفخر مصرنا الخالدة بأبنائها حتى الآن وعندما ذهبت اليه لمقابلته حدد موعد هذه المقابلة فى منزله . وذهبت الى الموعد وانا فرح للغاية كما اذكر الان . وكانت هذه الزيارة فاتحة زيارات عديدة جاءت بعدها . كان لطيفا ينم حديثه على الثقافة العميقة الواسعة الارجاء . ولكنى فى احدى الزيارات رأيت منه ماشوه الصورة الرائعة التى حفرت فى دماغى عنه . لقد روى لى بعضا من تاريخ طفولته وشبابه وبعضا من الكفاح فى سبيل التحصيل العلمى . ثم ماجرى له فى لندن عندما ذهب اليها ليدرس دراساته العليا . عندما وضع امتعته فى احد البيوت التى توافق على ايواء الاجانب بأجر تم الاتفاق عليه ، وعندما ذهب مستريح البال ليرى معالم المدينة ، ولما عاد عند الغروب فوجد امتعته على درجات سلم البيت الذى استاجر احدى غرفه بعد موافقة صاحبته . واتضح له أن جيران صاحبة

البيت عيروها لانها وافقت على تأجير احدى غرف بيتها لا لاجنبي ولكن لاجنبي أسمر اللون . وكان يحكى لى القصص التى تدل على المعاناة التى واجهها فى حياته الاولى وعلى قوة الارادة التى يسرت له مواجهتها . ولكننى فى احدى الزيارات رايت منه ماشوه الصورة الرائعة التى حفرت فى دماغى عنه . كنت معه وحدنا . ودق « جرس » الباب فقام ليفتحه فاذا بى اسمع صوته وهو يزمجر صائحا « انا مش هنا » ! وعرفت إن الزائرين من بلدته جاءوا على غير موعد فرفض الا ان يكون اعتذاره لهم بأسلوب الحديث الذى مازال صدى كلماته يرن فى اذنى الى قلبى وعقلى حتى الآن . ومع ذلك فقد ظل احترامى لعقله واتساع آفاق علمه باقيا . ولعل مافعله أمامى ، كما قلت لنفسى مبررا ، نزوة من نزوات العلماء . او لعله ان يكون درسا لمن جاء على غير موعد ولغيرهم من المعارف ودرسا لى فى نفس الوقت . وكان الدكتور عوض فى اواخر عام ١٩٥٠ رئيس الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة اى انه كان رئيسى المباشر . وذلك لان الدكتور محمد صلاح الدين كان قد أصبح فى ذلك الحين وزيرا للخارجية فى وزارة الوفد ، ولم يكن وقته ليتسع فيحضر جلسات الهيئة التنفيذية . فذهبت الى الدكتور عوض وانا احمل معى طلب اجازة من المكتب بدون مرتب لكى اسافر الى الخارج والى لندن بالذات لاستكمل دراساتى العالية واحصل على درجة الدكتوراه . وتوقعت منه الترحيب والتشجيع . ولكنه لم يقل لى شيئا يدل على ذلك . وكان كل ماقاله ان الطلب سيعرض على الهيئة التنفيذية للبت فيه .. وجاء موعد اجتماع الهيئة وتحدث الدكتور عوض تليفونيا معى للحضور

قبل الاجتماع بساعة واخبرني بأن مكان الاجتماع سيكون « معهد الدراسات الافريقية » الذي كان له مديرا في ذلك الوقت ، وذهبت في الموعد الذي حدده الدكتور عوض . فبدأ حديثه هادئا عذبا . بدأ يذكر اهتمامه الشخصي بي لانني شاب كفء ، وان مسألة الدراسات العليا في موقع عملي غير ضرورية ، وان السفر كل عام لمدة محددة الى الخارج هو كل مايمكن أن يوافق عليه . وماكدت ان ارد على ماقال ، اذا بي اراه يزمجر قائلا وهو يسخر « انت عاوز تأخذ دكتوراه علشان تبقى زيي ؟ » فاسرعت بالاجابة قائلا : « نعم فأنت مثلي الاعلى الم تذكر في احدى مقالاتك أن شر الامور الوسط ؟ » وكان هذا المقال قد نشر فعلا في جريدة الاهرام منذ فترة غير قصيرة . فرد والسخرية تظهر على ملامح وجهه وحركات جسمه « انني ما قصدت بهذا المقال الا مجرد المداعبة » . وصار الدكتور عوض بعد ذلك أمامي شخصا آخر . بدأ شخصا تشع عيناه الغيظ والكمد ، وازداد وجهه القبيح قبحا . وتذكرت في التو ما ذكره الدكتور عبد العزيز عسكر عن أول شيء يراه الدكتور عوض بعد ان يستيقظ من النوم . ولكنني أضفت الى ذلك مايكنه هذا الرجل اقصد الدكتور عوض من الحقد الدفين نحو المجتمع الذي عاشه وهو طفل ثم وهو صبي ثم وهو شاب . انه الحقد الذي لم يبرأ منه عندما كان لا يأكل الا وجبة واحدة في اليوم وهو الشخص الذكي في حين يرفل غيره في الحياة الناعمة بألوانها وقد كانوا من الاغبياء . لقد تبلور في قلب هذا الرجل الحقد منذ الصغر وبقى دفينا حتى كبر . واذا كان الحقد حقدا نحو المجتمع فأنا عضو من أعضائه . كنت على عكسه تماما . كانت طفولتي سعيدة وكان

صباي طيبا ويملأ صدري الحب ويفيض وبقى دفينا وسيبقى ان شاء الله .

واود هنا ان اذكر وانا احنى راسي شاكرا لما فعلته السيدة الزا ثابت من أجلي لكي يتحقق لي مرادي في الدراسة والتعليم . انها لم تترك جهدا نحو تحقيق هذا المراد الا وقامت به مشكورة . وانني أؤكد هنا انه لولا جهودها الجبارة المستمرة لما استطعت ان اسافر في فبراير عام ١٩٥١ الى لندن . والجهود التي بذلتها السيدة الزا كانت جهودا تهدف الى تحقيق كل ماهو معنوي وكل ماهو مادي يحقق آمالي . ويكفيني منها انها كانت تثق في وفيما يمكن لو اتيحت لي الفرص ان قوم به . كانت صلتي بالسيدة الزا متصلة ، فهي رئيسة جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق ، وانا في ذلك الحين كنت امين الصندوق . وكانت مقابلاتي معها تزيد الروابط التي بيننا وتؤكدها . ولا غرو فقد كانت استاذتي واستمرت استاذة لي وانا اعتبر حتى تلك اللحظة أنني غرس يديها ويشترك معها في ذلك الامام الشيخ محمود خطاب والاستاذ يعقوب فام . كان هؤلاء الثلاثة مع ابي وامي قد اضفوا على من العلم والمعرفة والخبرة والاهتمام الانساني الكريم ماجعلني ما كنته في ذلك الحين وربما ما سأكونه في المستقبل القريب والبعيد . أجمعوا الثلاثة على اعادة تنشئتي كل فيما يختص به .. وفي الفترة الاخيرة كان للسيدة الزا النصيب الكبير .

واجهت مشكلة ترك أسرتي الصغيرة : زوجتي واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد دون أن تكون امي معهم . وكيف اترك احمد وآمال وقد اصبحا في فترة المراهقة وفي مسيس الحاجة الى وجودي بينهم ؟ وحتى الصغار

فقد كانوا كذلك فى مسبس الحاجة الى وجودى بينهم . انني شخص اعمل فى ميدان الاحداث الجانحين ، فانا اذن اولى الناس بادراك الاثار المترتبة على انفصال الاب عن اعضاء الاسرة وبخاصة اذا كانوا مازالوا فى حاجة الى الرعاية والحماية . كانت فكرة السفر الى الخارج لاستكمال دراستى العليا متسلطة على كل شيء . انها امل تبنيته ثقافيا عن ابى ومن امى التى آزرت أبى وعرفت مدى ماعصف بى الدهر عندما قرر جدى لأبى حرمانى من اكمال تعليمى واستئصالي عنوة من مدرسة الخديوية الثانوية وانا في السنة الرابعة الثانوية . لقد اصبح هذا الامل آمال فرد . ولم يدر فى خلدى ابدا ان تصبح آمال هذا الفرد « الذى هو انا » آلاما لجماعة « اسرتى الصغيرة » . لم يدر في خلدي ابدا ان أحقق آمالي ورغباتي على حساب جماعة لا ذنب لهم سوى اني ابوهم . كانت اهدافي ارفع من ذلك واعلا مقاما . كانت اهدافي ان اؤهل نفسى لكى اكون اهلا لاعمل عملا صالحا لابناء وطنى . وفى ضوء تكوين شخصيتى لم اكن الطفل المدلل وان كنت الطفل المحبوب ولم يكن لى شباب اتمتع به ، وكنت جادا احاول ان اعمل صالحا . وقد كان هذا عزائي . وبررت كل تصرفاتي على هذا الاساس ، وافترضت اننى دعيت الى « الجندية » لاحارب من اجل عرض وطني وشرفه لسنوات ، كما يفعل ابناء البلاد الاخرى . وقلت اننى لم اظلم احدا لاننى انا نفسى كنت قد ظلمت ومازلت مظلوما . وان المحك الرئيسى هو ان انجح فى مهمتى وان احصل على درجة الدكتوراه تتويجا لجهودى الثقافية ودراساتى الأكاديمية وغير الاكاديمية . والى ان وصلت الى هذه النتائج استراح ضميري وعزمت العزم الاكيد لكي اختار

الاقتراب فى خارج بلدى بدلا من ان يكون فى داخلها .
وما اصعب الاغتراب وانت بين بنى اهلك ووطنك . كان عزمى اكيدا مافى ذلك من شك . والدليل على ذلك اننى فى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ركبت القطار الى بورسعيد لالحق بالسفينة التى وصلت الى لندن بعد تسعة ايام فقط . تاركا ورائى اعضاء اسرتى الصغيرة زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد ، ولم اكن ابغى لهم ابدا الا ما املت من الخير . اننى لم افرض سلطانا على احد منهم او عليهم جميعا . ولكن سلطان تحقيق آمالى فى الدراسات العليا التى كنت فى ضوء تاريخى المدرسى والتحصيلى استحقه عن جدارة ، هذا السلطان هو الذى فرض علينا جميعا . كانت الاهداف سامية وتحتاج الى بذل التضحيات وكنت اول الباذلين بذلت من وقتى الشاب ومن صحتى ومن راحتى الكثير عانيت الاغتراب المادى والمعنوى ولم اجأر بالشكوى لمخلوق . كنت مع الله ومن اجل الله اعمل وابذل . ولكن كان حرمانى من اعضاء اسرتى الصغيرة العظيمة : زوجتى واحمد وأمال وسمير وتيسير ومسعد حرمانا عظيما . ولم اكن ادرى فى ذلك الوقت اننى فى حقيقة الامر كنت ثائرا فى دور التكوين ! لقد ثرت دون ان ادرى على حياتى الماضية ثورة عارمة . وكانت هذه الثورة تعنى ثورة على الاوضاع الثقافية الاجتماعية والاقتصادية جميعا . كانت ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا . وكنت فى حقيقة الامر ، دون ان ادرى ، وحدى ، احارب فى جبهات عديدة . كانت اسلحتى ايمانى بالله وبالوطن العزيز وحب امى ودعواتها .

السفر الى الخارج مرة اخرى استئنافا لطلب العلم

وفى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ، اليوم الذى يرافق عيد ميلادي الثامن والثلاثين ، كنت على السفينة في عرض البحر الابيض المتوسط ، فى طريقى الى لندن. واذكر انني عندما خطت قدماى ارض السفينة فى اول لحظة حاولت ان انسي ماكان وان اتذكر ما سيكون. جاءت الريح برائحة السفينة التى أيقظت فى كيانى الحقائق التى واجهتها في الماضى عندما سافرت لاول مرة . القلق والاغتراب والدوار الذى يأتى به البحر ثم استيقظت ذاكرتى على ازدحام مدينة لندن ومناخها القارس « وبخاصة ونحن الآن فى شهر فبراير » ، وعلى الدراسة والكتب وتحضير الطعام . وعشت لحظات متذكرا صحتى ومرضى ، والمرح الحلو مع الزميلات والزملاء والمناقشات الشابة التى كانت تدور بيننا ، فضلا عن الاحساس بالضياع . وجاء من اعماق اعماق نفسي شعورى العميق بالشك فى الامل الذى اصبو الى تحقيقه . وكان شكا مريرا حقا . وسرعان مانبذت هذا الشك وغيره من الشكوك التى كانت تمكن أن تحوم حول شخص مثلى . ونظرت الى المستقبل المشرق : مستقبل العب من العلوم والمعرفة الذى ينتظرنى فى لندن .

لم يكن معى احد على السفينة من المصريين سوى سيدة . كانت ضخمة الجثة فارعة الطول ، فلازمتنى منذ ان ركبنا « اللنش » فى طريقنا الى السفينة . كانت

ترافقها سيدة قد بدا عليها انها تعمل لديها . وارتقيت السلم الى ارض السفينة بعد ان ارتقته قبلى وتركنا السيدة المرافقة تعود أدراجها الى ميناء بورسعيد ارض الوطن . بدت امامى السيدة المسافرة انها فرحة لان فى لندن ينتظرها ابنها الذى يدرس الدروس العسكرية. وهى فرحة أيضا لانها كامرأة ستجد من الانجليزيات من هن فى طولها فلا تشعر بالاسى الذى تشعر به وهى تعيش بين النساء المصريات . وقد علمت ونحن على السفينة الكثير عن حياة هذه السيدة . كان اسمها « مدام طبوزاده » ، وكانت تحمل معها ديوان الشاعر « محمود سامى البارودى » فهى عضو من أعضاء اسرته . وكانت تعلم ماخفى عن احوال السراى : الملك فاروق والملكة زوجته وغير ذلك . وكانت تعلن بعض ماهو خاف ، وتكتم البعض الآخر .. وكان كل ماتعلنه معروفا للناس وأنا منهم . وكنا نتناول وجبات الطعام معا . وكانت تأكل بنهم وشراهة كنت اتقزز منهما ، فانا على السفينة او على غير السفينة آكل اكل الاشخاص الماديين الذين يرون أن الطعام باق ومن ثم فيكون الاكل منه بتؤده أولى وافضل ، فهو أى الطعام لن يطير . وعلى السفينة لم اكن أستطيع ان آكل الا كما تأكل العصافير . وقد لاحظت مدام طبوزادة ذلك فنصحتني ان اهتم بعلاج كبدى عندما اذهب الى لندن . لانه كان فى رأيها وبما كان ذلك صحيحا أن « سد النفس » عن الطعام مرجعه الى خلل فى الكبد ، والله اعلم ، وعلم الطب وعلماؤه بعد الله يعلمون كذلك .

كنا نتحدث عن سامى البارودى . فى الواقع كانت هى التى تتحدث عن هذا الشاعر الثائر . وكنت أسرح بخيالى أبحث منقبا عن تاريخ الثورة العرابية . وكان

كبريائى يعلو الى الآفاق كلما تذكرت عرابى راكبا على حصانه وهو في ساحة عابدين . وكان كبريائى ينخفض كلما تذكرت ما كان يحدث بين الثوار المنفيين وهم فى جزيرة « سيلان » . وكانت تتحدث وصورة الشهيد البطل « محمد عبيد » تداعبنى فيزهو قلبى تارة ويتحسر كمدا تارة اخرى . اما عبد الله النديم فقد كان ملء سمعي وبصري . كنت اعيش معه حياته منذ طفولته وكيف نشأ وكيف اصبح خطيبا للثورة . كنت اذكر ما كان يكتبه فى مجلاته التى كان ابى يحتفظ بها ويحرص عليها . فأنا اذكر اننى على الرغم من طفولتى . فقد استطعت ان افك رموز مابين سطور ما كان يكتب هذا الرجل العظيم . كانت فرصة ان اصحب سيدة مثل مدام طبو زاده . وكانت هى فى واد وكنت انا فى واد آخر ومع ذلك فقد جمعتنا السفينة ، كما جمعتنا المائدة التى كانت لا تترك صحنا به طعام الا وقذفت مافيه فى معدتها . وكانت عندما تتحدث عن سامى البارودى او عن شعره إشعر بالسرور الجاد فعلا ، اما عندما تتحدث عن الخيل وركوب الخيل فتجد الشقة بينى وبينها قد بعدت اميالا واميالا . انها فى بعض الاحيان كانت قريبة منى وانا فى محيط افكارى عنها بعيد . كانت اذا انفرجت اساريرها اذا ابديت رأيا يتضمن الدعاية البريئة تبعد الشقة على الرغم مما يبده من سعادتها فتقول مثلا « انتو يامصريين شكلكم زى النسانيس ولكن دمكم خفيف » . تقول ذلك وهى تقصدنى فانا المصرى ، اما هى فقد كانت تعترف ضمنا وصراحة بانها غير مصرية . وقد كانت هى كذلك فعلا . وكنت اسمع عبارتها التى كررتها مرارا ، حتى افترقنا فى لندن الى غير رجعة ، فتملأ الغصة حلقى ويزداد

اشمئزازى ونفورى منها . كانت من اعضاء عائلة « محمد علي » وهذا يكفي . وعندما سمت الى الحديث عن مقابلاتنا فى لندن لم احرص ابدا على اخذ عنوان محل اقامتها . واعتذرت عن اعطائها عنوان محل اقامتى لاننى لم اكن اعرف هذا العنوان حتى تلك اللحظة . كنت أواجه المجهول . وكل الناس يواجهون المجهول فى كل الاوقات ولكننى كنت احس بالعبء ثقيلا على الرغم من تفاؤلى الذى عاش معى فى الماضى ومازال يعيش فى ذلك الحين ولا يزال يعيش حتى كتابة هذه السطور . اننى كنت اخشى المجهول ولكنى لم أكن اعزل من سلاح اليقين فى الله والثقة بالنفس ورفعة الهدف .

ولما كنت اعرف لندن فاننى تركت حقائبى فى المكان المخصص لذلك فى محطة السكة الحديد ، وذهبت ومعى حقيبة يد صغيرة وتوجهت الى حى « هولاندبارك » الذى اعرفه جيدا . فهو الحى الذى يقع فيه الفندق الذى نزلت فيه لاول مرة عندما حضرت الى لندن فى عام ١٩٤٨ ، اى منذ ثلاث سنوات . وكنت فى بعض الاحيان، وكانت قليلة جدا لان حرية حركتى فى لندن فى الفترة الاولى عند حضورى اليها لاول مرة كانت محدودة . كنت اذهب الى « نادى لندن للموسيقى » اما لمجرد الجلوس وكان متيسرا او الحضور لسماع الموسيقى نظير نقود قليلة . فذهبت الى النادى قبل ان اذهب الى الفندق وكانت تدير هذا النادى سيدة انجليزية هى « مسز آرمسترنج » وكنا ندعوها « مسز ايه » فقط ، وهى سيدة كانت قد بلغت سن الستين ولكن حيويتها وعشقها للموسيقى والموسيقيين ينمان على النشاطات العديدة التى كانت تؤديها بالاستعانة ببعض العاملين والعاملات . وعلمت وكان ذلك لاول مرة أن النادى به

حجرات للنوم يمكن أن يستأجرها من يرغب فى ذلك . فآثرت ان استأجر غرفة نوم فى النادى الذى يوفر ايضا لنزلائه وجبات الغداء والعشاء . ونمت ليلتى وفى الصباح ذهبت لاحضر حقائبى التى اودعتها فى غرفتى . بعد ان احضرتها في تاكسي . وفجأة واجهت الحياة الجديدة ، واجباتي فيها ومسئولياتي . وكان السؤال الذي واجهنى كيف ابدأ ؟ فانا لم احجز لى مكانا فى كلية او فى معهد دراسي وهاهو ذا شهر فبراير عام ١٩٥١ قد انتهى او كاد . وجلست افكر . وطرأ فى ذهنى ان ابدأ بفعل ماكنت ارغب فى ان افعله عند حضوري الى لندن فى عام ١٩٤٨ . وذلك بأن اشترى « راديو » لاطل على « البانوراما » الثقافية الاجتماعية للمجتمع الانجليزى بعامة ومجتمع لندن بخاصة ، واشترى « اسطوانات » موسيقى كلاسيكة ، حتى تتعود اذني عليها لكي ارتفع بذوقى الموسيقى ، وآلة لكى اديرها كلما عن لى ذلك ، واخيرا اشترى خريطة لمدينة لندن لاعرف اين انا واين اذهب وكيف اذهب . وبدأت توا بشراء هذه الاشياء الهامة او التى كانت هامة عندى فى ذلك الحين . ثم جلست افكر . هأنذا شخص قد ترك بلده واعيش فى بلد آخر . املك شبابى ووقتى وبعض المال ، والمهمة التى انا بصددها مهمة نبيلة وتحقيقها لا يحتاج الى اكثر مما املك فى الوقت الحاضر . اننى متفرغ لها املك وقتى من الصباح المبكر حتى المساء المتأخر لا يشغلنى عنها شاغل آخر الا ماكان ضروريا لكي اعيش . فلأتدبر امرى واشغل نفسى فى سبيل تحقيق ما ارجوه وما اصبو اليه . هأنذا املك الشباب والوقت والمال الذي ارجو من الله ان يبارك فيه حتى اتم ما انا على وشك ان ابدا به . فالمال كما يقولون

« عصب الحياة » او هكذا تعلمت . وبدون المال في بلد اجنبي يعني الدمار النفسي وبخاصة لشخص مثلي . ومع ذلك فقد كنت على الرغم من كل شيء متفائلا . ويبدو ان تفاؤلي هذا كان ساذجا . فلم أر امامي في ذلك الحين سوى الجانب الطيب من الحياة . لم ار سوى كل ماهو وردى . كان امامي ان اسلك طرقا عديدة منها ان استكمل دراستي لاحصل على « الدبلوم العام العالي في التربية » « جامعة لندن » ، واسير في الطريق حتى احصل علي درجة الدكتوراه من هذه الجامعة . ومنها ان اطلب العلم للعلم وان اخدم الانسانية لذاتها واحاول ان اكون دائرة معارف صغيرة تمشي على الارض تحيا لتحيي وتستنير لتنير . ومنها ان ادرس مهنة الصحافة لاضمن عندما اعود الى الوطن ان اجد سبيلا لتحقيق اهدافي نحو الوطن كما اجد موردا للرزق تعيش عن طريقه اسرتي الصغيرة حياة كريمة . ومنها ان افعل كل ذلك . فاكون مثلا طه حسين وسلامة موسى « او مصطفى صادق الرافعي أو عباس العقاد » والصحفي الكبير امين الرافعي جميعا . وكان اهم ما يجب ان افعله هو ان ابدأ . كان امامي ان التحق بمعهد من المعاهد مثل « كلية البولتيكنيك » لادرس دراسة منتظمة وانا في طريقي الى درجة الدكتوراه ، وفعلت ذلك توا . وكان امامي ايضا ان استعين بالدروس الخصوصية وبخاصة لادرس علوما لم اعرفها من قبل او اعرف عنها القليل مثل علم الاقتصاد وعلم المنطق . وفعلت ذلك ايضا . وكان من حظي ان يدرس لى علم المنطق الاستاذ « ترى نيومان » احد اساتذة كلية « البوليتكنيك » . اما الدكتور « جون لويس » فقد قام مشكورا بتدريس « علم الاقتصاد » .

كنت اذهب الى الاستاذ الاول فى منزله وكان الدكتور لويس يحضر الى فى منزلى . ومع كل هذه الدراسات العلمية رايت ان التحق بأحد معاهد الصحافة بالمراسلة « مدرسة لندن للصحافة » . وقد تم لى ذلك كذلك . وكنت اعمل ليل نهار نهما لا يشبع من العلم والعب من مناهله حيثما تكون هذه المناهل ، وكنت لا اخرج من منزلى الا لكى اذهب الى منهل البوليتكنيك او الى منزل ترى نيومان او الى شراء كتاب من مكتبة « فويلز »ومكتبة « كوليت » بحى « شيرنج كروس » او من احدى المكتبات التى تبيع الكتب القديمة النادرة . وكان من حظى السعيد ان قابلت احد المواطنين الانجليز الذى جمعني واياه بعض المصريين فى القاهرة فى اثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان مجندا فى الجيش الانجليزى . قابلته فى « ممر الانفاق » المشهور بلندن صدفة . وذكرنى بنفسه لاننى لم اره وان كان هو قد رآنى وترك لى عنوان منزله فى حى « برم روز » بلندن . وذهبت فى الموعد المحدد فوجدت اسرة كانت تعيش كلها فى القاهرة فى يوم من الايام او فى فترة من الفترات . وكان الحديث يجرى باللغة العربية تارة وباللغة الانجليزية فى معظم الأحيان . ومن هنا عرفت انواع الكتب التى كان يرى اعضاء هذه الاسرة من واجبى أن اشتريها وعرفت منهم ايضا المكتبات التى اجد هذه الكتب معروضة للبيع فيها . كانت كتب « ولفرد بلنت » و«ج. هـ . ويلز » و « روزشتين » و « كارل ماركس » و « انجلز » و « جون لويس » وغيرها وغيرها أول ماحرصت على اقتنائها . وقد أكد ضرورة اقتناء هذه الكتب وغيرها جون لويس وبخاصة عندما أقترح على أن التحق « بكلية مورلى » حيث كان احد اساتذتها

لادرس « الفلسفة الحديثة » و « العلم الحديث : نشأته ومنهجه » . وانا اعتبر الدكتور لويس احد اساتذتى الذين اثروا فى تفكيرى تأثيرا كبيرا . لقد ترك هذا الرجل بصمات تفكيره على اسلوب تفكيرى الذى نظر الى الدنيا حولى عن طريقه حتى هذه اللحظة . كان رجلا عالما ذا بصيرة نفاذة . وكان يتبنى التفكير الماركسى وان لم يكن شيوعيا . كانت زوجته شيوعية ولها نشاطات عديدة فى الحزب الشيوعى الانجليزى . ولكن جون لويس كان يكتفى كما بدا لى ، ومازال يبدو ، بأن يفكر ويصنع المفكرين . وكنت أرى سعادته عندما كان يحضر الى لاعطائى درس الاقتصاد . كان يتعاطى القهوة « التركى » التى اجيد صنعها بنهم . وكان بعد الانتهاء من الدرس يمكث ليتحدث معى حديثا حرا . كان يؤكد لى ان الفلسفة الغربية مدينة بدين لايمكن ان يقدر للفلاسفة المسلمين وخاصة « ابن سينا وابن رشد » . كان يذكر لى تاريخ ابن سينا وكأنه دارس مسلم متفانى كان يعرف عنه إنه ولد فى مدينة « بخارى » حيث كان بها ٣٦٥ مسجدا . وكان يعرف تاريخ مولده فى عام ٩٨٠ ميلادية . وكان يذكر لى وكأننى كنت اعرف لاول مرة ان ابن سينا اشتغل بالطب فكان من أعلام فنه فى العالم اجمع . وانه قد عرض فلسفة « ارسطوطاليس » عرضا خاصا قويا . قال ان المادة ازلية وانها لم تخلق وان كانت تكتسب صورتها بفضل العقول التى هى انبثاقات من الله . وذكر لى أن « البرت الكبير العالم الاسكولائى فى العصور الوسطى » كان تلميذا لابن سينا وانه راح يؤكد ان فكرة خلق المادة لا يمكن البرهنة عليها فلسفيا . وكان استاذى جون لويس يتحدث عن « ابن رشد » فى نشوة . كان يعرف انه ولد فى عام

١١٢٦ ميلادية في مدينة قرطبة وان جده كان قاضيا لها . وقد علق وشرح ابن رشد ارسطوطاليس . وقد طور مذهبه الفلسفي بطريقته الواضحة الابداعية الخاصة . ان ابن رشد لم يكتف بأزلية المادة ؛ بل راح يؤكد انه في مقدور الجنين ان يتطور بفضل قوته الكامنة الذاتية . وان ابن رشد قد دافع بقوة عن ابن سينا في وجه المفكرين الدينيين المحافظين الذين كانوا ينتقدونه . وكما اعلن البرت الكبير ان فكرة الخلق يجب ان تقبل لاسباب دينية وان كان لايمكن البرهنة عليها فلسفيا ، كذلك نرى ابن رشد ، الذي كان يحيا في عالم تسوده العقيدة الدينية الى حد بعيد ، نراه لا يستطيع أن يقول أكثر من ان الدين من شأن جمهور غير المتعلمين ، بينما المعرفة الاستدلالية من شأن الاقلية المتعلمة . وهكذا نجح في التمييز بين نوعين من « الحقيقة » : حقيقة الوحي وحقيقة العقل . ويعلق على ذلك الدكتور لويس فيقول : ونحن في وقتنا هذا لا يسعنا ان نقبل الموقف . ورغم ذلك فعلينا ان نعترف أن ابن رشد نجح في القرن الثاني عشر في تحرير العلم من سلطان الدين ، وفي اقامة دعائم عالم خاص به .. عالم كان من الممكن ان تقبل حقائق العلم فيه رغم كونها خاطئة من الناحية اللاهوتية . وكنت أسمع مايقوله الدكتور جون لويس في بيتي ، وما كان يقوله في المحاضرة في كلية مورلي ، وأنا مبهور حقا ، فكر جديد . عالم فكري لم أكن اعرف عنه شيئا . بل على العكس من ذلك كان يحرم علينا أن نطرق بابه ، وقد ذكرت من قبل عند التحدث عن « الجمعية الشرعية » وماكانت ترى وهي تؤهل وعاظها وتقدمهم الى المجتمع دعاة لها أن يكون مركز الواحد منهم « فوق مركز

الطبيب الحاذق الذى يعطي من الادوية لكل مـريض مايناسبه بمقـادير خاصـة لا ينقص ولا يزيد عليهـا شيئا . وان الجمعية اذ تبيح له ان يغدو ويروح فى ان يبتدئ بغرس العقائد فى نفوس من يباشر تعليمهم ، مراعيا مذهب أهل السنة والجماعة ، بعيـدا عـن المشاغبات الكلامية والبراهين المنطقيـة لصعوبتها على افكار العامة من الناس . ثم .. » . وهاأنذا يواجهنى الدكتور جون لويس بهذه الافـكار الجـديدة وغيرها وبخاصة ماتعلق بافكار الفلاسفة من « افـلاطون » و « ارسطوطـاليس » و « الافلاطونية المحـدثة » و « الثورة الكوبرنيكية » و « ديكارت » و « لايبنتز » و « سبينوزا » و « هيـوم » و « بركـلى » و « لوك » ثم « كنت » و « هيجل » .. أين كنت من عوالم افكار هؤلاء واين كانوا من عالمى الفكرى الضئيل. ان استاذى جون لويس قد دق على الباب وهاأنذا افتحه لارى الآفاق الواسعة واتحرر من القيود التى كانت تكبلني . وكنت كلما قرات هؤلاء لكى افهم وافهم هؤلاء لكى أقرا أكثر الذكر الفزع الذى أصـابنى عندما قرات كتاب « هـ . ج . ويلز » عن « تاريخ موجـز العالم » « طبعة ١٩٥١ » ، وبخاصة ماذكره عن النبى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على صفحة رقم ١٧٧ من هذا الكتاب . كان الموضوع عن « محمـد والاسلام » . وكان ماذكره عن سيدنا محمـد عليـه الصـلاة والسـلام على تلك الصفحة وما بعدها قد هز كيانى هزا . كان مفاجاة لى . ولكن كم فى الدنيا من مفاجآت ؟ كنت فى مدينة لندن ولم يكن قـد مـر على وجودى بها أيام عديدة . وقرات ما كتبه ويلز فتذكرت ماحدث لى فى سينما « ستديو واحد » عندما كنت

اشاهد الاخبار وكان الامير عبد الله يصلى فى المسجد الحرام وموقف المشاهدين الآخرين من ركوعه وسجوده وتساءلت عن الصراع الفكرى السائد بين الناس ؟ من يثير هذا الصراع ؟ ولمصلحة من هذا الصراع ؟ وكنت أعلم فى ذلك الحين ان الصراع الفكرى لا يكون الا في محيط العلوم الانسانية . اما فى محيط العلوم المادية فالناس فى كل بقاع الارض ، على اختلاف ايديولوجياتهم ومذاهبهم وعقائدهم ، على وفاق . ان العالم «البوذى» يحنى راسه للتجربة العلمية الناجحة التى قام بهـا « العالم المسيحى » أو « العالم المسلم » أو (العالم اليهودي) ، وان العالم « فى القاهرة » يحنى راسه للتجربة العلمية الناجحة التى قام بها العالم « فى لندن » او العالم « فى موسكو » او العالم (فى نيويورك) .. الخ . ان الاتفاق هنا فى منطقة العلوم المادية سائد ، فلماذا يكون الصراع اذن فى منطقة العلوم الانسانية ؟ سؤال انبثق من تعاليم أستاذى الدكتور جون لويس عندما استقيت منه افكاره الفلسفية والعلمية فى أثناء تدريسه لى فى منزلى احيانا وفى كلية مورلى أحيانا اخرى . والسؤال عندى مازال مستمرا حتى ذلك الحين. وكان سؤالا حاسما فى حياتى الفكرية التى كنت نتاجها فى ضوء تربية أبى وامى وتعاليم الأمام الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام واخيرا أستاذى الدكتور جون لويس .

كنت أحاول ان اعيش دنياى فى لندن بكل لحظاتها ولكنى انا بشر ، فقد كنت اتذكر اسرتى الصغيرة فى بعض الاحيان . ان أعضاءها الآن كلهم فى المدارس ، ورعايتهم المدرسية مسالة بالغة الاهمية . ان الموارد المادية التى تركتها تكفى الحياة الكريمة لهم . وهاهم

قد استقلوا واصبح للأسرة بيت خاص كنت قــد اضطررت الى استئجار شقة فيه فى شهر يونيو عــام ١٩٤٠ ، عندما عدت الى مؤسســة الزفاف الملكى للمره الثانية . كانت الحياة فى « بيت عويس » ، الذى ولدت فيه وعاشت امى فيه منذ ان دخلته زوجة لابى ، لاتطاق وكان ان وجدنا البيت الذى يليق بالاسرة وكان قريبا من مبنى المؤسسة . وقد بدا لى عندما اتخذت هذه الخطوة الشجاعة ان امى كانت غير راغبة فيها ولــكنها اضطرت الى ان تخطوها معى ومع باقى اعضاء الاسرة على ان تترك حرة فتذهب الى حيث شاءت لتزور من تحب ان تزور من الاقارب والجيران والمعـــارف التى عاشت اكثر من نصف عمرها معهم وبالقرب منهــم . كنت اتذكر اعضاء اسرتى الصغيرة فأكتب لهم ويكتبون لى . كنت اكتب لــكل فــرد خطـــابا خاصـــا يتضمن كلمات التشجيع وفوق كل ذلك كلمات الحب والاحترام لكل واحد منهم . وكانوا يكتبون لى مايحدث لهم من علاقات فى البيت او فى المدرسة او حتى فى الحارة . واخبار المكتب الذى تركته بعد ان تم الاتفاق مع على ماهر باشا رئيس جمعية الدراسات الاجتماعية فى ذلك الحين عندما قابلته مع السيدة الزا فى موعد حدده لها لاستقبالها واستقبالى ، على أن امنح اجازة بدون مرتب لمدة سنة قابلة للتجديد . وقد وافق على ماهر على ذلك وبارك آمالى ورجا لى التوفيق ــ لم اعرف عن اخبار المكتب شيئا . كان لا يكتب لى احد ولم اكتب انا ايضا لاحد . وقد فوجئت ولم تــكن المفاجأة غير سارة بأن عبد العزيز فتح الباب عــين بتوصية الدكتور محمد عوض ليكون مديرا للمكتب من بعدى . كان واصف يوسف اقدم الباحثين بالمكتب فى

بعثة الى الولايات المتحدة ليدرس هناك . وقد منحته هذه البعثة السفارة الاميريكية . وذهب واصف منذ عام ١٩٥٠ الى الولايات المتحدة تاركا اسرته التى كان هو عائلها الاكبر بعد وفاة ابيه ولم يعد حتى كتابة هذه السطور . لا يعرف أحد عنه شيئا . ولم يرغب هو فى ان يعرف احد عنه شيئا . وعين عبد العزيز فتح الباب مديرا للمكتب فى مكانى الذى لم اتركه . لقد اراد الدكتور محمد عوض أن يرينى قوته وسطوته والنفوذ الذى كان يستطيع ان يستخدمه كرئيس للهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . انه كان وكأنه يقول لى وانا بعيد عنه بعد القاهرة عن لندن بل ربما ابعد من ذلك اذا كانت المقارنة بين ما يشغل تفكيرى وما يشغل تفكيره — ان المكتب بعويس أو بدون عويس يسير فى سبيل تحقيق أهدافه . ولكن الزمن خطا هذا الرجل . فالمكتب بمرور الزمن وبتنوع الاهداف قد انهار أو كاد . وفى الخدمة الاجتماعية وفى غيرها من مواقع العمل لا يمكن أن نتوقع النجاح الا باختيار العاملين الصالحين والمخلصين الذين خلقوا للعمل الذى يعملون فيه . احبوه فأحبهم وأعطوه فاعطاهم . انها الحقيقة الناصعة تؤكد أن عبد العزيز لم يكن مرءوسا سويا فكيف يكون رئيسا سويا ؟ كان لايرى فى ضوء ظروف طفولته وصباه وشبابه وانا اعذره ، الا مصلحته . لايمكن لشخص مثل هذا ان يواجه رئيسا مهما كان مركزه الا بما يرضى هذا الرئيس ولو كان ذلك على حساب مصلحة العمل واتقانه وتحقيق هدفه . ان مايقنع هذا الرجل ، وأمثاله كثير ، انه لا يمكن أن يقف فى سبيل رغبة رئيس ولو كانت تهدم المبادىء والاسس التى تحقق رفعة العمل ولا يكون

العمل فعلا الا بوا خشبية ، كما كان يقول لي ، أن يأمر بنقله خارج القاهرة . وماذا بعد ذلك يفعل وظروف اخيه « حميدو » مازالت هي الظروف ، وفوجئت مرة اخرى عندما اخبرت بأن عبد العزيز فتح الباب الذي عين مدير للمكتب بدلا مني قد وافق له بتوصية الدكتور محمد عوض على السفر في بعثة الى الولايات المتحدة « جامعة بوستن » ليحصل على درجة الماجستير .. وسافر فعلا وكنت لا ازال في لندن . عدت الى القاهرة من لندن في يوم ٢٦ من شهر يونيو عام ١٩٥٢ « في اللحظات التي خرج فيها اللنش الذي كان يحمل الملك فاروق بعد عزله من ميناءالاسكندرية» . وعرفت كيف سافر عندما قابلته بعد عودته قال لي عبد العزيز فتح الباب أن الدكتور محمد عوض لم يوافق على سفره الا بعد ان حاول أن ينحني له احتراما وتقديرا . انني اكتب ماكتبت من قبل وقلبي يعتصره الحزن والالم . فقد كان يوم عمل معي طالبا يتدرب تحت اشرافي في مؤسسة الزفاف الملكي شخصا بطل الاسى من عينيه ، وكان على الرغم من النكات التي كان يطلقها من حين الى حين أمام الآخرين لكي يضحكوا ويضحك معهم فان ضحكه لم يكن يخرج من قلبه وان كان ضحك الآخرين كان يخرج من قلوبهم . كان الاسى وعلاماته التي كنت اراها واعرفها واعرف مصادرها هما طعامه وشرابه . وقد تعلم من الحياة أن لا يبالي اذا ما اسيء اليه وبخاصة اذا كان الذي يسيء اليه شخصا مرموقا . فليسيء اليه من شاء أن يسيء . فهو من اجل ذلك في حمايته وفي ظل سطوته ونفوذه . والامثلة على كل ذلك كثيرة وعديدة . ولاداعي لذكرها . ويكفي الشخص منا أن يرآه مخمورا ليعرف حقيقة مافي نفسه ، ترى في هذه الحالة دخيلة نفسه التي ينجح

دائما وهو يقظان في اخفائها تبدو واضحة جلية . ويكفي ان يرى الشخص منـا ما يحاول ان يصل اليه وينجح دائما عندما يكون مرض اخيه العقلي موضـع الحديث . انه على الرغم من المعاناة التي كان ، ولايزال يعانيها من تصرفات أخيه او من بعضها ، فانك تراه يساوم عليها لكي يحصل من ذي النفوذ على مايريد . ويكفي ان يعلم الشخص منا اسماء ذوي النفوذ الذين كان يعمل عبد العزيز فتح الباب لهم حسابا ، ولا اقول يكن لهـم احتراما ، انهم على مر السنين قـد تقلص نفوذهم ، ومن ثم فهو غير محتاج اليهم . وتراه بعـد أن كان يسير وهو يلهث من ورائهم يحاول الان أن يسير بعد أن استغنى عنهم ، امامهم وهو يتبختر . ولانهـم أغبياء ، ولانه ذكي ، فانهم لا يفقهون . بل على العكس ترى الواحد منهم يشكو لان عبد العزيز لا ياتي للسلام والتحية كما كان يفعل . وهل يبيـع عبد العـزيز فتح الباب ذكاءه في « سوق الكانتو » ليفعـل ذلك الآن ؟ .

وكان من فضل الله على وانا في ظروفي المتباينة في لندن أن يصلني خطاب من السيدة الزا يقول انني قـد عينت في وزارة الشئون الاجتماعية منذ اول ابريل عام ١٩٥١ في مراقبة الاحداث بالوزارة « مصلحةالخدمات» بنفس مرتبي الذي كنت أحصل عليه من المـكتب . ومنحت مدة سنتين اجازة بدون مرتب قابلة للتجـديد للدراسة في الخارج . وكان الفضل في هذا التعيين للسيدة الزا وللدكتور محمد صلاح الدين وزيرالخارجية في ذلك الحين وتوصية الدكتور احمد حسين وزير الشئون الاجتماعية المختص واستراح قلبي من ناحيـة الوظيفة واستقر تفكيري من هذه الناحية . ولم يكن

يشغلنى كثيرا انني تركت زوجتي واولادها واكبرهم احمد قد اصبح في سن الثامنة عشرة من عمره أو كاد واصغرهم مسعد الذى اصبح فى سن الثامنة « او اقل من ذلك » من عمره ، وذلك لان المنزل الجديد الذى اصبحت تسكنه اسرتي منذ شهر يونيو عام ١٩٤٠ كان قريبا ليس فقط من المؤسسة التى كنت اعمل فيها بل كان قريبا ايضا من منزل أسرة زوجتي التوجيهية ، اى أسرة أبيها وامها واخوتها واخواتها . وكانت اسرتي الصغيرة بسبب ذلك تزور وتزار . وكان عطف جد اولادى لأمهم وحبه عليهم مضرب الامثال . كان رجلا فاضلا ومثالا للتقوى والورع . اما جدة ابنائى لامهم فقد كانت سيدة حازمة فى معظم تصرفاتها ، وكانت كما يقال « صوتها من دماغها » ، ومع ذلك فقد كانت كريمة لاتبخل على قريب او على غريب بشيء من مأكل او مشرب او ملبس أو غير ذلك من نقود اذا كان في حاجة اليها . ويبدو انها كانت تستمد سلطانها على الناس بالسخاء عليهم . ومن ثم كانوا دائما من حولها وتحت مشيئتها اذا كان فى وسعها ان تسخو وتعطى ـ وعندما لم تستطع لاسباب عديدة أن تقدم للناس مايرغبون فيه ويتوقعونه منها ، انفضوا من حولها ـ وفى ضوء الظروف التى كنت اواجهها فى ذلك الحين ، لم اكن اخشى على اعضاء اسرتي الصغيرة ، واسرة امهم التوجيهية في ضوء أحوالها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية كانت تسمح بمد العون اذا طلب العون سواء كان هذا العون معنويا « وكان هذا مااهتم به جدا » او كان ماديا .

واذا كنت أرجع وانا فى مدينة لندن الى واقعي والى واقع من الوذ بهم ويلوذون بى فى مدينة القاهرة

في بعض الاحيان ، فانني كنت أعيش الحياة اللندنية أو احاول ان اعيشها بكل مافيها في معظم الاحيان . ان العمر يسرع بي والوقت الذي بين يدي يمر مر السحاب والنقود التي أملكها لا يمكن ان تبقى من غير ان تصرف . انها تصرف في الضروري كل ما هـو ضروري مافي ذلك من شك ، ولكنها لن تبقى بمـرور الايام . فأنا أدفع الايجار الاسبوعي منتظما ، وانا اشتري مايلزمني من ملابس أواجه بهـا تقلبات المنـاخ المتغير في الشتاء وفي الصيف على السواء ، وفي الربيع والخريف كذلك . وانا أواجه نفقات الطعام « ثلاث وجبات على الاقل يوميا » وفضلا عن كل ذلك بل وقبل كل ذلك فانني اواجه مصاريف الدراسات المنتظمـة وغير المنتظمة : مصاريف الكلية والمدريسـين الخصوصيين واثمان الكتب وما ادراك ما الكتب . ولا يمكن ان انسى وسأذكر دائما كيف حصلت على كتاب « ويلفرد بلنت» « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي المصـــري » « طبعة ١٩٠٧ » . كنت أرغب في شرء كتـــاب « تيودرر روزشتين » « خراب مصر » ، فنصحني احد اعضاء اسرة برم روز لكي احصل عليه بالذهاب الى محل يبيع الكتب القديمة وهو يقع في أطراف مدينة لندن . وذهبت الى المحل عن طريق مترو النفق . ووجدت المحل المنشود وسألت عن كتاب خراب مصر فلم أجده ، ووجدت كتاب بلنت ، وكنت قد سـمعت عنه من قبل وقيل لي انه ترجم الى اللغـة العربيـة سرا ، وعندما حاولت شراء نسخة من الترجمة العربية وانا في القاهرة لم اتمكن . واحسست بخفقان قلبي عندما رأيت كتاب بلنت . قلبت فيه وصافحتني صورة « الامام محمد عبده » ، فخفق قلبي اكثر واكثر . ان

جزءا من تاريخ مصر اصبح بين اصابعى الكليلة اقلب فيه ماشاءت قوتها ان تفعل ، وان عينى وهما تريان صورة الامام محمد عبده ــ وكان يصلى وينظر الى من يأخذ صورته ـ بدتا وكأنهما لا تصدقان . كانت عيناى تنظران الى صورة الامام ثم تعودان وتقلبان مع أصابعى الكليلة صفحات الكتاب وسرعان ما كانتا ترتدان الى الصورة مرة ومرة ومرات . وسألت عن ثمن الكتاب ، بعد ان صممت على شرآئه وانا جذلان ، فقــال البائع وهو جامد الاسارير « ثلاثة جينيز » اى ثلاثة جنيهات انجليزية وثلاثة شلنات . وكنت اعلم ان مافى جيبى هو هذا المبلغ بالتمام والكمال ، وحمدت الله على ذلك . ونسيت اننى لابد ان اعود الى بيتى وأننى اذا فعلت ذلك ، ولابد لى ان افعل ، ساضطر الى ان اعـــود سائرا على الاقدام . وحملت الكتاب تحت ابطى وقفلت راجعا الى البيت ولم أشعر بشىء غير أننى أحمل كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » تحت ابطى . وعلى الرغم من ان دخول هذا الكتاب فى مصر كان مشكوكا فيه مادام الملك فاروق ونظـامه الملكى جاثمين على صدر مصرنا الخالدة ، فاننى كنت سعيدا ، وقد غدرنى الشعور بالسعادة فلم آبه لشىء قد يحدث للكتاب او يحدث لى عند عودتى الى القاهرة . انه معى الآن وفى حوزتى وهذا يكفى ، ولأبدأ فى قـراءته من الليلة . وليت هذه القراءة ان تطول وتطول حتى اعرف مالم اكن اعرف ، ولعل ما اعرفه أن يفيدنى ، يفيد نظرتى نحو الحياة ويثرى افكارى وينمى تفكيرى . واعترف بأننى كنت ساقرأ كتابا الفــه رجل بريطانى وانه على الرغم من أنه كان صديقا لعرابى وانه كــان « أيرلندى » ، فهو بشر قد يخطىء فنغفر له ، ولكنه

قلة يتحيز ولتكون الطامة الكبرى . ومع ذلك فانني بادرت الى تخصيص وقت لقراءة هذا الكتاب . وكنت اقرا عن امور وعن اشياء لم اعرف عنها شيئا من قبل . وقرات ايضا عن اشخاص مصريين وطنيين مخلصين وعن اشخاص مصريين غير مخلصين . وقرات ايضا عن اشخاص اجانب . وبكى قلبى قبل أن تبكى عيناى على « الشهيد محمد عبيد » الذى استشهد فى موقعة « تل الكبير » . وكان «عرابى » محل اعجابى وهو يقف امام قلعة الاستبداد فى ميدان عابدين ليعلى كلمة الحق كلمة مصر والمصريين . وان ملأ الحزن قلبى لما حدث له ورفاقه وهم فى المنفى فى جزيرة سيلان . وقلت فى نفسى انهم بشر لهم اخطاؤهم ولهم مآثرهم . واعترف بلنت بمآثر « عبد الله النديم » وانصف « حسن موسى العقاد » فيما يتعلق باتصاله بمذبحة الاسكندرية التى دبرها اعداء عرابى فى خلال شهر يونيو عام ١٨٨٢ ، واثبت فى ملاحق الكتاب شهادة « مستر جون نينت » التى تؤكد عدم علاقة حسن موسى العقاد بهذه الحادثة اللا انسانية . وقد ذكر بلنت عن « سلطان باشا » الكثير وبخاصة ماتعلق بشخصيته وعلاقته بعرابى وبمستر « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين وبالخديوى « توفيق » . تحدث بلنت عن غيرة سلطان من عرابى ثم خيانته له وتركه للحزب الوطنى الذى كان يضم أعضاء الحركة الوطنية على اختلاف مشاربهم ومصالحهم ، وكيف أصبح سلطان ليس خادما للخديوى توفيق فحسب بل كان قبل ذلك وبعده عبدا للانجليز . وذكر بلنت مبلغ ال عشرة آلاف جنيه هدية توفيق له بعد هزيمة « تل الكبير » والوسام « من طبقة فارس » الذى منحه الانجليز له فى نفس

المناسبة . ومهما قيل عن اسف سلطان لما فعله ، كما ذكر بلنت فى كتابه ، فان هذا الرجل قد لطخ شرفه بالوحل واثبت للملأ فى عهده وعلى مدي التاريخ انه خائن لوطنه ولرفقائه ولنفسه . وكل ماذكر عنه بعد ذلك تبريرا لموقفه المشين يدحضه أن بنته المشهورة « هدى شعراوى » لم تجرؤ فى حياتها ان تنسب نفسها على غير عادة المصريات الى اسمه . لم تذكر شيئا علنا عن ان سلطان - قبل وفاتها فى يوم ١٢ من شهر اغسطس عام ١٩٤٧ - كان اباها . واذا كان هذا الاب الخائن قد مات فى يوم ١٤ من شهر اغسطس عام ١٨٨٤ فانها هى واعوانها والمقربين اليها من اصحاب المصالح قد اخفوا هذه الحقيقة المرة ٦٣ عاما . فظهر اسمها « هدى شعراوى » ولم يظهر كما تفعل كل مصرية « هدى سلطان » . انه الشعور بالذنب الذى لا يخفى على لبيب ، الذى برر لهذه السيدة أن تتشبه دون ما مبرر قانونى أو ثقافى بالمرأة الاجنبية فتنتسب الى اسم زوجها بدلا من اسم ابيها او اسم أسرتها التوجيهية او عائلتها لابيها التى سمعت كما تقول ، فى مذكراتها التى نشرت فى شهر سبتمبر عام ١٩٨١ ، من بعض أقاربها نقلا عن آبائهم وأجدادهم انها من اصل عربى . اى ان سلطان ابا هدى شعراوى « أو على وجه اليقين هدى سلطان » كان من اصل عربى . « وقد استوطن أجداده ارض الحجاز وهاجر نفر منهم الى مصر قبل عهد محمد على باشا واتخذوها موطنا لهم ، وتزوجوا مصريات » . والاسرة العربية كما يعلم الجميع اسرة ابوية ينتسب أبناؤها ، ذكورا كانوا او اناثا ، الى الاب . وتحدث هذه الظاهرة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ولا يشذ عن ذلك الا من يروق لهم

هذا الشذوذ .

وكنت اقرأ كتاب بلنت كل ليلة قبل ان انام . وكلما قرأت جزءا منه كنت ارجو ان تضاف اليه اجزاء حتى لا تنتهي قراءته . وعشت فترة القراءة مذهولا لما كان يحدث في بلادي في الفترة التاريخية التي كتب عنها . لم اكن اتصور ان ماحدث حدث فعلا . وكثيرا ما كنت اشك فيما كنت اقرأ واستوعب ، ولكن الوثائق التي ضمها الكتاب كانت تبدد شكي . ولعل كتاب بلنت ان لفت انتباهي الى ان دراسة علم التاريخ امر ضروري . فكل شيء له تاريخ كما يقولون . وبالاضافة الى التاريخ اكدت لي دراسة علم الاقتصاد الذي كان استاذي الدكتور جون لويس يواظب على اعطائي الدرس عن هذا العلم تلو الدرس شارحا لي ماكنت لا اعلمه او كان امامي يبدو غامضا ، انها دراسة ضرورية ايضا . فعلم التاريخ بكل ضروبه يشرح الماضي ويفسر احداثه . وعلم الاقتصاد يشرح الحاضر ويفسر احداثه . ودروس الفلسفة فضلا عن نشأة العلم ومنهجه التي كنت اتعاطاها في كلية مورلي ، وما كنت استوعب من علوم في كلية البوليتكنيك ومعهد الصحافة « بالمراسلة » ، كلها ، وغيرها من العلوم التي تضمها الكتب التي كنت اقرؤها قد اكدت لي ان محيطات المعرفة المنتظمة وبحارها عميقة عميقة وانها ايضا تكمل بعضها البعض سواء كانت علوما انسانية او علوما مادية . وكنت انظر الى « دائرة المعارف البريطانية » وهي على « الرف » فاذا انا مررت بها احني راسي اجلالا واحتراما . وكنت اسمع او اتخيل انني اسمع مايدور بين المؤلفين الذين دونت آراؤهم في صفحاتها ، كنت اسمع او اتخيل انني اسمع همهمات تدور بينهم ثم تعلو فتصبح همسات

لم تصبح هذه الهمسات مايشبه الترحيبات بالتايد او مايشبه المشادات بالمعارضة ، كان بعض المؤلفين يؤيدون بعضهم بعضا بل وكان يعترف الواحد منهم بفضل من سبقه ، وكان بعض المؤلفين يعارضون بعضهم بعضا بل ويكاد يتهم الواحد منهم الآخر باقتباس آرائه دون الاشارة اليه . وقد يصل الاتهام الى حد ارتكاب جريمة سرقة هذه الاراء عن عمد . ومهما يكن فانني كنت ارى اشعة نور المعرفة تلفح خلايا مخي فأراني أحني رأسي اجلالا واحتراما للجميع . وانا ارجو من القارىء ان يتصور ماحدث لى عندما قرأت عن استاذ « اسحق نيوتن » عندما كتب الى ادارة الجامعة ، وكان نيوتن في السادسة والعشرين من عمره ، يطلب منها أن يجلس تلميذه على الكرسي الذى كان الاستاذ يجلس عليه أعترافا بما حققه نيوتن من نتائج بحوثه التى اجراها وهو فى هذه السن المبكرة وكانت لها بصمات على تقدم العلم واتساع آفاقه مما دعا استاذ نيوتن ان يفيد منها . واذا كانت دائرة المعارف البريطانية قد خلدت اسحق نيوتن فانها قد خلدت ايضا استاذه « اسحق بارو » . وانني اذ ارجو القارىء تصور ماحدث لى فانني ارجوه أيضا ان يقارن بين مافعله استاذ أسحق نيوتن ومافعله معى استاذى دكتور محمد عوض محمد . شستان بين الثرى والثريا ، ان السر الذى يكمن فى ثنايا رفعة مجتمع من المجتمعات قد وضح جليا بالمثل الذى ذكرت. ان السر فى عظمة مجتمع كالمجتمع الانجليزى ، مهما كانت الامور التى نراها او يراها غيرنا عيوبا ، هو موقف الاستاذ من تلميذه الذى ان دل فانما يدل على احترام العلم واعطاء ، بنفس راضية مطمئنة ، كل ذى حق حقه . والفضل كان لاستاذى جون لويس فى اهتمامه

الشديد لكى اقرأ بعض الموضوعات التى تتعلق بالعلوم التى يدرسها لى وغيرها فى دائرة المعارف البريطـانية فضلا عن الكتب المتخصصة الاخرى . كان هذا الاستاذ لا يألوا جهدا ، وقد عرف شغفى بالعلم ، ان ييسر لى سبيله بكل مافى وسعه . أرسل اليه « هوارد فاست » الاديب الامريكى المعروف نسخة من روايتـــه عـن « اسبارتاكوس أو ثورة العبيد » هدية ليقراها ، فاذا به بعد ان قراها راى ان يهديها الى ، اقرؤها واتيح الفرصة لغيرى لكى يقراها . وقد قرات رواية هـوارد فاست الامريكى عن « ثورة اسبارتاكوس ورفاقه » التى بدات قصتها فى عام ٧١ قبل الميلاد ، عندما اعلن للناس فى اوائل شهر مارس من هذا العام نبأ يقول ان الطريق من المدينة الخالدة « روما » الى مدينة « كابوا » قـد أعيد فتحه ، اى عندما بدأ « كايوس كراسوس » رحلته ، وكان بصحبته اخته « هيلينا » وصديقتها « كلوديا ماريوس » لكى يقضى ثلاثتهم اسبوعا مع بعض الاقارب فى كابوا . وكانت الفتاتان تركبان على محفتين مكشوفتين يحمل كل واحدة منهما اربعة من العبيد يستطيع الواحد منهم ان يجرى فى هدوء وهو يحمل المحفة على كتفـه عشرة اميال دون انقطاع ! وكان كايوس يركب جوادا عربيا اصيلا ذا لون أبيض جميل منحه أبوه اياه فى عيد ميلاده . وتروى القصة ان كايوس ورفيقتيـــه كانوا يعلمون قبل ان يبدءوا رحلتهم بأنه قد تناثرت على جانبى الطريق الى كابوا رموز العقوبة وآثار الانتقام . وقرات وقرات وعندما قال الدليل لكايوس ورفيقتيـــه وهم واقفون امام احد الرموز :

لا يجب أن يدور بخلدكم أن هذا امر غير انسانى أو شىء فظيع . انها روما تعطى وانها روما تأخذ ، وان

الجزاء من جنس العمل ، وهذا المصلوب واحد من كثيرين سيأتون بعد . من هنا الى كابوا هل تدرون كم عددهم ؟ » .

سرت في جسمي الرعدة كما سرت في اجسام العبيد حملة المحفتين عندما ذكر العدد . لقد بدأ القلق على حاملي المحفتين وتصلبت اجسامهم ، تماما كما حدث لي . ولكن لم يلاحظهم احد ، ولم يلاحظني وانا اقرأ العدد ايضا احد . كان عددهم ستة آلاف واربعمائة واثنين وسبعين مصلوبا .

ولم يكن المصلوب الذي وقفوا أمامه « اسبارتاكوس » نفسه وذلك لان اسبارتاكوس قد قطع اربا اربا الى درجة انه لم يعثر احد قط على شعرة واحدة من شعره أو قطعة واحدة من جلده . ان حالة اسبارتاكوس تختلف عن حالة هذا المصلوب الذي جيء به الى هنا . لقد اعمل في هذا بعض التمزيق . واشار الدليل بعصاه الى ندبة طويلة في جانب الجسد الميت المعلق فوق راسه . كانت الندبات غير كثيرة وكانت توجد كلها في جانبي الجسم او في الجزء الامامي منه ، ولا توجد ندبة واحدة في ظهره . وقد استمر المصلوب اربعة ايام وهو يموت ، وربما زاد عدد الايام لولا انهم قطعوا احد اوردته ، واستمر دمه يسيل حتى استنزف عن آخره . وقد أكد الدليل ان المصلوب كان مشاكسا متحديا ذا كبرياء . وقد ذكر انه عندما اتى به اول يوم الى حيث هو الآن ، ثم بعد ان علق على الصليب ، كان يلعن كل من اتي من ابناء روما المهذبين ! ليشاهده ، كانت لهجته مخيفة ولغته مبتذلة تؤذي اسماع اية سيدة كريمة ! وقد استمر يطلق شتائمه على الرغم من انني كنت اقول له احيانا :

« ان الكارثة التي انت فيها هي مصدر رزقي . واذا

كانت طريقة موتك ليست احسن طريقة يموت بهـا انسان ، فان كسب عيشي هذه ليست احسن طريقـة يكسب انسان بها عيشه ! وسيتقلص ربحي حتما اذا لم يكف لسانك البذيء عن القذف والسباب .. ان اصله وضيع فالعبد عبد ! وانني مع ذلك لا اضـــمر له اى سوء .. » .

وكما توقعت تماما كانت نبوءة هوارد فاست على لسان المصلوب صحيحة حقا . انه لم يأبه لحديث الدليل اليه فى قليل أو كثير بل استمر يطلق شتائمه حتى اذا اتى مساء اليوم الرابع والاخير لم يسمع له صوت وسـاده الهدوء واصبح جسمه متصلبا ثم قال وكان قوله آخر ماقال :

« ساعود اليكم . وعندما اعود سأكون ملايينا » .

ان هذا المصلوب كما تقول الراوية لم يكن اسبارتاكوس ولكنه كان احد معاونيه ، كان رجلا شديد البأس وكان من المحبين المقربين الى اسبارتاكوس ولكنه لم يكن فى شدة باسه . كان اسبارتاكوس رجلا قوى الشـكيمة حقا . ولم يعرف احد طريقا اليه بعد هلاكه . فقد مات ميتة متوحشة وأصبح من الناحية المادية اثرا بعـد عين . وبقى مع ذلك اثرا معنويا خالدا يقتفى اثره وتترنم بامجاده سطور التاريخ . وقد تركت رواية فاست اثرها فى نفسى مافى ذلك من شك . اكدت لى ان الامـل فى الخلاص موجود فى محيط الذين يحتاجون الى الخـلاص انهم وحدهم يستطيعون أن يحطموا الاغلال او ان يضربوا المثل الخالد اذا مافشلوا لمن يأتى من بعدهم لكى يسعوا من اجل الخلاص وحدهم دون انتظار « مخلص » يأتى لانقاذهم . ان الانسان مهما كانت ظروفه يستطيع أن يقاوم الطغيان سواء كان هذا الانسان فردا او ينتمى

الى جماعة . ولكن الانشاء قوة تيسر مواجهة القهر .
كانت رواية اسبارتاكوس تتضمن العنف وتترقرق سطورها بالحب ، الحب الشخصي والحب الانساني وما اعظم كل منهما . ان الحب الصادق يستطيع ان يواجه وحده العنف والقهر لانه لا يدع للحقد سبيلا يسلكها بين المحبين . كانوا عبيدا فثاروا فى ضوء ظروف ثقافية اجتماعية واقتصادية وسياسية غير موالية . ثاروا ففشلوا واعطوا ، بعد ان دفعوا الثمن غاليا وهم مصلوبون ، درسا لا يقوم لمن اتى بعدهم . اعطاني دكتور جون لويس كل فرصة يراها تصلح لى . لقد دعانى مرة الى السينما لنرى فيلم « فيفا زباتا » . ورأيت معه الفيلم وكان موضوعه ثورة على الاستبداد والطغيان ايضا . نجح زباتا عندما كان ثائرا فوحد كلمة شعبه الضعيف الفقير امام جبروت الطغاه . وتوحدت الكلمة . ولكن منتج الفيلم لغرض فى نفسه او فى نفس من كانوا وراءه ابى الا ان يشوه دور المثقفين فى اذكاء الثورة وشد ازرها . ففشل زباتا وقتل اشنع قتلة ، قتل غيلة . ولكنه ترك من ورائه ذكرى لم تخمد اوارها حتى لنتصر شعبه .

وانني اذكر عندما ذهبت الى ترى نيومان فى منزله لاول مرة لاتعاطى درس « علم المنطق » ، وجدت امامى فى « الصالة » التى يجلس فيهاصورة « لينين » . وراح ينظر الى قسمات وجهى ليرى رد الفعل . ولكنى حاولت ان اكون طبيعيا . لم يحدثنى عن لينين وبالطبع لم احدثه انا الآخر . وانتهى الدرس فى سلام ، وسعدت بما عرفت كما سعدت بالجلوس الى الاستاذ بعد الدرس لكى نتحدث . علمت منه انه يعطى دروسا فى كلية البوليتكنيك ، وهو فى الوقت نفسه اديب يؤلف

القصص والروايات والتمثيليات الاذاعية . وقد نبهنى
وهو فخور بأن له تمثيلية ستذاع فى البرنامج الاذاعى
المعروف « بمسرح ليلة السبت » . واستمعت اليهـا
وكنت مغتبطا للغاية لان لغتها كانت سهلة ميسرة ففهمتها
وهيات نفسى لمناقشته فيها عندما أذهب اليه فى موعـد
الدرس المقبل . كان هذا الرجل ماركسيا ولكن زوجتـه
التى رأيتها عندما دعيت للغداء عندهما فى أحد أيام
عطلة الاسبوع كانت « كاثوليكية مخلصة » . ولم يكن فى
الاسرة ابناء . وقد علمت أن الزوجة تعمل لتسـاعد فى
نفقات المعيشة ولكى تتيح الوقت الكافى لكى يـكتب
زوجها مؤلفاته التى لم تكن حتى ذلك الحين رائجـة .
واذا كان ترى نيومان ماركسيا واذا كانت زوجتـــه
كاثوليكية مخلصة فان أمه كانت شيوعية ولها نشـــاط
مرموق فى الحزب الشـــيوعى الانجليزى . وعنـــد
ترى نيومان وأنا فى ضيافته وضيافة زوجته كنت
أقابل أصدقاء له من الذكور ومن الاناث . كانوا جميعا
شبابا من البريطانيين فى مثل سنى ، كما كانوا من فئة
المثقفين الذين على شاكلة ترى نيومان الذى كان يكبرهم
سنا . كان منهم اليهود وغير اليهود . وكان الحـديث
يتناول « القنبلة الذرية » التى كانت فى نظر الجميع
وبخاصة ترى نيومان ، الانسان المرهف الحس جدا ،
كابوسا يهدد البشرية . وكان الحديث يتناول مستقبل
« افريقيا السوداء » وموقف البلاد التى تستعمرها ،
ومنها بريطانيا طبعا ، بعد استقلالها . كان هذا الموقف
أيضا يسبب لهؤلاء الاشخاص اضطرابا وكانوا يعتبرون
ماسوف يحدث كابوسا يهدد المستوى الاقتصادى للبلاد
التى تنعت افريقيا بأفريقيا السوداء ، ومنها بريطانيا
طبعا . كانت الاحاديث شتى وموضوعاتها عديدة تناولت

الفن التشكيلي في روسيا وكان موضع أزدراء الجميع .
وكان دوري أن استمع ولم اعلق على شيء الا اذا طلب مني ذلك . وكنت اعتبر هذه الجلسات ثمينة للغاية .
كانت أقرب الى ان تكون حلقات دراسية منها الى مجرد جلسات عادية . كانت اللغة الانجليزية المتداولة لغـــة فصحى لا يرهقني فهمها . لم تكن بالطبع كلغة «الكوكني» بائعي الفاكهة على عربات اليـــد الذين يقفون في بعض أركان مدينة لندن . ومن ثم فقد كنت أنتظر هـــذه الحلقات الدراسية التي كانت تعقد من حين الى حين .
ويكون الواحد منا فيها وكأنه ذائب في اعضائها ولايشعر بالفروق العقائدية أو السياسية او الاجتماعية . ولاحظت انني اذا كنت حريصا على حضور هذه الجلسات فان ترى نيومان وزوجته كانا أيضا حريصين على وجودي .
فأنا اجنبي وانا مصري ولي دور آخـر فانا تلميـــذ لترى نيومان . كل ذلك جعل المضيفين حريصين على ان يكون حضوري هذه الاجتماعات مطلوبا . وقد عرفت الكثير من هؤلاء وغيرهم وكانوا يتغيرون . وحاولت أن يعرفوا عني الكثير أيضا وبخاصة عن مصرنا الخالدة التي كانت في ذلك الحين تحت نير الحكومة الانجليزية وشعبها
واذا كان الدكتور جون لويس اتاح لي الفرصة للذهاب معه الى دور السينما لنرى أفلام مثل « فيفا زاباتا » و « راشامون » (الفيلم الياباني) و « الصـــندوق السحري » « عن اختراع آلة الكاميرا السينمائية » ،
فان ترى نيومان كان يشجعني على الذهاب الى دور السينما أيضا . كان لايذهب هو . وكنت وزوجته بناء على طلبه نذهب الى الافلام التي كان يختارها لنا وكانت كلها افلاما روسية . وانني اذكر انني رايت فيلما قصيرا عن علاج المكفوفين الذين يمكن بعد اجراء عملية معينة ،

اذا كانت حالة مرضهم تسمح ، أن يروا الدنيا بما فيها من اناس ومن الطبيعة ومن الوان .. الخ . كان يسمى هذا الفيلم « انت تستطيع ان ترى » . كان فيلما عظيما جدا سعدت برؤيته وازداد ايماني بالعلم والسعت آفاق تفاؤلي بالحياة . واذكر ايضا انني رايت فيلما من حياة « لينين » . كان فيلما طويلا مقسما الى جزئين فرأينا كل جزء المرة بعد الاخرى . كان فيلما تسجيليا يبين كيف نشأ لينين وكيف تعلم ومتى بدأ النضال وملابسات هذه البداية ، والمعارك التى خاضها سواء كانت معارك فكرية أو سياسية ، وبدت للمشاهدين آراءه في الثورة وكيف تنظم ومراحلها وانتهاز الفرص المواتية لانجاحها فى الفيلم واضحة .. وانتهى الفيلم يموت لينين واستمرار المسيرة من بعده على يد « ستالين » وكنت ارى هذه الافلام وكانني قرأت كتبا عنها . لم اكن اعلق على موضوعاتها الا قليلا . وكانت زوجة ترى نيومان مثلى ترى وتستوعب ولا تعلق الا قليلا . على عكس ترى نيومان الذى كان حريصا عندما اقابله بعد مشاهدة الفيلم اى فيلم أن يناقشنى فيه وان ينتظر رايى وان يبدى رأيه . واتصالى لاول مرة بالاستاذ ترى نيومان كان فى الفصل . فلما رآنى عرف توا اننى اجنبى ورأى في ملامح وجهى ملامح وجه « الدكتاتور فرانكو » رئيس أسبانيا فى ذلك الوقت فظن اننى من اسبانيا . فلما ذكرت له انني مصري تهلل وجهه وابتسم ابتسامة عريضة . وفى الحصة التالية بادرنى عندما رآنى ذاكرا أن زوجته وهو يسعدهما أن ازورهما في بيتهما فى اجازة نهاية الاسبوع . وقد رحبت بذلك . وبدأت مسيرة التعرف على آل ترى نيومان حتى تركت مدينة لندن فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وعندما عدت اليها فى

شهر اغسطس عام ١٩٦٩ حاولت الاتصال بهما وبمن جاءوا به من ابناء اذا كان ذلك قد حدث فعلا ، حاولت بكل اخلاص ، ولكنى لم اوفق . وبقيت الذكرى .

وكنت اذهب الى البوليتيكنيك بانتظام على الرغم من المناخ المتغير ، اى سواء كانت السماء تمطر ثلجا او كانت تمطر رذاذا ، وسواء كانت الرياح تهب قارسة قاسية وتلسع جسمى « كل جزء فيه » وكأنها «الكرابيج» او كانت هادئة كالنسيم العليل ! كنت احضر دروس العلوم المخصصة لاجتياز الدبلوم العام العالى فى التربية التى بدأت الاستعداد لها فى المعهد البريطانى وانا فى القاهرة . وتتضمن هذه العلوم التاريخ والتاريخ الاقتصادى الانجليزى والدستور البريطانى وعلم الاقتصاد . وقد التحقت بهذه الكلية بعد مقابلة الاستاذ الدكتور « هيرمان مانهايم » وكان واحدا من هيئة التدريس فى جامعة لندن . كنت اعرف هذا الرجل فقد كان يحاضرنا فى « علم الاجرام » فى عام ١٩٤٨ عندما كنت واحدا من الدارسات والدارسين الذين كانوا يعدون للعمل كمراقبات اجتماعيات أو كمراقبين اجتماعيين بالمحاكم . كان معظم هؤلاء الدارسين من البريطانيين . وفى الوقت الذى كانت لغة الدكتور مانهايم وهو يلقى محاضراته واضحة لى كل الوضوح ، كان الدارسون البريطانيون يشكون من عدم وضوح لغته التى يحاضرنا بها . كان اجنبيا من المانيا . وكان يهوديا أثر ترك بلاده الى انجلترا كما فعل غيره من يهود الالمان . واحتضنته بريطانيا واتاحت له فرصة العمل فى تخصصه الذى اشتهر به وهو فى المانيا . كنت اعرف الدكتور مانهايم « هيرمان مانهايم » وانا اكتب الاسم كاملا حتى لا يختلط بالدكتور « كارل مانهايم » الذى

يعرف فى محيط طلاب علم الاجتماع المصريين بمؤلفه عن « علم الاجتماع المعرفى » . ومن ثم فقد كتبت اليه لاستنصحه فى امرى . وكان الرجل كريما فحدد لى موعدا قابلته فيه فى مكتبه فى جامعة لندن . وذكرت له ظروفى واهدافى . وعرف عن مؤهلاتى وخبراتى فى ميدان علم الاجرام من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥١ اى حتى قبل مجيىء الى لندن لاستكمل دراساتى العالية . وكان قراره بالنسبة للالتحاق بجامعة لندن مخيبا لآمالى . لم يعترف بدبلوم الخدمة الاجتماعية الذى حصلت عليه فى عام ١٩٤٠ ولم يعترف ايضا بخبراتى الواقعية فى ميدان الاحداث الجانحين فى خلال فترة من الزمن لا تقل كثيرا عن اثنتى عشرة سنة . وكانت نصيحته أن احصل على بكالوريوس من جامعة لندن أولا لكى احضر بعد ذلك لدرجة الدكتوراه مباشرة أو لدرجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه . لم يكن الدكتور مانهايم عطوفا نحوى ابدا ، ولم يبد اية رغبة فى كتابة تقرير عنى لادارة الجامعة شارحا فيه حالتى لعل وعسى . ولكنه والحق يقال اختار لى أن التحق بكلية البوليتكنيك حرصا على وقتى وتيسيرا لتحقيق آمالى التى بدت له وكأنها آمال شخص طموح يعيش فى عالم من الاوهام . وقبل ان ابرح المكان قال لى الدكتور مانهايم أن احد تلاميذه كان مصريا واسمه « حسن الساعاتى » ، وسألنى اذا كنت اعرفه . وقلت له اننى اعرفه ولم اذكر التفاصيل . لم اذكر له عندما اختير فى بعثة الى لندن لدراسة اللغة الانجليزية ان المغفور له الدكتور عبد المنعم رياض نصحه بدراسة مشكلة الاحداث الجانحين فهى اولى أن تكون موضوع اهتماماته . ولم اذكر له انه قبل أن يسافر فى بعثته زار مؤسسة الزفاف الملكى ولم تكن الحرب العالمية

الثانية قد اعلنت ، وكيف قوبل بالترحاب فهو مرسل بتوصية الدكتور رياض أول الذ•ونيين الذين كانوا يعرفون الكثير عن مشكلة الاحداث الجانحين المصريين ، وكانت له آراء رائدة فى تشريعات الاحداث منشورة . ولم اذكر للدكتور مانهايم ان المـــادة التى جمعهـــا حسن الساعاتي فى رسالة الدكتوراه التى اجازها كان معظمها من « ملفات » حالات الاحداث الجانحين التى قام مكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ببحثها .. لم اذكر له كيف حدث هذا ؟ عندما جاءنى الزميل « حامد شاكر » وانا مدير للمكتب يطلب منى اتاحة الفرصة لطالب درجــة الدكتوراه من جامعة لندن ليطلع علي ملفـــات حـــالات المكتب ، وقد لبيت فى الحال هذا الطلب وخصصت غرفة خاصة من غرف المكتب لتكون تحت تصرف حسن الساعاتي هو ومن يرغب . وكان يعطى حالات الاحداث كل سنة علي حدة منذ انشاء المكتب ، وما كان عليه الا ان ينقل بيانات كل حالة فى كشوف « تفريغ » أعدها لهذا الغرض . واستمر اسابيع يفعل ذلك حتى اتم ما اراد . وبان لقارىء الرسالة أن الحالات المنقـــولة بياناتها لم تكن نتاج بحوث باحثى المكتب وكان منهم الاساتذة محمود فهمي واحمد مرزوق وواصف يوسف وعبد العزيز فتح الباب وفتحية عبد الجـــواد وغير هؤلاء مثل الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي والدكتور الطبيب حليم متري . لم يذكر الطالب الذى أشرف عليه هيرمان مانهايم اسما واحدا من هؤلاء الذين بحثـــوا الحالات التى أفاد من بياناتها فى رسالته . وماذكره فى الرسالة كانت عبارة شكر للمكتب لا تعبر عن الواقـــع الذى كان . لم اذكر كل ذلك ولا غـــيره للدكتـــور هيرمان مانهايم وخرجت من عنده وانا كاسف البـــال

يساورني القلق واكاد ان لا اجد بصيصا من نور يبدد مابدا امامى من ظلمات . ولكنى لم أبال وسرعان ماسرت فى كيانى اشعة التفاؤل . وتأكدت بأن الحق أبلج وان مافعله حسن الساعاتى او يفعله أو سيفعله غيره مآله زبالة التاريخ . ولسوف يسأل التاريخ عن صحيفة الاستبيان التى فى ضوئها كما زعم حسن الساعاتى جمع مادة دراسة الدكتوراه . اننى لم اجدها فى الرسالة ولم اجدها فى كتاب من كتبه التى نشرها عن موضوع الاحداث الجانحين . ولكل طريقه . هذا طريق سلكه شخص اصبح يلقب بدكتور ، وقد اخترت طريقا آخر ، هو طريق ضيق نعم ، ولكن من سلكه كان آمنا واثقا يدعو الى كل ماهو طيب ويحاول مخلصا التغيير الى ماهو افضل واقوى واعظم . ولن يجدى الدكتور حسن الساعاتى أن يكتب فى كتاب حديث وقع فى يدى وانا اكتب هذه السطور اى بعد سبع وثلاثين سنة ، ان يقول معترفا بما فعله فى عام ١٩٤٥ « .. حضرت الى القاهرة فى اجازة دراسية من جامعة لندن لاجراء العمل الميدانى لبحثى فى موضوع جناح الاحداث فى مصر . وقمت بنفسى باجراء العمليات الاحصائية والتصنيف بالعد اليدوى . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اننى نقلت بنفسى وبمساعدة السيدة حرمى ملخصات كمية مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين « المهتمين بالخروج على قانون العقوبات أو قانون الاحداث المشردين» التى وردت الى كل من مكتبى نيابة الاحداث فى كل من القاهرة والاسكندرية » . انه ذكر نقل مايزعم انها ملخصات كمية مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين التى لم يبحثها هو نفسه ولم يذكر اسما واحدا من باحثيها . والملاحظ أن الحالات وردت الى كل من مكتبى

الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية واللاحظ أيضا ان ملف الحالة كان يتضمن معلومات كمية وكيفية : منها مثلا نتيجة اختبار ذكاء الحدث ودراسة نفسية عنه فضلا عن التتبع الذى كان يقوم به باحث الحالة ويتضمن هذا التتبع زيارات المكتب والمحكمة والأسرة ومحل العمل والمدرسة وكل ما يتعلق بسلوك الحدث ومشاكله والاسهام فى حلها ومدى تقدم الحالة من عدمه والانتهاء من التتبع وعوامل هذا الانتهاء فقد يكون منها سفر الاسرة او هروب الحدث خارج القاهرة أو وفاته ... الخ ان البيانات التى أفاد منها الدكتور الساعاتى فى رسالته لم تكن ملخصات كمية مقتضبة ، فانا اذكر اننى أطلعت على كتاب قام الدكتور حسن الساعاتى بتأليفه فى عام ١٩٥١ « عندما كنت فى رحلتى العلمية الثانية فى مدينة لندن » ، وهو الكتاب الذى اعطاه عنوانا هو « فى علم الاجتماع الجنائى » .
كان الدكتور الساعاتى فى ذلك الحين مدرسا بمعهد العلوم الاجتماعية ــ كلية الآداب ــ جامعة فاروق الاول « جامعة الاسكندرية » . وعندما اطلعت على هذا الكتاب وجدته ملخصا لرسالة الدكتوراه التى اجازها الدكتور هيرمان مانهايم ، اى الرسالة التى قدمها الى جامعةلندن ومنح بعد اتمامها درجة الدكتوراه . ولاضير فى ذلك فالعمل عمله ومن حقه أن يضمه أو يضم ملخصا له فى كتاب . وشاءت الظروف أن يتقابل الدكتور الساعاتى معى فى « المعهد القومى للبحوث الجنائية » فى عام ١٩٥٦ ، كان يعمل فى هذا المعهد بعض الوقت ، وكنت اعمل فيه كل الوقت . وبدأ المعهد العمل فى بعض البحوث فى ميدان الجريمة أو ذات الصلة بهذا الميدان اختيرت خصيصا من الظواهر اللامعة اجتماعيا وتكونت

من اجل اجراء البحوث العلمية الاجتماعية والنفسية والطبية والانثروبولوجية هنها هيئات بحوث مشكلة من اعضاء المعهد ومن خارجه تحقيقا للشعار الذى تبناه المعهد فى ذلك الحين « لا احتكار فى العلم » . وكانت موضوعات هذه البحوث : « البغاء فى القاهرة — مسح اجتماعى ودراسة اكلينيكية » و « تعاطى الحشيش » و « جريمة القتل » و « جرائم السرقة عند الاحداث · دراسة احصائية تحليلية » و « الثأر : دراسة انثروبولوجية » . وكنت قد عدت لتوى من الولايات المتحدة حاصلا على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة . وكانت فى جعبتى افكار وافكار . منها مثلا ضرورة الاهتمام بدراسة الاحداث المعرضين للجناح ، وبدراسة حجم ظاهرة جناح الاحداث وحجم ظاهرة التعرض لجناح الاحداث ، والاهتمام الضرورى بدراسة صور الجريمة والجناح كل صورة على حدة « كانت كل الدراسات والكتب التى تعالج موضوع الجريمة او الجناح تتحدث عن عوامل الجريمة وعوامل الجناح والملاحظ ان عوامل صورة كصورة جريمة القتل العمد غير عوامل صورة كصورة جريمة هتك العرض أو الاغتصاب أو جمع الاعقاب مثلا » . والاهتمام الضرورى ليس فقط بالجانى وظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية .. الخ بل ايضا بالمجنى عليه وصلته بالجانى .. الخ . وكنت أدعو الى ضرورة دراسة الجرائم غير المنظورة التى تبدو واضحة فى جرائم مثل تعاطى المخدرات والتهريب والرشوة والجرائم الجنسية . وفى ضوء تأثير تعاليم استاذى الاستاذ يعقوب فام كان من اهدافى ان ندعم عمل الفريق فى كل بحوث ودراسات المركز . وكنت عندما انتهيت من

كتابة تقرير بحث « جرائم السرقة عند الاحداث : دراسة احصائية تحليلية » قد دعوت ادارة المركـــز الى مناقشة التقرير وذلك بان يجتمع باحثو المركـــر والمهتمون بالموضوع لمناقشة هذا التقرير كتقليد يتبع عند انتهاء كل بحث وبخاصة ونحن فى مستهل حياتنـا كباحثين اجتماعيين علميين مصريين في ميـدان الجريمة والجناح ، اى ان مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى مصر مازالت في المهد ، ولعل المناقشات واكتشاف العيـوب ونواحي القصور في بحوثنا اولا باول ان ييسر تلافى هذه العيوب وهذا القصور بمرور الوقت . واخذت ادارة المركز بهذا الراى ووزع تقرير البحث المشـــار اليه فى شهر ديسمبر عام ١٩٦١ ، وحددت جلستان لمناقشته فى أوائل شهر يناير عام ١٩٦٢ . مع ملاحظة ان هذا التقرير كان قد تم طبعه فى يناير عام ١٩٦٠ .

***

صورة من جواب الدعوة لمناقشة التقرير
هيئة بحث السرقة عند الاحداث

السيد الاستاذ الدكتور

مدير عام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

بعد التحية ، اتشرف بتقديم تقرير بحث السرقة عند الاحداث « المرحلة الاولى » فى صورته النهائية .

وانى أبادر فأتقدم باسمى وباسم زملائى أعضاء الهيئة

الفنية بالمعهد بالشكر العميق الى سيادتكم على ماتفضلتم به علينا من عطف وتشجيع طوال فترة دراسة هذه المرحلة من البحث . مما كان له أكبر الاثر فى السير قدما نحو تحقيق الهدف ، على الرغم من العقبات والصعوبات التى صادفتنا .

وانتهز هذه الفرصة فأتقدم الى سيادتكم باقتراح عقد ندوة علمية للهيئة الفنية بالمركز ، يتحدث فيها ممثلون عن البحوث التى انتهت عن التجارب والصعوبات التى مرت بهم فى خلال فترة البحث ، ومن ثم تتاح الفرصة للجميع لتبادل الآراء والخبرات فى صراحة تامة ، وبهذا نختتم مرحلة ونبدأ اخرى جديدة ونحن اعمق فهما واكثر نضجا ، ومن ثم اكثر ثقة فى انفسنا بالمستقبل .. ومع جزيل الشكر .

ارجو ان تتفضلوا سيادتكم بقبول فائق احترامى .

المشرف بالنيابة عن البحث
سيد عويس

وكان اجتماع لجنة كتابة التقرير النهائى عن «بحث السرقة عند الاحداث « الجزء الاول » يضم هذا الاجتماع الزميلة آمال عثمان والزميلة ناهد صالح والزميلة هدى مجاهد والزميل على حسن فهمى والزميل يوسف صبرى . وقد تم هذا الاجتماع فى خلال عام ١٩٥٩ اى قبل الانتهاء من من كتابة هذا التقرير فى يوم ٢٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ .

***

وقد اضطررت الى الاشراف على البحث في شهر يونيو عام ١٩٥٨ عندما حالت ظروف استاذى الدكتور عبدالعزيز القوصى « المشرف الاول فى خلال الفترة من شهر مارس عام ١٩٥٧ حتى شهر يونيو عام ١٩٥٨ » دون امكانه الاستمرار فى الاشراف على هذا البحث . وكنت سعيدا جدا بهذه المناسبة العلمية ، وحضرها الكثيرون وكان من بين الحاضرين الدكتور حسن الساعاتى وسارت المناقشة على مايرام . وقد افاد الجميع وانا منهم بكل ماقيل . وكان بين ماقيل ماقاله الدكتور الساعاتى « عما اذا كان المشرف « الذى هو انا » قد اطلع على كتابه « فى علم الاجتماع الجنائى » ولاحظ ماذكره عن جرائم السرقة عند الاحداث فى كتابه المشار اليه » وذكرت فى جلسة المناقشة انى اطلعت على ماكتب فى هذا الكتاب ، وان ماكتب فيه الكثير من الغموض وسأرد عليه فى دراسة أنشرها فى « المجلة الجنائية القومية » مجلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية « اصبح المعهد القومى للبحوث الجنائية فى ضوء القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » . ورجوته امام الحاضرين أن يرد عليها ، ولنبدأ المناقشات العلمية فى ميدان الجريمة والجناح فى مصر بأسلوب موضوعى ، تكون فيه قدوة ومثلا يحتذى . فالهدف الاول هو مصرنا الخالدة . ونحن نعمل من أجل رفعتها وتطهير مجتمعها من الادران والمشاكل ومنها ظاهرة الجريمة وظاهرة الجناح . وكانت الجلسة قد انتهت مدتها ، وكانت هى الجلسة

الثانية . وخرجت من المكان وقد عزمت على الاستعداد لكتابة الدراسة التى وعدت بأن اكتبها . وعلى الرغم من الاتصالات التى كانت بينى وبين الدكتور حسن الساعاتى السابقة فاننى لم أكن لادعى اننى سبرت غور نفسه فى ذلك الحين . اصبح منذ لحظة اهتمامه بالاحداث الجانحين عندى زميلا بل صديقا . وكل مافعله فى الماضى قبل مناقشة بحث « جرائم السرقة عند الاحداث » يدل على ذلك . قبل ان يسافر فى بعثته فى عام ١٩٣٩ وبعد أن عاد الى القاهرة واشترك مع زوجته الفاضلة فى اعداد معهد الخدمة الاجتماعية للفتيات بعد عام ١٩٤٦ . كان ميدان عملنا واحدا ، واذا كان هو الاسبق فى التحصيل الاكاديمى العالى فكنت أنا الاسبق فى العمل الاجتماعى فى ميدان الاحداث الجانحين سواء كان ذلك فى مؤسسة الزفاف الملكى او فى معسكر كوم امبو او فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة او فى ادارة الاحداث فى وزارة الشئون الاجتماعية « شهر ابريل عام ١٩٥١ — شهر اغسطس عام ١٩٥٣ — كان تعيينى فى هذه الادارة عندما كنت فى لندن واستلمت العمل فى شهر اغسطس عام ١٩٥٢ » . كنت اود بكل الحب أن نناقش قضايا الميدان علانية أما فى اجتماعات اسبوعية او نصف شهرية او حتى شهرية ، او ان ننشر هذه القضايا فى المجلة الجنائية القومية . كل ذلك من اجل تحقيق اهداف عدة منها ان نتبادل الخبرات ، ومنها ان نتفق على معانى المفاهيم وان نحاول الاتفاق على

صياغتها باللغة العربية ، ومنها أن نضع التقاليد للمناقشة الحرة والعمل الجماعي ، فالعلم لا كبير عنده . وكلنا في مسيس الحاجة الى ان نتعلم الكثير وان نعلم الكثير .

وعكفت على كتابة الدراسة ، وكانت لادارة المركز وجهة نظر في نشرها ، وكان للدكتور الساعاتي آراء في نشرها . وانني ارجو من القارىء أن يتفضل بقراءة الدراسة وقراءة ملاحظات الدكتور الساعاتي وبخاصة الفقرات التي حوط حولها بالحبر وطلب عدم نشرها . وانظر ايها القارىء الكريم الى هذا الرجل الذى لم يهتم بالمضمون الذى كان من واجبه أن يدافع عن نفسه من اجله ، فتراه يهتم بهجاء كلمة مثل كلمة « نشئوا » . وقد حاولت ان اقنع ادارة المركز والدكتور الساعاتي بأن ينشر رده مع الدراسة التي كتبتها جنبا الى جنب في المجلة . طلبت هذا مرارا ولكن الطلب لم يستمع إليه احد . ان الضرورة كانت تحتم اجابة هذا الطلب الجاد . فقد كنا في ذلك الوقت مسئولين عن وضع اسس لمهنة جديدة هي مهنة البحث العلمي الاجتماعي في المجتمع المصرى . ان بعض ماكتبته في دراستي يشير الى الكثير من الغموض والشبهات ولا اقول من الاتهامات . ولانني كنت أعلم كما سبق او اوضحت عن احد مصادر المعلومات الهامة التي جمعها الدكتور الساعاتي في بحثه فقد كنت قادرا على ابراز جوانب كثيرة من هذا الغموض فضلا عن بعض الاخطاء ووجهات النظر المختلفة . ولن اخوض في الدراسة وماذكر فيها وموقف ادارة المركز منها ؛ ولكنى اقف لحظة امام احد المفاهيم التي كثيرا ماردده الدكتور الساعاتي فيمحاضراته وفي مناقشاته على إساس أنه من ابتكاره ومن صنع

يديه « أقصد بهذا المفهوم مفهوم منطقة تفريخ الجريمة »
كان الدكتور هاريمان مانهايم عندما كان يلقى محاضراته
على الدارسات والدارسين الذين كانوا يدربون للعمل
كمراقبات اجتماعيات او كمراقبين اجتماعيين بالمحاكم .
وقد كان من حظى ، كما يعلم القارىء ، ان اكـــون
احدهم ، وقد لاحظت أن الدكتور مانهايم كان كثـــيرا
مايشير الى مراجع تتضمن بحوثا ودراسات قام باجرائها
علماء امريكيون . وفى خلال دراســتى فى الولايات
المتحدة « جامعة بوستن » لاستكمال دراساتى العليـا ،
وكان ذلك فى خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر اغسطس
عام ١٩٥٣ حتى يوم ٢٩ من شهر مايو عام ١٩٥٦ .
اطلعت على مقال « ادوارد ج بوسنياك » Posniak Edward G.
وهو ؟ Does the slum breed crime —
وكان منشورا فى مجلة Federal Probtion — ؛
ابريل ــ يونيو عام ١٩٤١ . ومعنى عنوان المقال واضـح
فهو يقول هل البيئة المتخلفة تفرخ الجريمة ؟ لقد نشر
هذا المقال فى عام ١٩٤١ واجيزت رسالة الدكتـوراه
وموضوعها : جناح الاحداث فى مصر التى قدمها الدكتور
الساعاتى لجامعة لندن فى عام ١٩٤٥ . والملاحظ ان
القول بأن بيئة ماتفرخ الجريمة تبسيط زائد على الحد
لتفسير السلوك الاجرامى ولا يمكن الاخذ به .

دراسة لكتاب ((في علم الاجتماع الجنائى))
للدكتور حسن الساعاتى

بقلم : د . سيد عويس

خلاصة البحث :

كتب المؤلف خلاصة البحث فى صفحتين ((١٣٦ ، ١٣٧)) وابرز ماتضمنته مايلى :

١ ـ يرى المؤلف ان المجموعتين اللتين اجرى عليهما البحث غير صغيرتين وان وسائل البحث كانت تجريبية وكان الوقت الذى استغرقه قصيرا جدا .

ويعترف المؤلف بأنه لا يزال هناك نطاق مجهول فى ميدان هذه المشكلة يحتاج الى اماطة اللثام .

ومع ذلك فالمؤلف يقول ان النتائج التى وصل اليها مشجعة الى حد كبير .

٢ ـ يرى المؤلف أن المجموعة الجامحة أدنى شأنا واسوأ حالا من المجموعة الضابطة ، وذلك فيما يختص بالعوامل البيئية والذاتية التى يقول انه بحثهـا وحلل نتائجها .

وابرز العوامل البيئية ـ فيما يقول ـ تلك التى تتعلق بمهن الاحداث ، وحالة اسرهم الاجتماعية والاقتصادية .

اما اقوى العوامل الذاتية وابعدها اثرا فتلك التى تتصل بحالتهم العقلية والاخلاقية ..

ويعتبر المؤلف العوامل السابقة عوامل أسـاسية للاجرام .

٣ ـ ومن راى المؤلف ان هناك عوامل اخرى سـماها عوامل فرعية . وهذه العوامل الاخرى هى معـاملة

الوالدين للحدث وحالته الصحية وعاداته .. الخ .

٤ ـ ويعود المؤلف ويقول ان هذا التمييز بين العوامل بعضها وبعض ليس فيه تعنت أو اجبار ولكنها محاولة الى توجيه النظر الى العوامل الاساسية ، وأن الحق الذى لا مرية فيه ان هذه العوامل كلها على جانب كبير من الاهمية وان الارقام التى ذكرها تبرهن بشكل عام على أن العوامل البيئية الذاتية ذات آثار خطيرة فى اجرام الاحداث وتشردهم .

٥ ـ ويعود المؤلف مرة أخرى فيقول ان هذه العوامل نفسها قد ذكرت فيما يتعلق بالاحداث العاديين ، ولكنه وجد ان آثارها معتدلة فى كثير من الحالات ، ولذلك « لا نستطيع ان نجزم بأن احد تلك العوامل دون غيره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحداث وتشردهم ، الذى يعتبر ظاهرة اجتماعية معتلة تنجم عن مؤثرات متعددة عادة ، ومختلفة اختلافا بينا ، بعضها يعقب بعض وتتجه كلها الى نهاية واحدة » « ص ١٣٦ » .

٦ ـ ويعود المؤلف الى هذا الموضوع مرة اخرى فيقول ان فى رأيه ان الاجرام والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل شتى بشكل خاص وترتيب معين .

واختفاء عامل واحد او ظهور عامل جديد لم يكن فى الحسبان كفيل بتغيير الظروف فتتغير النتيجة النهائية تبعا لذلك .

٧ ـ ولا يشك المؤلف فى ان خلاص الاحداث غير الخارجين على القانون انما يعزو ـ كما يقول ـ الى حقيقة بالغة الاثر ، وهى انهم :

ـ لم يعلموا الاجرام ولم يشجعوا على التشرد .

ـ لم يكونوا مهملين كل الاهمال .

ـ كانوا فى رعاية آبائهم او ذويهم ، وفى حالة وفاة

هؤلاء او اهمالهم او عدم استطاعتهم القيام بواجبهم لاى امر من الامور ، تيض الله لهم من يشرف عليهم ويعنى بشئونهم من الجيران الرحماء او الاصدقاء الصلحاء او « اسطوات » المهن الكرماء .

– ويرى المؤلف من حسن الحظ أن الاطفال المصريين لا يعتبرون اهتمام الناس « الغرباء » تطفلا او تدخلا فى شئونهم ، لانهم يربون منذ نعومة اظفارهم على احترام الكبار وتبجيلهم والاستماع الى نصحهم وارشادهم .

٨ – وقد لاحظ المؤلف ان كثيرا من الجامحين الذين نزحوا من الريف او البلاد الصغيرة الى القاهرة « يلاحظ ان عدد هؤلاء هو ١٨٤ حدثا اى بنسبة ٢٣٪ ، وهى نفس نسبة عدد الاحداث من المجموعة الضابطة « انظر جدول رقم ٣٢ صفحة ١٠٥ » قد وقعوا لسوء الحظ ، فى أيدى نساء فاسدات ورجال غلاظ الاكباد، فاستغلوهم فى تحقيق مآربهم الدنيئة ، وعلموهم السرقة والنشل ، وشجعوهم على الفساد .

٩ – وفى ضوء هذا يرى المؤلف ان سلوك الصغار يتوقف الى حد كبير جدا على سلوك الكبار ومعاملتهم ويعلن دون أدنى تردد ان اجرام الاحداث وتشردهم فى مصر مشكلة الكبار الى حد كبير وبعيد .

ويلاحظ مايأتى :

١ – ان مفاهيم العوامل البيئية والعوامل الذاتية استخدمها المؤلف ولم يوضح معناها ، ولو انه قصرها على مابحثه وحلل نتائجه « انظر صفحات ١٠٨ – ١٣٥ » .

٢ – ان تحفظ المؤلف عند كلامه عن ورود ذكر العوامل نفسها فيما يتعلق بالاحداث العاديين بقوله « غير ان آثارها كانت معتدلة فى كثير من الحالات » قد أوصله الى عدم الجزم بأن احد تلك العوامل دون

قيره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحـــداث وتشردهم وقد انتهى به الامر الى ان فى رايه ان الاجرام والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل شتى بشكل خاص وترتيب معين .. الخ « صــفحتا ١٣٦ ـ ١٣٧ » .

وهذا راى لم تحققه نتائج بحثه . وان كـــان قد عرف قبل اجراء بحثه . اننا كنا ننتظر من هذا البحث الوصول الى تلك « الظروف المعينة » التى تتداخل فيها عوامل شتى .. الخ فى ضــــوء الواقع الحى لمجتمعنا .

واننى اذ اختم هذا المقال ، أكرر ماسبق ان قلته فى صدره ، بأن كتاب الدكتور الساعاتى من الكتب القليلة التى تناولت ظاهرة الجريمة فى ميدان الاحداث تناولا جادا ، والتى حرصت على دراستها دراسة موضوعية . وماشجعنى على كتابة هذا المقال الا ماذكره مؤلفــه ، فى تواضع وشجاعة ، عند تحدثه عن أهداف نشره ، اذ يقول « وكذلك نرمى الى حفز الباحثين الى توجيــه جهودهم للبحث فى هذا الميدان . عساهم يعثرون على مالم نكن قد استطعنا العثور عليه فى هذا البحث » .

واود أن اؤكد مخلصا اننى لم اهدف من جميع ماذكرت الا الخير من اجل مصرنا الخالدة . ان الظروف الثقافية الاجتماعية المصرية فى ذلك الحين وفى كل حين فى حاجة ماسة الى القدوة الحسنة . ولعل العلماء المصريين أن يكونوا أولى بشرف هذه القدوة . اننى قد اكون مخطئا . ومع ذلك فالراى والراى الآخر يجب أن يســودا . اننى فى ضوء ظروفى الخاصة وقد قمت بما قمت به فى المجتمع المصرى القديم قدم الدهر المستمر اســتمرار الحياة لا يمكن ان ادعى الكمال ، ولكنى أؤمن بالعلم ولن

يسود العلم الا بالامانة العلمية . واود ان اذكر القارىء
أنني لن اعيش اكثر مما عشت ، ومن ثم لا مطمع شخصى
لدى الا ان اقول مايجب على ان اقوله . ولا يمكن
لشخص مثلى ان يهدف من ذلك كما ذكرت الا كل ماهو
خير من اجل مصرنا الخالدة . فالاستاذ المفكر لابد وان
يكون ، ومعذرة للتكرار ، قدوة حسنة ليس فقط
لمريديه بل لمن يأتون من بعده كذلك . وانا اذكر فى احدى
جلسات « المؤتمر الدولى للاحصاء والحسابات العلمية
والبحوث الاجتماعية ٥-٨ ابريل عام ١٩٧٦ » ، وكان
مقررها الدكتور الساعاتى وكنت احد الباحثين الذين
قدموا دراسة عن « نظرة الشابة المصرية المعاصرة
نحو نفسها : تجربة منهجية » . وفى أثناء مناقشة
دراستى دعا الدكتور الساعاتى الى ضرورة التعليق
على البحوث والدراسات التى يجريها الباحثون المصريون
ومنها بحوثه ودراساته وأشار الى امام الحاضرين
وكانوا كثيرين قائلا مايعنى اننى لم أفعل ذلك وعاتبنى
عتابا رقيقا واكد دعوته لى لان افعل . ولم استجب
لهذه الدعوة فى ذلك الحين ولم اذكر الاسباب الداعية
الى احجامى عن التعليق او نقد بحوثه ودراساته امام
الجمع الحاشد من الحاضرين . كانت الاسباب معروفة
لديه ولدى . ولم يذكر احدنا شيئا عنها . ولعله كان
قد نسى ماحدث عندما حال مشتركا مع ادارة المركز
القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية دون نشر دراستى
عن كتابه « فى علم الاجتماع الجنائى » . ولعله كان
متذكرا فانا لا استطيع أن أجزم . ومهما يكن من الامر
فانا اذ اكتب ماكتبت لا أرى الدكتور الساعاتى أمامى ،
ولكن ارى المستقبل . ولنا فيما حدث لسمعة « سيريل
برت » العلمية ، مؤلف كتاب « الحدث الجانح » المشهور

والذي كان يعتبره البعض انجيلا ! درس وأي درس ، فالحقيقة العلمية وان حاول البعض اخفاءها ستظهر حتما في يوم من الايام . والثمن الذى يدفعه أمثال سيريل برت في محيط العلم والعلماء ثمن باهظ يستحقونه . لقد ضلل هذا الرجل العلماء والاساتذة والطلبة وظن ان لقب « سير » او لقب « بروفسور » كان لايهما أولهما له وجاء ، ولكن جاء الوقت وكشف ستره « اللهم احفظنا » . والملاحظ أن الحقيقة العلمية لاتخبو ولا تتغير بمعنى إنها فى ضوء العوامل التى تكشفها للباحث تبقى مادامت هذه العوامل قائمة . اننا اذا قلنا ان الماء يغلى فى درجة مائة مئوية تحت الضغط العادى ، فان الماء سيغلى فى كل مكان مادامت هذه العوامل قائمة « درجة مائة مئوية + الضغط العادى » ، ولكن الماء قد يغلى اذا ارتفع الانسان على قمة جبل فى درجة أقل من مائة مئوية وذلك لان الضغط اصبح غير عادي . هذا كلام معروف للقارىء كل المعرفة والمعرفة كلها . والملاحظ ايضا ان « كوبرنيكس » قد وصل الى بعض الحقائق العلمية ولكن « جاليليو » وصل الى حقائق علمية اخرى، وعندما تيسر « لنيوتن » ان يصل فى ضوء تجاربه الى حقائق علمية اخرى ساعد فى تقديم عالم احدث للانسان. ان كوبرنيكس لم يكن مخطئا ولا جاليليو ولا نيوتن بعد أن جاء من بعده « انشتين » بحقائق علمية اخرى . ان العلماء اناس يرون العالم وكأن الواحد منهم يتسلق جبلا فكلما ارتفع الواحد منهم كان اتساع مايراه من أفق . فاذا ارتفع عالم فى قاعة كوبرنيكس المسافة التى ارتفع اليها كوبرنيكس يرى ما رآه الاخير مهما كانت عقيدة هذا العالم أو مذهبه . واذا ارتفع عالم فى قامة جاليليو المسافة التى ارتفع اليها جاليليو يرى ما رآه جاليليو ..

وهكذا . والحقيقة العلمية يقصد بها هنا « القــانون العلمي » . وانني اثبت ذلك لان هناك مفاهيم اخـرى باللغة الاجنبيه قد تترجم الى « حقيقة » مثـل مفهوم
ولو أننا — Fact أو مفهوم — Reality
نجد ان البعض يرى أن المفهوم الاول يترجم الى «واقعة» وليس الى « حقيقة » . ومهما يكن من الامر فان الحقيقة العلمـة او الحقائق العلمية التى كشفت خداع سيريل برت كانت قوانين علمية أثبتها العلماء المتخصصون الذى جاءوا من بعده . ولم يهم آن برت كان حائزا على لقب « سير » او كان الوحيد فى الجامعة الذي يعرف اذا سأل سائل عن « البروفسور » . اى ان من كان يذكر لقب «البروفسور» كان يعني سيريل برت عندما كان على قيد الحياة . كل هذا عرض لا يهم فالحـق أبلج ، والتاريخ لا يرحم الا العـاملين الجـادين . اذا كانوا ، عن حسن نية ، من المخطئين ، فكل ابن آدم خطاء . وهذه حقيقة كما يقرها العلم يقرها نبى الاسلام سـيدنا محمد عليه الصـلاة والسلام .

وهأنذا فى محيط بحار المعرفة ومحيطاتها احاول ان اسبح حتى اصل الى بر الامان . سواء كـانت هـذه البحار والمحيطات فى الكلية او فى الكتب او فى المناحى او فى جلسات الاصدقاء المثقفين الخاصة منها أو العامة . واقصد بالاخيرة المحاضرات العامه التي كانت موضوعاتها ومواعيد القائها تنشر فى الجرائد وبخاصة جريدة الديلى ووركر . وقد كان يجذبنى حقا موضوع « العلم : تاريخه ومنهجه » . الذى كنت احرص على حضور محاضراته فى كلية مورلى . كان كتاب « الرياضيات للملايين » او كتاب « العلم للمواطن » (لهوجبن) ملاذا لى الجـأ اليهما اذا ماعن لى ان استزيد من معرفتى . كانا كلاهما

متصلتين بمعلوماتي اجله الثورة الحقة في الاطلاع على بعض جوانبهما . وكنت أعرف تقدم الانسان روحيا وماديا . منذ فجر التاريخ وتقدم الانسان عبر العصور [illegible] ومادوس . وكتب أدوس « جولدين » العالم البيولوجي المعروف وبخاصة كتابه « ماهي الحياة ؟ » وكتابه الآخر « كل شيء له تاريخ » وقد اثرا في تأثيرا كبيرا . وسيرى القارىء في هذه الدراسة كيف قلبت عبارة « كل شيء له تاريخ » تفكيري رأسا على عقب وبخاصة عندما درست كتاب « الغصن الذهبي » للعالم فريزر » ، وعندما درست كتاب « فجر الضمير » (للعالم بريستد) . ولم أكن لاعرف عن هذه الكتب وغيرها الا عندما اقترحهما لي الدكتور جون لويس لكي أقتنيها . وانا شخص لم يمنعني شيء في هذه الدنيا ، وحتى كتابة هذه السطور ، الا أن أقتني كتابا جيدا . كانت دروس كلية مورلي نافذة على آفاق المعرفة الانسانية الواسعة . منها عرفت الفرق الجوهري بين « عالم الازهر العصري » وبين « عالم الذرة العصري » . ومنها عرفت كما ذكرت آنفا كيف تقدم الانسان منذ الماضي السحيق وحتى الوقت المعاصر عندما حاول ، ونجح ، أن يكتشف القوانين التي تسيطر على الظواهر الطبيعية وعلى الظواهر الانسانية ليتسلط هو عليها . عرفت مثلا أن العجلة « وهي توجد الان في معظم او كل عناصر التكنولوجيا البدائية منها « عجلة العربية الكارو مثلا » والعصرية « عجلة الطائرة مثلا » والبوصلة والبارود والطباعة ، كلها ، قد اسهمت في تقدم البشرية اسهاما رائعا . ولن اتحدث عما وصل اليه الانسان في الوقت الحاضر ، وقت كتابة هذه السطور ، الذى قد بدأ ، في رأيي المتواضع ، « بعصر الالكترونات » .

وقد كان علم الحياة يشدني الى معلوماته العلمية

شدا . كان يجذبني لكي اعرف اسرار الحياة وبخاصة المادة التي يفكر الانسان بها . لقد ذهلت بشدة وربما عندما رأيت ادوار حياة الجنين وهو في بطن أمه منذ لحظة تلقيح البويضة حتى الوضع عندما زرت المتحف الطبيعي في لندن . وكان ذهولي وسعادتي لا تقدر عندما عرفت ، وانا المصري ، ان القطن الابيض اللون ، يمكن ان يزرع وينبت ملونا حسب رغبة المنتج فقد يكون قطنا أبيض او احمر او اصفر .. الخ ان التطبيق البيولوجي العلمي يسير قدما نحو خدمة الانسان ومواجهة حاجاته الضرورية لكي تتأكد انسانيته وترقى وتعلو . وما اسعدني عندما كنت أعرف معلومة جديدة عن طريق علم الحياة ، وما اكثر ماكنت اعرف ! ان معرفتي عن ان « القردة الانثى » تحيض مثلها مثل « الانسانة الانثى » كادت ان تطيح بكياني فرحا وانتصارا . كان انتصارا على الجهل الذي يبدده عندي نور ما اعلم . واكتشاف « الخلية الحية » وما كان له من آثار ، كان يمثل لي قفزة الى الامام نحو تحقيق الكثير من الآمال المعرفية عن الحياة . والظاهرة الفلكية وما علمته عنها اجتذبتني ولا تزال . ان قدرة الانسان على معالجتها باستخدام المنهج العلمي قد بهرتني ولا تزال . وكنت اقول لنفسي سرا وجهرا كلما علمت شيئا جديدا عن الظاهرة الفلكية كنت اقول اين « علم الفلك » من « علم التنجيم » أفسد « التنجيم فقط » الذي يملأ المناخ الثقافي الاجتماعي في المجتمع المصري ولايزال . وترجع بي ذاكرتي الى الوراء شيئا فاذكر « ام علي نبيهة » وقراءتها الطالع عن طريق « فنجان القهوة » تارة وعن طريق «الكوتشينة» او « الودع » تارة اخرى . رجعت الى الماضي عندما كنت تلميذا في المدرسة الابتدائية اسارع اليها بعد اداء

الامتحان لتقرا لى الفنجان او « تفتح » لى الكوتشينة .
لم أكن وحدى يفعل ذلك بل كان كل الحاضرين وكانت اغلبيتهم من نساء البيت : امى وزوجة عمى شقيق ابى وزوجة عم ابى وغيرهن . ورواج ام على نبيهة أقصد رواج الطلب على أم على نبيهة يكون عادة اما فى امتحانات أبناء الاسرة « العائلة » أو فى الملمات .
كانت أم على نبيهة زوجة لحانوتى ، وكانت محبوبة وغير منفرة على الرغم من ذلك لعوامل عدة كان من أهمها انها كانت تدعى انها قادرة على قراءة الطالع . واكرر قولى وانا هنا فى لندن أسمع وارى ، وارى واسمع اين ما اسمع وما ارى الآن وماكنت اسمع وارى وانا فى حضرة ام على نبيهة ومن حولها اقرب الناس الى نفسى يتسابقون اليها ويبتهلون ويرجون بل ويتقربون . ماابعد المسيرة الثقافية التى يجب ان يقفزها اعضاء المجتمع المصرى لكى يلاحقوا المسيرة الانسانية فى تقدمها وفى تطهير مجتمعاتها من ادران الترهات والافكار البالية والاساطير . لقد نجح الاغريق فى الماضى فى تطهير معارفهم من الاساطير فتقدمت حضارتهم وتقدم الغرب الذى اخذ عنهم حضارتهم . وحاول ابن رشد كما ذكرت أن يتقدم بأحد الحلول ، وعلى الرغم من شجاعته الادبية فانه قد اضطر الى أن يدعو الى الثنائية . فكانت « حقيقة الوحى » وكانت « حقيقة العقل » . والملاحظ أن الغرب لم يخل من وجود الثنائية ، فهى فيه لاتزال قابعة . فقد يرى البعض ان العالم مقسم الى مجالين : الطبيعى وفوق الطبيعى . ويرى البعض أيضا ان الفكر والمادة شيئان مختلفان كل الاختلاف ، اى انهم لا يعترفون بالمادة المفكرة على الرغم من انهم يعترفون بالمادة المتذوقة والمادة التى تشم والمادة التى تسمع

والمادة التى تلمس . ويرى البعض كذلك ثنائيــة النفس والجسد . فالنفس عندهم لها وجود منفصل عن وجود الجسد ، ومن ثم فهى منزهة من كافة الاحوال والتقلبات التى تلم بالجســد كالمــرض والالم والفقــر ، فكل هذه الاحوال والتقلبات ليست بشيء ذى أهمية بل انه يعنى تنمية الجانب الروحى فى الانسان . وكنت أتذكر وانا اقرأ عن هذا الموضوع أستاذى يعقوب فام وهو يحدثنــا ناعيا على الذين يرون ان الخلق شيء نفسى داخلى او هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل ، واما الفعل نفسه فهو السلوك .

واستمرت الظاهرة الفلكية تجتذبنى وتلح على لكى اعرف اسرارها . او لكى أعرف بعض ماعرف عن اسرارها فمنذ « كوبرنيكس » عرف العالم المتحضر ان الارض « كوكب » يدور حول « الشمس » أسوة بالـكواكب الاخرى ، بدلا من النظرة القديمه القائلة بأن الارض هى مركز الكون وانها محاطة بتسع هالات دائرية من البلور تحمل كل منها الشمس والقمر والكواكب والنجوم . وكانت النظرة الحديثة فى حقيقة الامر ثورة فى نظــرة الانسان للكون ، وكانت بمثابة العامل الرئيسى الى جانب عناصر اخرى فى تغيير النظرة الى العالم التى ســادت طوال العصور الوسطى « وكانت تؤيدها الكنيسة » تغييرا كاملا . وقد درست فى خلال الفترة الزمنية التى كنت اعيش فيها فى لندن ان الشمس على الرغم من ذلك ليست الا نجما من نوع عادى . وان الارض فى ضــوء الكون ومافيه من عوالم أن هى كما كان يقول لنــا جون لويس الا مجرد حفنة من التراب ان لم تكن ذرة مــن ذرات التراب « المعروفة » بالنسبة للكون ومافيــه من عوالم . ونظرا لقرب الشمس الشديد منا ، الامر الذى

يمكن للعلماء من دراستها بشيء من التفصيل ، فاننا نعرف من هذا النوع من النجوم « اى النجم العادى » اكثر مما نعرف عن اى نوع آخر . وتوجد الشمس على بعد ثلاثة وتسعين مليون ميل من الارض ، ويحتاج ضوؤها ثماني دقائق حتى يصل الينا . والشمس بهذا قريبة جدا اذا ماقارناها بما يليها فى القرب ، وهو النجم الذى يستغرق ضوؤه ٤ر٢٥ سنة ضوئية حتى يصل الينا « السنة الضوئية هى المسافة التي يقطعها الضوء فى خلال سنة واحدة بسرعته البالغة ١٨٦٣٠٠ ميل فى الساعة » . والسنة الضوئية تعادل على وجه التقريب .. .. ٥٨٦٠ ميل ، وهى تستخدم فى قياس المسافات بين النجوم ، وفى رحاب السكون يوجد حوالى ١٠(٢٠) نجم . ولكى يكتب هذا الرقم يوضع عشرون صفرا الى يمين العدد واحد . ومدار الارض حول الشمس ليس دائريا الامر الذى لاتبقى معه الشمس على نفس المسافة دائما . واحسن متوسط لهذه المسافة هو ٩٢٫٩٨٧٤١٦ ميلا ، وتكفى المسافة ٩٣ مليون ميل للأغراض العامة . ويقدر قطر الشمس بحوالى ٨٦٥٫٣٧٠ ميلا ، اى أكثر من ثلاث مرات مثل المسافة بين الارض والقمر . اى ان حجم الشمس يمكن أن يتسع للابين من الكواكب كل منها بحجم الارض . وتبلغ كتلة الشمس ٢ر٢ × ١٠(٢٧) طن . ولكتابة ذلك يوضع ٢٦ صفرا الى يمين العدد ٢٢ . وبمقارنة ذلك بالارض نجد ان كتلة الشمس تزيد على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣٫٤٣٤ مرة . وارجو ان يتصور القارىء ماحدث لى عندما عرفت هذه المعلومات الفلكية . وخاصة ماتعلق منها بالارض التى يعيش الانسان عليها . وكانت لهذه المعلومات آثار فى تثبيت عظمة لخالق السكون عندى .

وكانت لهذه المعلومات آثار اخرى . كنت السائل اذا مانجح الانسان وغزا الفضاء « كانت فكرة غزو الفضاء موجودة فى المناخ الثقافى الاجتماعى الغربى فى ذلك الحين » ، ونجح فى الوصول الى القمر ماذا تـــكون صورة الارض وهو واقف على القمر ؟ وماذا ستكون احوال المجتمع القمرى اذا وجدت فيه الحيـــاة ومن يشبهون الانسان على وجه الارض ؟ هل سيكونون من بنى آدم كما نكون نحن ؟ . وكيف يكون صيام شـــهر رمضان اذا استطاع المسلمون من الناس ان يعيشوا فى القمر ؟ والصلاة والحج كيف تؤدى هاتان الفريضتان ؟ وماذا عن مكة المكرمة والكعبة الشريفة والبيت الحرام وبيت المقدس والمسجد الاقصى وبئر زمزم وجبل عرفات وغار حراء فضلا عن المدينة المنورة و و و ؟ وما الارض وما القمر وما المجموعة الشمسية كلها ، وما الشمس التى تزيد كتلتها على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣ر٤٣٤ مرة ، كما انها تحتوى على ٩ر٩٩٪ من كل المادة الموجودة فى المجموعة الشمسية ؟ ان هى الا نجم من نوع عادى . ونحن نرى فى اية ليلة صافية اذا خرجنا الى الخــلاء ووجهنا بصرنا الى النجوم مايوحى الينا بأنها لابد ان تبلغ الملايين عدداً . ونحن اذ نرى مانرى فى ضوء موقعنــا من سطح الارض نرى بالعين المجردة مالا يزيد فى أى وقت عن ستة آلاف نجم . ولما كنا لا نرى سوى نصف الكرة السماوية فقط ، فمن ثم فاننا لا نشاهد فى الواقع اكثر من نصف هذا العدد . والحقيقة تؤكد مع ذلك أنه توجد فعلا ملايين النجوم . وان هنـــاك الملايين بل والبلايين من النجوم التى لا نراها اما لانها بعيدة جدا او لكونها خافتة لدرجة تصعب رؤيتها حتى لو كانت قريبة بما فيه الكفاية . وقد عرف القارىء ان اقــرب

نجم يبعد عنا بما يزيد قليلا على أربع سنين ضوئيـة « ٤ر٢٥ » . وكثرت تساؤلاتي وتعددت وشغفت حبا في الاستطلاع لاعرف هل وصل كتاب الله الكريم « القرآن الكريم » الى عوالم الكون التي توجد فيها الحياة ويعيش فيها اناس مثلنا ؟ فالله جل وعلا هو « رب العالمين » وهو الخالق القادر وهو نور السموات والارض . وكنت اقول لنفسي ماقيمة الارض وهي ماهي ، مجرد حفنة أو ذرة من التراب بالنسبة للكون ومافيه من عـوالم ؟ لماذا اختصها الله جل وعلا بالانبياء والرسل وبالاديان السماوية ؟ وقفز الى خاطري « اخناتون » الملك المصري القديم ، اول الموحدين ، الذي قام بالدعوى الى الاصلاح الديني قبل « مارتن لوثر » بتسعة وعشرين قرنا مـن الزمان . وكانت دعوته الى ان الله واحد أحد لاشريك له ، ووجدت نفسي في ذلك الحين انني في حاجة الى الاطلاع على تاريخ هـذا الملك الفـرعوني اطـلاعا أكثر دقة حتى اكون على بينة من امري . وفي حقيقة الامر وجدت نفسي انني غرقت في لجة الحيرة الفكرية . وعزمت عندما أعود الى القاهرة ان اسارع الى أصحاب الفضيلة رجال الدين المسلمين منهم وغير المسـلمين وبخاصة أصحاب السيادة رجال الدين المسيحي الذين يعتنقون المذهب الاورثوذكسي ، فهم عندي يمثلون الفكر المسيحي المصري منذ ان كرس القـــديس مرقص « انيانوس » أول اسقف مصري في عام ٦٤ ميلادية . وحتى هذا العزم لم يحررني من الحيرة التي وجدتهـا تشغل تفكيري ، وتأخذ من وقتي الثمين الكثير . وحتى دروس الفلسفة لم تساعدني على التحرر ولكنها وسعت آفاق تفكيري . فقد كان الدكتور جون لويس يحاضرنا

عن فيلسوف معين ويتحدث في المحاضرة وكأنه هـو هذا الفيلسوف . كان يعرض افكار الفيلسوف وماوصل اليه بكل إمانة وصدق وحماس . ثم يبدأ في تحطيم الفكرة تلو الفكرة في ضوء فكره هو . كان الدكتـور لويس محاضرا فذا . وكان مخلصا مع نفسه ومع الناس واقربهم عنده تلاميذه . وكنت أعجب به وهو يتقمص شخصية الفيلسوف الذي يحاضر عنه ، وكنت أعجب به ايضا وهو يفند ماوصل اليه هذا الفيلسوف من آراء وافكار . انظر اليه وهو يتحدث عن فلسفة «البراجماتيزم» أو « فلسفة الذرائع » فيما يتعلق بموضوع « الحقيقة الموضوعية » . وكنت اعرف عن هذه الفلسفة شيئا فيما قرأته في الكتاب الذي الفه استاذي يعقوب فام عنهـا والذي نشرته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » في الثلاثينيات كما أذكر . ولعل الاستاذ يعقوب فام كان أول من عرف المصريين بهذه الفلسفة . انظـر الى الدكتور جون لويس وهو يحاضرنا عن موضوع الحقيقة الموضوعية عند البراجماتيين فيقول بأسلوب ساخر انها غير موجودة ولكن ماهو موجود هو الحقيقة التي يقصد بها كل ماينجح عمليا . ويؤكد على أن كل مايحقق ماتريد الوصول اليه فهو حقيقي . وكان يقول جون لويس انه حقيقي لانه ثم يبدأ يعلـق على الاميريكيين وسياستهم وثقافتهم وأساليب حياتهم ونظرتهم نحو النجاح بل ونحو الحياة بعامة ، ذلك لان فلسفة « البراجماتيزم » هي نتاج ظـروف المجتمع الاميريكي . فهي منهم وأصبحت لهم . وكان الداعي لها بهذه الصيغة الفيلسوف « وليم جيمس » .

وأرجو أن يلاحظ القـارىء ان قراءاتي وخبراتي

الثقافية عندما كنت اعيش فى لندن فى تلك الفترة « فى خلال عام ١٩٥١ ومابعدها » لم تتخمنى ، بل على العكس اضاءت من حولى كل ماكان مظلما او بعض ماكان مظلما .
لم اكن احس الا بأن قنوات هذه الخبرات الاكاديمية وغير الاكاديمية ؛ المنتظمة وغير المنتظمة ، لها جسور تتصل بعضها ببعض . فقناة التاريخ متصلة بقناة الفلسفة وقناة الاقتصاد متصلة بقناة علم السياسة « الذى وجدت نفسى اقرأ فيه وخاصة ماتعلق بتاريخ اوروبا الحديث وكان من الموضوعات المحببة الى نفسى وتاريخ ايرلندا السياسى » ، وغيرها من القنوات مثل قناة علم المنطق وقناة العلم : نشأته ومنهجه . كل هذه القنوات وغيرها وحتى الاحاديث مع الاصدقاء المثقفين التى كنت اعتبر اجتماعى معهم وكأننى احضر حلقـــات دراســـية ، والمحاضرات العامة التى كنت أحرص على حضـــورها والمتاحف التى كنت أزورها بانتظام والافلام « الجيدة » التى كنت اشاهدها اسبوعيا والمسرحيات والحفـــلات الموسيقية ، وغير ذلك . . كانت كلها ثريات تضىء الطريق أمام المادة التى تفكر فى حياتى ولم تكن تتخمنى . واننى اتعمد ذكر لفظ « التخمة » لاننى واجهت موقفا وانا فى القاهرة عندما كنت وبعض الاصدقاء نجتمع لنتحـــدث ونتبادل الكتب ، فاذا بزميل كان هو الاستاذ « خالد محمد خالد » قبل ان ينشر كتابه « من هنـــا نبـــدأ » يقول فينا نحن الذين من حوله أنه أخذ يقرأ حتى اتخم من القراءة . ولم يعلق على كلامه احد . ذلك لان تجربة التخمة من القراءة لم يجربها واحد منا . وهنا فى لندن وأنا منذ الصباح الباكر حتى المساء المتـــأخر اعيش فى القراءة وانهل من ينابيع أخرى غير القراءة ولم احس

الا بصفاء الذهن وان كنت امارس القلق احيانا ولم احس ابدا الا بوضوح الرؤية وان كنت اعـــانى من الحيرة احيانا اخرى . ان العلم وهو احد مصادر المعرفة لا يمكن ان يكون مصدر التخمة « العقلية » . واذا كان العـلم مصدرا للمعرفة فالمعروف أن الدين والفن والفلســفة مصادر اخرى . ولعل خبراتي التى كنت انهلها وانا فى لندن فى هذه الحقبة من الزمان جاءت فى معظمها عن طريق استخدام المنهج العلمى ، ولعل صـــفاء ذهنى ووضوح الرؤية امامي يرجعان ، على الرغم من القلــق الذي كنت امارسه والحيرة التي كنت اعاني منها ، الى هذا المنهج الذى وجدت فى ذلك الحين وحتى قبل ذلك الحين أن لا سبيل لتقدم الانسان والجماعات والمجتمعات الا باستخدامه . فعن طريق هذا الاستخدام يســتطيع الانسان ان يفهم ماحوله ومن حوله فهما موضوعيـا . وفى ضوء هذا الفهم يستطيع الانسان أن يغير ماحوله ومن حوله الى مايمكن ان يكون أو الى مايجب أن يكون. والمشكلة التى تريد حلا كانت فى نظرى تفسير عبارتى « مايمكن أن يكون » و « مايجب ان يكون » . وقد بدت لى فى ذلك الحين أنها مشكلة المشاكل ، وان كنت أعتقد ، ولا ازال ان المشكلة الحقيقية هى اننا اذا كنا لا نعـرف المشكلة . فاذا ماعرفنا المشكلة تيسر التفكير فى حلها .

وبمناسبة ماذكرت عن مشاهدة « الحفلات الموسيقية» فانني أسجل ماحدث لى عنـدما جاءت « فرقة برلين الموسيقية القومية » الى لندن لاول مرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بأوزارها . انني كنت فى غرفتي بعد أن تناولت طعام العشاء فى نادى لندن للموسيقي الذى وان كنت قد تركته الى بيت مجـاور هو بيت « مســز

تريس » حرصا على الهدوء والسكينة والتفرغ للدراسة التى جئت من اجلها ، فاننى حرصت على تناول وجبات الطعام فيه ، وبخاصة وجبتى الغداء والعشاء . كنت فى غرفتى كما ذكرت بعد تناول وجبة العشاء فى النادى فاذا بأحدهم يحضر الى قائلا أن فرقة برلين ستبدأ حفلاتها بعد غد فقم معنا وأحمل « بطانية او اكثر » لاننا سنقف فى الطابور لحجز تذاكر حضور احدى حفلات الفرقة « وكانت ستمكث فى لندن ثلاثة ايام فقط » ، وسنكون جميعا أمام شباك حجز التذاكر منذ الآن وسنكون فى « الطابور » فى الشارع حتى يفتح الشباك فى الصباح ومن ثم نستطيع أن نحجز تذاكرنا والا فان الفرصة لحجز التذاكر ستضيع حتما ان لم نفعل ذلك . وكان أقتراح هذا الشخص غريبا غاية فى الغرابة . واثبت لى أن حرص الناس فى لندن على سماع الموسيقى ، المانية كانت او غير ذلك ، كان حرصا شديدا . وجازفت وذهبت مع « الشلة » ووجدنا الطابور قد ابتدأ فعلا وبدأ طوله يمتد بسرعة ، وجلسنا على البطاطين ، افترشنا الارض ، وكان غطاء الواحد منا بطانية اخرى او معطف والسماء . نام من نام من المنتظرين واستيقظ من استيقظ ، وكنت تسمع الاحاديث همسا . وكان من المتوقع أن يكون برد الليل شديدا فى لندن على الرغم من حلول فصل الربيع . ومع ذلك فقد صمد الحاضرون . وكان من حسن الطالع أن السماء لم تمطر . ومر الوقت ، الليل بطوله ، واستمتع الناس الحاضرون بالمغامرة ، وفتح الشباك فى الوقت المحدد وحجزنا تذاكرنا كما حجز الآخرون المحظوظون . وبقى العديد من الناس بدون تذاكر لانهم لم يستطيعوا

ان يحجزوا فقد امتد الطابور الاول وتفرعت منه طوابير اخرى وزاد عدد المنتظرين على عدد التذاكر المعروضة للبيع . كانت مغامرة جازفت بالقيام بها كتجربة انسانية واعتبرتها درسا لاينسى . وقد تأكد لى أن الموسيقى كلغة لاتفرق بين جنس وجنس او بين نوع ونوع ويفهمها الجميع ومن ثم فهى تجمع قلوب بنى البشر كما تسعدهم . كنا نستمع ونحن فى « الصالة » وغيرنا معنا او فى « البلكون » او فى « اللوج » وكأننا فى صلاة . كانت « الصالة » فى وجدان كل واحد فينا معبدا . وكان الحاضرون وان اختلفوا طبقيا أو ثقويا أو جنسا او نوعا يشعرون نفس المشاعر مشاعر الغبطة والارتفاع نحو الاعلى . وانا فى الواقع لم اغامر ولم اجازف ولكنى واجهت واقعا نبيلا وعشت تجربة لم تكن تتاح لى فى القاهرة إبدا . وانا لا اقول انني قد تعلمت شيئا ولكن أؤكد اننى « قد مارست تجربة تربوية » . اننى لم اسمع موعظة من المواعظ او درسا من الدروس أو رأيا من الآراء ، ولكنى وجدت نفسى وقد غرس فى شخصيتى اتجاه معين نحو قيمة معينة هى قيمة الفن فى شخص الموسيقى التى سمعتها او شاركت فى الاستماع لها من « فرقة برلين الموسيقية القومية » فى فصل الربيع عام ١٩٥١ فى مدينة لندن .

مرت شهور فبراير ومارس وابريل ومايو ، أربعة شهور من عام ١٩٥١ ، ولم استرح كما كان يجب على ان افعل . كنت فى عمل متواصل ، عمل فكرى متواصل وكان اصدقائى قليلين منهم شاب هندى واخوان شقيقان صينيان من اتباع « الصين الوطنية » صين « شيانج كاى شيك » ، وشاب ولد فى القاهرة وابوه مازال فيها يعمل فى مهنة الطب . والجميع يدرسون . وكنا نجتمع

لاننا كنا جيران . كان الشاب الذى ولد فى مصر يعيش فى بيت « مسز ايه » وكان الثلاثة الاخرون وانا نعيش فى بيت « مسز تريس » والبيتان متجاوران . واذا اجتمعنا كان الحديث حديثا عاديا . فقد كنا لا نفكر فى نفس الامور والاشياء . اى انه كان لا يجمعنا فكر معين بل كانت افكارنا متباعدة . وحتى الشاب الذى ولد فى مصر ويتحدث اللغة العربية بطلاقة « الخواجة » لم يكن يدعى بأنه مصرى . كان يعيش فى لندن تحت كنف « ام روحية » يهودية لانه هو نفسه يهودى . وقد زرت هذه السيدة بدعوة منه عندما ابلغنى أنها تريد ان ترانى . كانت سيدة عجوز وتسكن فى بيت كأنه القصر المنيف . ولم اذهب اليها الا مرة واحدة . عرفتنى وعرفتها ويبدو انها اطمأنت على ابنها الروحى وهو فى صحبتى . فقد كان ، على الرغم من انه يعيش مع مسز ايه « اليهودية » والتى لا يخلو بيتها من يهودى ، يحس بالغربة ويحاول ما استطاع أن يكون مع اصدقائى الآخرين . وقد مرضت ، ويبدو أن مرضى كان مرجعه الى الارهاق الشديد الذى كنت أمارسه دون ملل أو شكوى . مرضت ولم أنم ليلتى . وكان بجوارى من السكان أسرتان ، كل أسرة تعيش فى غرفة . وعلى الرغم من انينى وصراخى من الآلام التى عذبتنى لم يأبه بحالتى احد . وحتى مسز تريس لم تسمع شيئا . وبقيت على حالتى مريضا وحيدا حتى جاء الصباح ، وقد جاء متأخرا جدا ! فذكرت للسيدة التى تحمل طعام الافطار الى حجرتى ما الم بى واننى فى مسيس الحاجة الى طبيب . وجاءت مسز تريس لترى ماذا حدث لى ، وبدا لى انها اطمأنت بعض الشىء وابلغتنى بأن الطبيب « الممارس » سيحضر . وحضر الطبيب وطمأننى ووصف

الدواء الضروري وتركني وذهب دون ان يحصل على اجر مني . وهنا كانت شهامة الشاب الذي ولد في مصر وعاش فيها حتى سن الخامسة والعشرين . جاء الى واحضر الدواء ومعه الجرائد وبعض المجلات . ولانه كان يعاني الاغتراب ويحس كبشر بمن هم على شاكلته ، كان معي كريما . لقد دفعت له ثمن ماأحضر بالطبع . ولكنه كان ، كأي مصري ، يهتم بالسؤال عني حتى شفيت . وتذكرت جيراني كما تذكرت أصدقائي ولكنهم كانوا وكأن الحياة قد بلعتهم . وتذكرت أيضـــا ترى نيومان عندما سألني عن أحوالي ، فكان أول ماقلت انني لا اسمع تحية « صباح الخير » من احد من الجيران في البيت الذي اعيش فيه . واذا سمعت فانما اسمع الرد على هذه التحية التي تصدر عني دائما . وضحك الاستاذ نيومان كما اذكر وقال اننا نحن الانجليز لا نختلط بالغرباء بسرعة وانه يجب ان يكسر لوح الثلج اولا ، وكسر لوح الثلج هذا من واجبك انت . وقد تأكدت من هـــذا السلوك عندما صممت على ان لا ابدا تحية الصباح او تحية المساء لاحد من الجيران فلم اسمع من احد ردا . وقلت في نفسي انه على ان اكسر لوح الثلج كما قال مستر نيومان . I have to break the ice —

ويبدو أن مرضي كان مرجعه الى « المرارة » ، كان التهابا فيها كما يبدو ، وقد تطور هذا المرض في هـذا العضو من جسمي بمرور الزمن حتى اضطررت الى اجراء عملية جراحية لاستئصالها في مستقبل الايام . واذا كنت في ذلك الحين قد عزمت على ان ادفع رسوم الامتحـان الذي كان سيعقد في شهر يونيو عام ١٩٥١ ، فانني وجدت ان الوقت للاستعداد لهذا الامتحان كان قصيرا ، وقد زاد الطين بله الارهاق الذي ألم بي ، والمرض الذي

عانيت منه ، فعزمت على تأجيل الدخول في الامتحـان « شهر يونيو عام ١٩٥١ » حتى اكون صالحا فعلا لكي لا اصادف خيبة الامل . ولكني عزمت في الوقت نفسه على ان اتعلم الجديد من كل مصدر علمي او ثقافي او كان من تجارب الحياة وخبراتها . افعل ذلك في تؤدة على ان انتهز فرصة فترة الصيف فاذهب الي مـكان بعيد عن لندن . واختير لي ان اذهب الى « باريس » ومنها الى قرية « بوجيف » في « مقاطعـــة سـافوي العليا » .

وحزمت امتعتي وكنا في شهر يوليو عام ١٩٥١ وحجزت مقعدا في الطائرة الذاهبة الي « باريس » . وانا لم ار باريس من قبل . اي انني على وشك مواجهة تجـارب انسانية جديدة . ان حاجز اللغة قد يعيقني فانا لا اتقن الحديث باللغة الفرنسية . ولكن علمت بأن اللغةالانجليزية قد اصبحت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لغة عالمية ، وانني سأكون عند الفرنسيين شابا امريكيا ملونا اكثر مني شابا مصريا الا اذا رأوا « الباسبورت » الذي احمله والذي يؤكد مصريتي التي يبدو أنني اعتز أنا بها — في ضوء خبراتي في محيط ابناء الغرب — وحدي . وقد حدثت التجربة الاولى في باريس . في محطة السـكة الحديد ، حيث خصص شخص يتقن اللغة الانجليزية ليسر امور الذين يعرفونها ولا يعرفون التحدث باللغة الفرنسية وظن الناس من حولي أنني امريكي زنجي يميل لونه الى السمرة ، فأخذوني الى الرجل المذكور الذي طلب مني « الباسبورت » فرآه مصريا وبانت عـلامات الاشمئزاز على وجهه وحدس الناس ما استقر في ذهنه فتركوني وحدي معه . وقبل ان يجيب مطلبي طلب اجره الذي دفعته دون ما مساومة صاغرا . ومكثت في مدينة

باريس اياما ذقت فيها طعم الحياة لاول مرة بعد أن تركت مدينة لندن . رايت ان شهيتي للاكل قد زادت فالاكل الفرنسي غير الاكل الانجليزي . ولم تشم انفي رائحة « الكرنب » التي تجدها تقريبا في كل بيت من بيوت لندن . وكانت الحياة في باريس حياة مشرقة ، الجو الطبيعي كان مشرقا ، والجو الاجتماعي كان ايضا مشرقا . كان من حظي ان ذهبت لزيارة متحف «اللوفر» وبرزت امامي حضارة فرنسا الفنيه في هذا المتحف واضحة شامخة . لم اكن ، وربما حتى كتابة هذه السطور ، استطيع ان اتذوق الكثير مما رايت من لوحات خالدة . ولكنني احسست بان تيارا من الجمال كان يسري في كياني . واحسست ايضا ان وجداني كان وكانه في عرس . كنت وانا ازور متحف اللوفر وكانني اسبح في انوار تتلألأ فيها جواهر النفوس البشرية التي ابدعت ماأراه امامي بكل حواسي . كنت لا ارى بعيني فقط ، بل كنت ارى باذني كذلك ، بل كنت ارى بكل حواسي ومافوق الحواس . وعلى الرغم من التعب الذي سرى في جسمي من المشي في الطرقات ومن الوقوف امام اللوحات فلم احس به الا عندما عدت الى حيث أنام . واصبحت كما اتذكر تجربتي في اللوفر اقدر ابداع الانسان وارى ان قامته ـ على الرغم من الشرور التي تقع بسببه من اجل اطماعه التي لا تنتهي ـ في ارتفاع ان نتاج الانسان الفني عظيم عظيم ، وان نتاج الانسان العلمي عظيم عظيم ، على الرغم من كل شيء . ان الخطوات نحو التقدم والرفعة والرقي لا تنقطع . وكنت أقول ولا ازال ان الحياة تؤكد دائما انه كما ان « لا شيء ياتي من لاشيء » فانه « لا شيء مطلق » . الخير موجود والشر موجود وهما في صراع دائم . والتفاؤل موجود

وليذهب المتشائم منا الى اى متحف أو يمر امام اية جامعة أو كلية او مكتبة او اثر من الاثار او ليرى ابتسامة طفل او يسمع عصفورا يغرد فسيذهب تشاؤمه حتما بددا ويتأكد من انسانيته . وعلى ذكر العصفور فانني اصارح القارىء ان كتاب « توفيق الحكيم » « عصفور من الشرق » الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ، لم يكن من حظى ان اقرأه فى الوقت المناسب . وانا اقول الان لو انني كنت قرأت هذا الكتاب فى الوقت المناسب لكانت الدراسات العليا الفرنسية من نصيبى حتما . لم يكن من حظى ان اقرأ هذا الكتاب فى الوقت المناسب . قرأته بعد ذلك بعد ان عدت الى القاهرة فى المرة الثانية وترك بصماته الجذابة اللذيذة الجادة فى كيانى حتى الان . واذا كان حظى العاثر لم ييسر لى قراءة « عصفور من الشرق » فقد قرأت رواية « نجيب محفوظ » « زقاق المدق » بعد ان عدت من لندن فى المرة الاولى اى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . وجدتها على رصيف من ارصفة باعة الكتب واشتريتها بقروش قليلة على ماأذكر. ولم يكن نجيب محفوظ معروفا . ولعل هذه الرواية قد اسهمت فى ذكر اسمه بين الشباب القارىء فى القاهرة فى ذلك الحين ، وبخاصة فانها تبعت روايته « خان الخليلى » التى كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٦ فى حين ان رواية زقاق المدق كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٧ . وقد استهوتنى الرواية الاخيرة لعوامل عديدة ، منها أننى تذكرت طفولتي وأيام شبابى عندما كنت اعيش فى حى الخليفة . ومنها اننى تذكرت الكفاح المرير الذى خضته وأيام المعاناة التى عشتها « ولا ازال » كما تذكرت لحظات الانتصار . ومنها أننى تذكرت اقاربى وهم أناس بسطاء منهم كان البقال وبائع الخردوات والشباشبى والحلاق

والفطاطري والمنجد ، ومنهم كان الفـــران وخـــادم المسجد والعامل اليدوى ، ومنهم من كان يعمل في التدريس فى مدارس المرحلة الاولية . وكنت عنـدما اقلب صفحات رواية زقاق المدق قارئا اتذكـــر اننى فى كنف هؤلاء عشت طفولتي وشبابى . وانه اذا كانت لى طفولتي فانني لم احس مرحلة الشباب . كـانت مرحلة معاناة ، مات فى خلالها ابى ووجدت نفسى وحدى اواجه الحياة وتواجهني الحياة . وعلى الرغم من انني ثرت على حياتي الماضية ثورة عارمة ، فانني مازلت في ثورة عارمة مع حياتي الحالية . مازلت احارب ومازلت اعاني ومازلت اكافح الطبقة التي وضعني المجتمع فيها فى الوقت الحاضر ، او في الحقيقة الطبقة التى اخترتها وضعت انا نفسي فيها فى الوقت الحاضر . تذكـرت كل ذلك وغيره وانا اقرا رواية زقاق المدق . وكـان ابطال الرواية هم هم ابطال الحياة التى عشتها فى حي السيدة عائشة وفى حى البقلى مع اختلاف الاســماء وبعض الظروف والاحـــوال .واحسست ان الرواية تحتضني فاحتضنتها . وتأكد لى مرة ثانية وثالثـــة ورابعة .. الخ ، ان المصالح ، مصالح الناس كمـــا يرونها ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، اى ان كل او معظم مايصدر عنا من انماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك . وان اعقل الناس اعذرهم للناس . وان خير مانفعل ان نؤكـــد انسانية الانسان ، فالانسان هو أعظم من فى الحياة اذا كانت ظروف حياته مواتية والا فانه سيكون مصـــدر الشرور والآثام اذا كانت ظروف حياته غير مواتية . أى ان الانسان لا يمكن ان يكون وحشيا على الدوام .

ولم يكن متحف اللوفر قبلتى الوحيدة وانا فى مدينة

باريس في شهر يوليو عام ١٩٥١ ، ولكني ذهبت الى برج « ايفل » وتسلقته بالمصعد لا بقدمي ويدي . ونظرت الى باريس من عل ، ولا اقول استغفر الله وهي تحت قدامي ! كان منظرا مهيبا ملأت عيني ووجداني بالوانه واحجامه ومعالمه . كانت باريس نظيفة ولطيفة وجميلة ، وكان الناس يعيشون كأس حياتهم حتى الثمالة . وذهبت الى « الحي اللاتيني » واحسست بأنني « سمكة » تعيش في الماء . تسبح من هنا ومن هناك . وكنت مثلها اسبح لا بحسي ولكن بفكري وخيالي . لقد كانت حياتي في باريس قد نظفت من بعض الادران التي علقت بحياتي وانا في لندن . وكنت معذورا فان لندن على الرغم من وجودي بها فترة تزيد على ستة شهور كانت غريبة على . وقد احببتها بمرور الوقت وظللت أحبها حتى الان . وكانت لندن وظلت غريمة لمدينة « بوستن » ، عندما سافرت اليها بعد ذلك في اغسطس عام ١٩٥٣ ، فترة طويلة حتى اصبحت كلتا المدينتين عزيزتين على ولا تزالان . ومرت الايام القليلة وانا في باريس فاذا بي في قرية « بوجيف » في « مقاطعة سافوى العليا » . كانت قرية صغيرة اعظم مافيها مايحيط بها من معالم الطبيعة الرائعة . كانت قرية جبلية وتحيطها الجبال العالية الفخمة ومنها جبال الالب المشهورة التي كانت متوجة بالثلج الذي كان يعكس اشعة الشمس ويملأ الافق الوانا عديدة من كل لون تتخيله عينا بشر حساس . كان المناخ معقولا نقيا . والناس مثل اهل القرى في العالم ، كما يبدو ، بسطاء ، لهم آمالهم كما لهم آلامهم ولكنهم كانوا اقرب الى الفطرة . ومع ذلك فقد رأيت مااسترعى انتباهي واكد لي الفرق الشاسع بين ثقافة مجتمع وبين ثقافة مجتمع آخر . رأيت وكنت

اسير في احد شوارع القرية عربة يجرها حصـــان ، ويجلس فوق العربة سائقها وبجواره صبية صغيرة ربما كانت في الثالثة من عمرها او ربما كانت في الرابعة من عمرها . وكانت تضع على عينيها « نظارة طبية » وحاولت ان اتخيل الخطوات الجادة التى سبقت وضع هذه النظارة على عينى هذه الطفلة القروية من أهالى بوجيف فى مقاطعة سافوى العليا فى شهر يوليو عام ١٩٥١ . كيف حدث كل هذا ؟ وتذكرت توا ابنى احمد عندما حصل عـلى « شهادة الابتدائية » واردت أن الحقه بالجـــامعة الاميريكية بالقاهرة ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة من عمره ، وعندما اجتاز امتحان الكشف الطبى بالجامعة طلب منه صيانة لبصره ضرورة استخدام « نظـــارة طبية » . مرت اثنتا عشرة سنة او يزيد ولم يلاحظ احد هذه الضرورة لا الاب « الذى هو انا » ولا الام ولا الجده ولا المدرسة الاولية ولا المدرسة الابتدائية ولا أحد ، حتى اذا مافكرت فى الحاقه بالجامعة الاميريكية لكى يستكمل تعليمه فيها عرفنا الحقيقة . وهنا فى قرية من قـــرى فرنسا النائية اكتشف المسئولون ان طفلة فى سن الثالثة او ربما فى سن الرابعة من عمرها فى حاجة الى نظـارة طبية حتى تصون بصرها . وقلت لنفسى هنا الفـــرق الحقيقى بين ثقافة مجتمع وثقافة مجتمع آخـر . لهفى نفسى على اطفال مصرنا الخالدة وبخاصة الذين يعيشون فى قراها والذباب لا يبرح وجوههم منذ ان يستيقظوا فى الصباح الى ان يناموا فى المساء وربما فى اثناء النوم . ان الذباب كما كنت ارى يغطى قسمات الوجوه التى توجد فيها العيون والانوف والاذان والافواه . اننى تركت من ورائى تركة ثقيلة وجئت الى هنا فى بريطانيـــا وفى فرنسا لعلى ان ارجع الى مصرنا الخالدة لاعمل مع غيرى

عملا صالحا . وثقافة مجتمع مصر الحالي لا يمكن ان تكون ثقافة اصيلة . فهي عارضة مافي ذلك من شك . ويكفي ان نذكر ماحدث في اثناء الاستعمار التركي وماحدث بعده . عادت مصرنا الخالدة اصل كل حضارة الي الظلام الدامس . وعاش اهلوها .وكانهم يتفرجون ، عاشوا في بلادهم حياة الاغتراب . وظلوا في هذا الظـــلام حتى اذا مابدا وكان قبسا من النور قد أطل على العقول عن طريق ابنائها المخلصين من امثـــال رفاعة الطهطاوي وتلاميذه المخلصين ، فاذا بهذا القبس قد خبا ، واصبحت مصر مكبلة بالاستعمار الانجليزى الذى مازال فى ذلك الحين قائما . ان مصر عام ١٩١٩ حاولت أن تقتلـــع كابوس الاستعمار الانجليزى ولكن النجاح لعوامل عديدة لم يكن حليف المخلصين من أبنائها . وهانحن فى عام ١٩٥١ والحكومة المصرية القائمة تسعى جهدها لتحطيم معاهدة ١٩٣٦ التى وان لم يكن توقيعها شرا مطلقا ، فقد اصبحت فى ضوء ظروف العصر شرا وبيلا . ومنــذ اوائل عام ١٩٥٠ سعى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد الى بدء المفاوضات للتخلص من قيود الاستعمار الانجليزى الباقية ، فمعاهدة ١٩٣٦ لم تعد تشكل الاساس للعلاقات المصرية البريطانية . وكنا نقرأ فى الصحف عن جهود الدكتور صـــلاح الدين ، المصريون وانا ، قبل ان ابرح لندن الى بوجيف ، وكنا نعلم الكثير من المراوغات الانجليزية التى كانت تكتنف هذه المفاوضات ، وبخاصة عندما ســـافر الدكتـــور صلاح الدين الى لندن واجرى مباحثات مـــع وزير خارجية بريطانية « بيفين » فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٥٠ . ثم موقف « هربرت موريسون » الذى تولى منصب وزير خارجية بريطانيا وطلبه في شهر مارس عام

١٩٥١ مهلة للالمام بتفصيلات الموقف بين مصرنا الغاليــة وبريطانيا . وفى بوجيف قبل ان ابرحها الى باريس ثم الى لندن فى يوم ٣٠ يوليو عام ١٩٥١ ، قرأت وكنت وحدي وانا أفكر فى بعد الشقة بين ثقافة المجتمع المصري .وثقافة المجتمع الفرنسي عندما رايت الفتــاة الريفيــة وهي تستخدم « نظارة طبية » صيانة لبصرها ، قرأت خطاب موريسون فى مجلس العموم البريطاني الذي حدد فيه سياسة بريطانيا الخارجية وهاجم موقف الوفــد المصرى فى المفاوضات التى كانت تجرى مع الســـفير البريطانى فى القاهرة ، وقال موريسون مايعنى أن وفد مصر يغمض الطرف عن « حقائق اليوم » . وتأكدت فيما بيني وبين نفسي ان الضرورة تحتم على المصريين وانا منهم ان يتحركوا ويفعلوا شيئا من اجل مصر ضد الاستعمار المعوق للتقدم المنشود . ولم افكر فى موضوع هذا التحرك او هذا الفعل او نوع كل منهما . وبدت فى المســتقبل القريب فى اوائل شهر أكتوبر عام ١٩٥١ الخطوة الاولى بالغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب الحكومة المصــــرية . وتبعت هذه الخطوة خطوات اخرى جاءت تترى الواحدة بعد الاخرى فيما بعد . وكنت على الرغم من أهدافى العلمية ، كمصرى ، مضطرا لان اتابع مايحدث من حادثات سياسية فى مصر ، وفى بريطانيا ، وفى العالم وبخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية . لم أكن استطيع ان اتفادى هذه المتابعة فانا على الرغم من بعدى المكانى عن المجتمع المصرى مازلت احمل ثقافته على ظهرى . صحيح انني نتاج مصادر ثقافات عديدة او اصبحت ، فى ضــوء تاريخ مصر القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة ، نتاج المصادر الثقافية الفرعونية والفارسية واليونانيــة والرومانية والمسيحية والعربية الاسلامية وما جــاء

بعدها من مصادر سواء أكانت تركية او مملوكية او غربية . اى اننى كمصرى احمل معظم هذه الثقافات لانها ثقافات كانت فى الغالب قديمة ذات اصالة انبتتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المصرية ، او ثقافات لقبلتها الثقافات الاقدم منها ، وهى ايضا ثقافات مستمرة حتى الوقت الراهن . صحيح اننى اتحدث اللغة العربية ولكننى اتحدث فى عبارتها المئات بل الالاف من الالفاظ الفرعونية والقبطية . واساليب الحياة التى يعيشها المصريون وبخاصة ماتعلق منها بالميلاد وبالموت وبالافراح « الزواج مثلا » وبالاتراح « الحزن واساليب التعبير عنه مثلا » ، وماتعلق بالكثير مما ياكلون ومما يشربون والاعياد التى يحيونها ويمارسون فيها انواعا معينة من النشاطات وغير ذلك ـ اساليب حياة ، كلها ، كلها ، مصرية ، اى انها نتاج الثقافات العديدة التى عاشها المصريون اجيالا بعد اجيال .. اى ان الثنائية التى يتشدق بها البعض عندما يقال « الاصالة والمعاصرة » ثنائية غير ذات موضوع . فالمصرى مصرى لانه قديم متجدد وهو ايضا جديد وجذوره الثقافية لا تزال موغلة فى القدم .

ومع ذلك فانه اذا كانت الحياة اقوى من الموت ، وهذا صحيح ، فان دراساتى العليا فى لندن اقوى وابقى . فانا اعد نفسى للمستقبل الذى ارجو ان يكون لبلادى مشرقا . ورايتنى فى اوائل شهر اغسطس عام ١٩٥١ فى غرفتى فى بيت مسز تريس حيث اسكن اهيىء لنفسى السبيل لكى استانف دراساتى وخبراتى العلمية والثقافية ، التى عندما كنت فى اجازة بوجيف لم اتركها كلية ، ولكنى كنت احاول ان اجمع بين المتعتين المتعة التى تتصل بالاجازة اتصالا وثيقا ، والمتعة

الفكرية التى كنت أسعد بامتصاص رحيقها العذب رويدا رويداً ما استطعت الى ذلك سبيلا . كان معى كتاب « علم الاجتماع الاسلامى » ، وهو من جزئين . ومؤلفه هو « روبن ليفى » « طبعتا ١٩٣١ و ١٩٣٣ » ، وكنت اجلس الى هذا الكتاب الضخم الفخم ،واقرأ اموراً لم اكن قرأتها من قبل او كنت قد قرأتها من زاوية فكر متباينة ، كان الكتاب يتضمن موضوعات شتى . وقد بدأ بما يشبه المقدمة التاريخية عن الفتوحات ونزول القرآن الكريم وكيف نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وانتشار الاسلام فى عام ٧٥٠ وفى عام ١٠٥٠ ثم ماصار عليه حتى عام ١٩٢٩ . واوحت قراءتى لهذا الكتاب موضوعين لفتا نظرى وجعلانى استعمل تفكيرى استعمالا عميقا . وقف تفكيرى عند خطاب الله جل وعلا النبى صلى الله عليه وسلم فى الاية الكريمة « اقرأ باسم ربك الذى خلق » « ٩٦ ك العلق : ١ » ان وجود هذه الآية ربما يدل على ان النبى صلى الله عليه وسلم كان « يقرأ » فعلا والا لما خوطب بنفس نص الاية المشار اليها اذا كان لم يكن يعرف القراءة . وكان الموضوع الثانى الذى لفت نظرى يتعلق بترتيب سور القرآن الكريم وآياته ، ان القرآن الكريم لم يكتب وترتب اياته كما نزلت آية اية حتى يمكن للقارىء معرفة اسباب النزول وتناسقه وفقا لتسلسلها الزمنى . صحيح اننى اعرف عن كتب سجلت اسباب نزول العديد من آيات القرآن الكريم . ولكن الم يكن من التيسير على الفهم والادراك ان تكتب الآيات فى المصحف كما نزلت اى حسب ترتيب نزولها ؟ وذكرتنى هذه الملاحظة التى يمكن تجاوزها بما لاحظه « طه حسين » فى كتابه « الفتنة الكبرى » وهو يتحدث عن « سيدنا عثمان رضى الله عنه » عندما

طلب من القراء أن يكتبوا ماحفظوه من آيات قرآنية حتى لا يضيع القرآن الكريم من الصدور وبخاصة عندما راى ان الكثير من الحفاظ كانوا يستشهدون فى المعارك الاسلامية . فجاءه عدد من المصاحف المكتوبة اختار منها واحدا وأمر بحرق الباقي . وتمنى طه حسين ، بحق ، لو أن سيدنا عثمان رضى الله عنه مافعل ذلك ، اى ما احرق المصاحف التي أحرقها ، لانه لو كان قد ترك جميع المصاحف كما كانت لكانت الفرصة قد أتيحت للعلماء والباحثين ليدرسوا وينقبوا ويفيدوا اكثر واعظم . ولكن وجهة نظر سيدنا عثمان فى رأى الكثير كانت اصح ، فقد تفادى رضي الله عنه عن طريق احراق المصاحف التى امر باحراقها الفتنة التى ربما كانت قد تقوم بين المسلمين . لقد وحد المصحف بقصد توحيد كلمة المسلمين حتى يكونوا فيما يتعلق بالمصحف الكريم على قلب رجل واحد . ومهما يكن من الامر فان الموضوع الاخير قد شغل تفكيرى ولا يزال . ولعل الخبرة فيما اختاره الله جل وعلا . ان عقلى اصبح بعد مرور شهور لم تبلغ السنة يروح من هنا ويجيء من هناك . وكان هذا كما قلت سابقا يقلقنى . ولكنه كان ايضا يمتعنى . فالثقة فى النفس كانت تشد ازرى حتى لو أن الاتجاهات الفكرية والثقافية قد اعتورها التغيير . فانا كمسلم كنت ارى فى ذلك الحين كما يرى « عباس محمود العقاد » فى كتابه « التفكير فريضة اسلامية » ، ان « رسالة الدين ليست ضد رسالة المذاهب الفكرية . ان الدين يطلق للمذاهب الفكرية مجالها في المسائل المتجددة ، والمذاهب الفكرية ينبغى أن ترعى للدين حرمته فى المسائل الباقية . ان المذاهب تذهب والدين باق . قال الاسلام هذه الكلمة السواء . لانه لم يقرر أصلا من أصوله يحجر

على العقل تفكيره » . وبمرور الزمن رأيت أنه ، كما ذكرت من قبل ، ان من اهم مصادر المعرفة الانسانية الفن والدين والفلسفة والعلم ، ومن حق الانسان ان يرى ان « الدين السماوي » مصدر معرفة يحتاج الى الايمان الروحاني ، والمصادر الاخرى على الرغم من اتصالها بعضها ببعض واتصالها بالدين كمصدر من مصادر المعرفة الانسانية يستطيع ان يمارسها الانسان دون الحاجة الى نفس الايمان الروحاني الذي بدونه لا يكون الدين السماوي دينا سماويا .

وقد اثارت قراءتي لكتاب روبن ليفي بعض الشجون وبخاصة عندما تناول موضوع « الرق » ونظرة الدين الاسلامي نحوه وعندما تناول مكانة المراة في الاسلام . ان الدين الاسلامي كما أعرف وكما يعرف الجميع دين المساواة ودين الاخوة فى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٤٩ م الحجرات ١٣) . ومع ذلك نجد نظام الرق كان سائدا في عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقبل عهده وبعد عهده . ان العديد من آيات القرآن الكريم تؤكد وجود هذا النظام واباحته . قلت لنفسي ولم اكن سعيدا ابدا . صحيح ان تعاليم الدين الاسلام كانت تهدف دائما الى الحد من هذا النظام اللاانساني . ولكن هذه التعاليم لم تلغه او تحرمه تكريما للانسان فعلا وواقعا . « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر » « ١٧ ك الاسراء : ٧٠ » . لم انم ليالي عديدة لانني كنت حائرا حقا . وقدزادت حيرتي عندما علمت انه قد تم استصدار القوانين التى تحرم تجارة الرقيق فى بريطانيا منذ عام ١٨٠٧ ، فى حين ان هذه التجارة كانت رائجة فى المجتمع المصرى حتى قبل الاحتلال الانجليزى لمصر . انني وانا طفل كنت الاحظ سكاني

حارة من حوارى حي الخليفة هي « حارة الاكراد » ، وكان يسكنها اعضاء أسرة كان الناس يسمونهم «المماليك»! ورايت بعض اعضاء هذه الاسرة فقد تزوج أحد اعضائها واحدة من اخوات امي غير الشقيقات « خالتى زكية » . كنت ازور خالتي زكية مع امي وكنت اشعر على الرغم من صغر سنى بأن المناخ الثقافى الاجتماعى فى هذه الاسرة لايمكن أن يكون مصريا . كان اعضاء هذه الاسرة سيدتين وامهما وشقيقهما الذى تزوج خالتى وكان يعيش معهم بالطبع الابناء وكانوا كلهم ذكورا . وحارة الاكراد مازالت موجودة فى مكانها وهي قريبة من ضريح « السيدة سكينة » التى يقول عنها بعض المؤمنين انها « سكينة بنت الحسين ».

والملاحظ ان الرقيق قد الغى من مصر بمعاهدة مصرية انجليزية ابرمت فى سنة ١٨٧٧ — وتطبيقا لها صدر أمر عال من الخديوى ينص على فترة انتقال مدتها اثنتا عشرة سنة يسمح خلالها للاسر التى تملك جوارى او عبيدا ان تتاجر فيه مع غيرها . وكان يرى البعض من المصريين الموسرين او اتباعهم ان شراء الجوارى عمل عظيم « ذلك أن الموسر مثلا يبتاع جارية أو مملوكا أو عبدا فينقله من حالته التعيسة الى حالة سعيدة ، ويحسن تربيته ويقوم بكمال تهذيبه ويكسوه ويشبعه ، وبالجملة ينقذه من وهدة الشقاء الى أوج الراحة والرخاء ».

واذا كنت قد ذكرت خبرتى عن « حارة الاكراد » فان « هدي شعراوى » فى مذكراتها التى نشرتها لها دار الهلال وذكر فى المقدمة التى كتبتها « السيدة امينة السعيد » على انها مذكرات « رائدة المرأة العربية الحديثة » . وذكرت السيدة امينة فيما ذكرت ان مواطن

العظمة في هدى شعراوى انها كانت في شخصيتها تجمع المتناقضات فقد ولدت في فراش من ذهب ، ولكنها تنكرت للترف والدعة !! ـ تحدثت السيدة هدى في هذه المذكرات عن امها القوقازية وعن جدتها التى كانت ناصعة البياض وزرقاء العينين والتى لم تكن تستطيع التفاهم معها الا بالاشارة لجهل كل واحدة منهما بلغة الاخرى . وتحدثت ثانيا عن الاغانى الشركسية التي كانت جدتها تدللها بها والتى مازالت حتى وقت كتابة مذكراتها تحفظ الكثير منها . وتحدثت ثالثا عن «عنبر» العبد الحبشي « الساقي » الذي كان يخدم والدها وعن « لالا سعيد اغا » الذى اشتراه والدها صغيرا وعنى بتربيته وتعليمه ، وكان يحب والدها الى درجة العبادة ، ولما كبر وجه حبه الى اعضاء الاسرة . وتحدثت رابعا عن فتاتين لم تذكر عنهما الا انهما كانتا في سنها وكانت احداهما تركية والاخرى مصرية .

وانني اذ اكتب ما اذكره او اعلمه عن تجارة الرقيق اؤكد سعادتي بالغائها كما اؤكد شقائى بأن الذين بدأوا بالغائها كانوا من غير المسلمين .

اما موضوع مكانة المرأة فقد اعزتها تعاليم الاسلام كأم وكابنة وكأخت ولكنى في ضوء خبراتي وأنا في لندن لاحظت ان المراة كزوجة ارفع مكانة . فالزوجات لسن عوانا عند الازواج . وتوقفت حائرا كثيرا كثيرا عندما تذكرت الحديث الحسن الصحيح الذى رواه الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ومضمونه : « لو كنت آمرا احدا ان يسجد لاحد لامرت المراة ان تسجد لزوجها » . وعدت الى رشدي عندما تذكرت ايضا ان المقصود من هذا الحديث ان السجود لا يكون الا لله جل وعلا .

وفى لندن رايت الايام تجرى وتجرى معها من بين يدى النقود التى اقتنيها . وهانذا على أبواب دفع رسوم الامتحان الذى سيعقد فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . وعقدت النية على ان افعل ، واذا ماتم الامتحان بسلام أعود الى ارض الوطن لاجد فى الحصول على مورد يكفل لى ان اصرف على اسرتى الصغيرة وعلى نفسى . ولعلى ان اوفق فى الحصول على بعثة دراسية وهانذا قد اصبحت موظفا فى الحكومة ، وسييسر حصولى على البعثـــة الدراسية نجاحى فى الامتحان . كنت شخصا متفائلا الى الدرجة التى لا يصح ان اتجاوزها . وواجهت موعد الامتحان وكنت مستعدا . وقد ساعدتنى اجازة بوجيف على الصمود والاصرار على الاستذكار . وكنـت قـد اتممت دراستى فى الصحافة . وكانت كما ذكرت سابقا دراسة اكاديمية ، والعمل الصحفى مثـل العمل فى الميدان الاجتماعى يحتاج الى الممارسة الواقعية ، ولكنى لم أمارس الصحافة عمليا ولا واقعيا . كانت الدروس عن تاريخ الصحافة وكيف نشأت ، وكانت تهتم بالخبر وكيف يكتب فضلا عن ، وهذا هو الاهم ، كيف تعـرف مصادره . وكانت الدروس فى الصحافة ، وكلهـا بالمراسلة ، تهتم أيضا بكتابة « العمود » وبصـياغة « الروبرتاج » وحتى بصياغة « الاعلان » . وكـان بالضرورة فى ضوء المتوقع ان يكون نصيبى النجـاح والحصول على « الدبلوم » بعد زيارة الى أحدى الصحف الانجليزية لمدة يوم واحد وكانت ترافقنى آنسة سويدية تهوى الصحافة . وانا أذكر الآن ان الصحيفة التى زرتها كانت صحيفة « الديلى ميل » وهى احـدى الصحف التى كانت ، ولا تزال فيما اعلم ، تنـاصر

« حزب المحافظين » . وحملت الدبلوم تحت ابطى وانا اعلم قيمته الحقيقية . ولم افرح بالحصول عليه ولم احزن كذلك . وهو عندى فى اوراقى حتى الان وعندما اراه ابتسم ساخرا . فالعمل الصحفى لا يحتاج الى دبلوم ولكن مؤهلاته امور اخرى لا اجد أحدها عندى والا كان عملي الصحفي قد بدا منذ وقت مبكر جدا . انني الان في ذلك الحين منقطع للاستعداد للامتحان ، او أكاد ان اكون منقطعا لذلك . كل الوقت الذى لا اشغله فى الراحة او فى تناول الطعام للاستذكار . وحتى مقابلاتى قد قل عددها ، وذهابى الى دور السينما كاد ان يكون نادرا ، ومثل ذلك الحرص على الذهاب الى الاستماع الى المحاضرات العامة التى كانت جريدة « الديلى وركر » تنشر مواعيدها واماكن القائها . وكنت وحيدا وكانت وحدتى مؤلمة حقا ، ولكن انسى بالكتب ومؤلفيها كان يبدد الالم ويغرس فى نفسى الحاجة الى النظر الى المستقبل المشرق . ولقد تعودت على أن اهتدى بخطة اسير عليها . وكانت خطة قاسية . وانا لا انصح أحدا ان يقتدى بها . فالانسان اى انسان له طاقة محدودة . وهو كانسان لابد له من ان يجد ولابد له ايضا من ان يلهو . ولكن الظروف التى كانت تواجهنى فى ذلك الحين كانت تحتم على ان اكون جادا دائما ولا الهو . فالوقت يمر مر السحاب والنقود تقل من جيبى رويداً رويدا ، وأسرتي الصغيرة تعيش بعيدة عني وهى قريبة منى ، وقريبة منى وهى بعيدة عنى . وانا شخص على ضعفى أتحدى ستي واتحدى اعضاء جماعتى المرجعية والتحدى حاجز اللغة فى المجتمع الذى أعيش فيه وعند الامتحان الذى يجب ان اجتازه . واذا عادت الايام الى الوراء ما كنت أفعل ما كنت افعله في ذلك الحين . وكنت ولا ازال

اذا استنصحني احد تلاميذى الذين على وشك السفر فى بعثة دراسية احذره من ان يفعل ماكنت افعل . فالحياة عزيزة . وسلامة الصحة احسن من المال . وهى اعظم هدف يجب ان يحققه الانسان . وكنت انا لا ابالى الا بان احضر الامتحان وان اجتازه بنجاح . وكانت خبراتى التى تتعلق بصحتى سطحية . فأنا لم اذكر اننى مرضت فى حياتى مرضا جسيما . ومن ثم كانت سطحية الخبرات الصحية وبالا على فى مستقبل الايام .

وانا اذكر الآن عندما جاءت ليلة اليوم الاول فى الامتحان . اى الليلة التى سيبدأ الامتحان فى الساعة العاشرة صباح اليوم التالى لها . وكان يوم الاثنين . تناولت عشائى ، وجلست فترة من الوقت ، ثم تناولت الكتب والمذكرات الخاصة بالعلم الذى سيكون الامتحان فيه بعد ساعات وكان علم الاقتصاد . وقررت ان انظر فى المذكرات نظرة عابرة ، ويبدو ان الوقت مر بى دون ان ادرى . وعندما نظرت الى الساعة كانت الساعة الواحدة صباحا . فرأيت ان البس ملابس الخروج « القميص والبنطلون والحذاء وماتعلق بكل ذلك » ماعدا « الجاكتة » . ورأيت ان اضطجع قليلا وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا . فاضطجعت وما لبثت ان سمعت « آن الشغالة » تفتح باب حجرتى لتقوم بعملية تنظيفها وترتيبها كما تفعل يوميا فيما عدا أيام الآحاد . كانت آن تحضر فى الساعة العاشرة صباحا وعندما نظرت الى ساعتى وجدتها تشير الى الساعة العاشرة صباحا . وموعد الامتحان كان فى الساعة العاشرة صباحا . وانا هنا مازلت فى البيت . ولم ار نفسى الا وقد لبست الجاكتة بعد أن قفزت من سريرى ، ثم قفزت درجات السلم لاخرج مسرعا ، ووجدتنى فى الشارع اشير الى

« تاكسى » ليذهب بى حيث مكان الامتحان . كنت حيث يجب أن أكون بعد عشرين دقيقة اى فى الساعة العاشرة والثلث من صباح يوم الامتحان الاول . ودخلت الى القاعة ، ولما كنت قد دخلت القاعة قبل الساعة العاشرة والنصف لم يقف فى سبيل دخولى أحد من المشرفين على الامتحان . جلست على الكرسى المعد لى ووجدت ورقة اسئلة الامتحان ومعها ورقة الاجابة . ولم اكن قد تناولت وجبة الافطار ولا « فنجان القهوة » الذى كنت مغرما بتعاطيه فى الصباح ، ولم ادخن « سيجارة » او اكثر ليعتدل « مزاجى » كما كنت افعل عادة بعد كل وجبة طعام اتناولها . كنت هكذا . وسرحت بذهني الى الفترة الزمنية التى مرت على وانا نائم من الساعة الثانية صباحا حتى الساعة العاشرة صباحا والتي مرت وكأنني مافعلت سوى اننى اغمضت عيني ثم فتحتهما . مجرد ذلك . هذا ماكنت اشعر به . اغمضت عينى ثم فتحتهما فترة كلفتنى ثمانى ساعات وحرمتنى من تناول وجبة الافطار وما يستلزم ذلك . وتكفى لهفتى التى هزت كياني وكان سببها خشية حرمانى من الامتحان لتأخيرى عن أدائه فى وقته المحدد . كانت لهفة واية لهفة . وكان كل ماحدث لى تجربة ويالها من تجربة . وعادت لى رباطة جاشي بعد فترة من الزمن لا ادرى مداها ، وأحسست إننى رجعت الى بعض نفسى . وبدأت اجيب عن الاسئلة . وكان على ان اجيب عن اربعة اسئلة اختارها من ستة أسئلة مسجلة فى ورقة الامتحان . لم تكن الاسئلة صعبة ، ولكن المتحن الانجليزى اذا قال اربعة اسئلة فالاجابة يجب ان تكون عن اربعة اسئلة . ولا تكون عن ثلاثة او خمسة اسئلة مثلا . ان طلب المتحن طلب يجب ان يقدسه الطالب المتحن فلا يزيد

عليه ولا ينقص منه . ولكن الوقت الباقى لم يسعفنى الا للاجابة عن ثلاثة اسئلة فقط وليست عن أربعة أسئلة كما طلب الممتحن . كنت اعرف ذلك . ولكن ماحيلتى ؟ وكنت أمنى نفسى بأن اجاباتى كانت الى حد كبيرة اجابات سليمة . وعشت فى حلمى غــير اللذيذ حتى انتهى الامتحان من كل العلوم . وكانت العلوم اربعة وكان لكل علم ورقتان للاسئلة ورقة فى الصباح من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، والورقة الثانية مــن الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة السادسة مساء . كل يوم كانت المواعيد هكذا . اربعة ايام يوما بعــد آخر . وكان الممتحن الانجليزى لابد ان يرضى عن الاجابة ورضاؤه يعنى أن يستوعب الطالب كل المقرر ويتمثله كما كان يقول احدهم وكأن المعلومات عن هذا المقــرر قد اصبحت جزءا من دم الطالب الممتحن تجرى فى شرايينه مثلها مثل أصناف الطعام الذى ناكله فى وجباتنــا . وكان الذهاب يوميا صباح مساء يضايقنى حقا ، وكنت اعتبر هذا النظام نظاما لا انسانيا . ولكن ماحيلتى ؟ انتهى الامتحان وحمدت الله وبدأت اســتعد للعودة الى القاهرة . والكتب عندى كانت كثيرة كانت أضخم واثقل من ملابسى طبعا . وكان الامر يحتاج الى حجز تذكرة على احدى السفن حتى اطمئن على أمتعتى وبخاصــة كتبى التى كان بعضها لايمكن أن يجتاز جمرك المينــاء فهى فى نظر النظام المصرى القائم فى ذلك الحين كتب محرمة .

وكان من حظى أننى كنت أستطيع ان احجز تذكرة على سفينة الى « بور سعيد » أو الى « الاسكندرية » : ذلك لان تجربتى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ عنــدما أردت العودة ، حرمت من الحجز على سفن ، واضطررت

الى ركوب اول طائرة فى حياتى ، وكانت طائرة بلجيكية ، اضطرارا . فقد كانت الحكومة الانجليزية فى ذلك الحين ، اى فى عام ١٩٤٨ ، تواجه ثورة الملايو . كانت هذه الثورة ، وهى ثورة تحرير ، فى تلك الاونة ، على أشدها . ومن ثم جندت الحكومة الانجليزية لمواجهتها جميع البواخر والطائرات الانجليزية ، المدنية منهما والحربية ، لتحمل الجنود والضباط وكل انواع الذخائر المدمرة . وكان هدفها ، اى هدف الحكومة الانجليزية الذى لاهدف بعده ولا قبله ، هو تأديب ثوار الملايو ! وكانت الصحف الانجليزية تطلق على هؤلاء الثوار لقب « الرعاع » مثل مافعلت ذلك صحف الولايات المتحدة لثوار كوريا الشمالية ، وكما فعلت بالضرورة صحف فرنسا لثوار الهند الصينية وثوار الجزائر . وكانت البواخر والطائرات تحمل الجنود والضباط والعتاد من موانى المملكة المتحدة ومن مطاراتها عبر البحار والاجواء الى الملايو . اى من شمال غربى القارة الاوروبية الى جنوب شرقى قارة آسيا . واعتبرت الحكومة الانجليزية ارسال أبنائها للقتال واجبا وطنيا ساميا . أليس هو كما كانت تقول صحيفة « الديلى اكسبريس » وسيلة الى توطيد الاستعمار الانجليزى المنهار فى الملايو ؟ وليكن ارسال أبناء الانجليز هادفا الى الحرب وسفك الدماء فمن يهتم ؟ ولتكن هذه الدماء دماء ابناء الانجليز او دماء ثوار الملايو فمن يهتم مرة ثانية ؟ ولم يكتف الانجليز المستعمرون بارسال جنودهم وعتادهم وذخائرهم لقمع حركة ثوار الملايو ، ولكنهم فعلوا اشياء اخرى . فعلوا اشياء لا يفعلها الا تجار الحروب ومجرموها . فعلوا كما فعل « خورشيد باشا » الوالى التركى فى مصر وفى يوغسلافيا من قبل ، وكما فعل الاميريكيون ضد الهنود

الحمر لابادتهم وتحديد محل اقامتهم . فانا اذكــر من الاشياء التى فعلها الانجليز فى الحرب ضد ثوار الملايو الاحرار فى خلال عام ١٩٤٨ انهم استأجروا عديدا من رجال قبائل قاطعى الرءوس الآدمية المجاورين للمنطقة ، الذين كانوا يعيشون ، ولا يزالون ، حياة بدائيـــة ، ويكثرون فى ولاية « إسام » . وهم يمارسون قطــع الرءوس الادمية عن عقيدة ، وخصوصا رءوس الغــرباء عنهم . استأجرهم الانجليز المستعمرون نظير دفع ثمن بخس دراهم معدودات ، لكل راس من رءوس زعمـاء الملايو الثائرين ، خصوصا الذين كانوا يتخذون منهم من الجبال مقاما ووجاء .. أو من الغابات سكنا وحماية . وكان هؤلاء البدائيون القتلة يعملون فى الزعماء الابرار قتلا وتقتيلا ، مؤمنين بأن روح الانسان أى انســـان تسكن دائما فى الراس الآدمى . وهى اى الروح عبارة عن شيء يشبه الدمية الصغيرة ، وهذه الدمية مملوءة بمادة تشبه البخار . فاذا قطع الراس الآدمي انتشرت بالضرورة المادة البخارية فى الجو وامتصها الزرع فى الحقل وزادت الخصوبة فى الارض وفى الزرع الذى قد يأكل تمراته الانسان أو الحيوان . ومن ثم تصل الخصوبة بدورها الى الانسان اذا اكل القمح والى الحيــوان اذا أكل العشب .

واضطررت الى ركوب الطائرة لاول مرة فى حياتى لكى اعود الى القاهرة حيث توجد أسرتى الصغيرة ويوجـد موقع عملى . وكان موعد السفر يوم اربعاء كما اذكر ، وكان علي ان اكون فى المطار فى الساعة العاشرة مـن صباح هذا اليوم . واذكر اننى لم استطع النوم بسبب القلق الذى انتابنى . وتذكرت امي وزوجي وابنائى .. وكان هلعي شديدا كلما تذكرت موقف أمي اذا حدث لي

حادث اقصد اذا حدث للطائرة حادث وانا امتطيها . ولم انم الا بعد ان تواعدت مع نفسي واتخذت قرارا هو : انني في اثناء تسلقي درج سلم الطائرة سوف اقرا سورة « قل هو الله أحد » (١١٢ ك الاخلاص : ١-٤) ثلاث مرات . اطمأنت نفسي بعد هذا القرار ونمت وذهبت في الموعد المحدد وركبت الطائرة وقرأت سورة « قل هو الله احد » ثلاث مرات وانا اتسلق درج سلم الطائرة . لقد فعلت فى عام ١٩٤٨ ذلك ولم اكن ادرى ماذا كنت سأفعل فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ اذ واجهت نفس الموقف . ان ذهابى الى لندن فى عام ١٩٤٨ كان لفترة سبعة شهور تقريبا . اما فى المرة الثانية فقد كانت مدة اقامتى فى لندن ثمانية عشر شهرا تقريبا . فترة اطول . ولكن العبرة هنا ليست فى طول المدة او قصرها انما العبرة فيما حدث لى من تغيير فكرى . انني ارى وانا اكتب هذه السطور أن الفترة من الاسبوع الاول من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى أواخر الاسبوع الرابع من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، اى بالتحديد حتى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ يوم مبارحتي مدينة لندن الى ميناء دوفر ومنه الى ميناء كاليه فى فرنسا الى مدينة باريس ثم الى ميناء مرسيليا عن طريق القطار الذى نمت فيه ليلتى لآخذ السفينة التى تبرح ميناء مرسيليا فى ظهر يوم ١٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ومنه الى ميناء نابلى الذى وصلنا اليه فى يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ومن نابلى الى ميناء الاسكندرية « أرض الوطن العزيز » الذى هل علينا ورأينا معالمه وكان الجميع-مصريون وغير مصريين - فى لهفة الى النزول على البر بعد أن مكثت سفينتنا ساعات راسية بعيدة عن الشاطىء من غير ان يعلم احد من الركاب شيئا عما يحدث او حدث

بالتفصيل ـ ان هذه الفترة قد صنعت بي من التغيير ما جعلني شخصا آخر . انها الاساس الذي أقيم عليه كياني الفكري بعد ذلك . كانت فترة عصيبة فى حياتي وكانت فترة مرهقة لاعصابي وبعض اعضاء جسدي ، ولكنها كانت ايضا فترة ثمينة بذرت بذور الثقافة العالمية التي اينعت كل ما أصبح خصبا في اتجاهاتي نحو الحياة الانسانية . انها أكدت لى صغر قامتي كما أكدت امكانية ارتفاعها . كانت فترة لا تعدو الثمانية عشر شهرا ولكنها فى عمرى الزمنى كانت اطول واعمق واجدى من كل الفترات . لانها فى ضوء ماأكتسبت فى خلالها من خبرات كانت المرجع الاول لكل خبرة بعدها . انني كما ذكرت من قبل لم انفصم عن أصولى ولكنني تجددت. فمازلت مصريا اشعر بشعور المصريين تماما ولكنى كنت اعرف لماذا أفعل ذلك وماذا يجب على المصريين فى ضوء ظروف العصر ان يكونوا .

وقبل ان احجز تذكرة على السفينة التي تصل الي بورسعيد وجدت أن ما ادفعه سيكون اكثر اذا ما اخذت السفينة التي تصل الاسكندرية . كان الفرق عشرة جنيهات استرلينية . وكان هذا المبلغ فى ضوء ظروفى المالية مبلغا كبيرا . وكانت الكتب التي اقتنيتها ، وهي كتب ثمينة جدا ، همي الاكبر .. وبعت « الراديو » الذى كان يحمل ويعمل بتيار الكهرباء او بأحجار البطارية اى كان يعمل حيث يحمل . وبعت الآلة التى تدير الاسطوانات . وكان ثمن البيع ثمنا بخسا حقا . واخذت كتبي وحقائبي فى صباح يوم ١٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ الى ميناء الدوفر وركبت « اللنش » لكي اعبر بحر المانش الى ميناء كاليه . ومن كاليه أخذت القطار الى باريس وذهبت الى محطة السكة الحديد

لاشحن ثلاث حقائب ملآى بالكتب الى ميناء مرسيليا حتى تصل فى الصباح لكى أستلمها قبل ان تبرح السفينة الراسية فى ميناء مرسيليا بعد ساعات طوال . وانتظرت قطار باريس ـ مرسيليا لآخذه انام فيه ليلتى واكون فى الصباح فى مرسيليا حتى تتم الاجراءات واركب السفينة الذاهبة الى الاسكندرية عن طريق ميناء نابلي بسلام . ومن ثم أذهب الى بيتي واترك ورائى البيوت التي دخلتها أو عشت فيها فى لندن وفى ضاحية ولتش وفى مدينة كارديف وفى ميناء هل وفى مدينة باريس وفي قرية بوجيف . وتكون مسز برميكوم ومسز بوينر ومسز كروس ومسز آرمسترونج ومسز تريس ومدام جانيت وغيرهن اشخاصا اذا ذكرتهن اذكر مايعشن من اجله ، ليس كل مايعشن من اجله بالطبع ، واذكر ملامح كل واحدة منهن عندما كانت تتقاضى الاجرة منى او عندما كان يعن لها ان تطلب زيادة فيما ادفع لاننى احمل تيار الكهرباء ما لا طاقة له به بسبب السهر فى الاستذكار او بسبب استعمال جهاز الراديو . وسأذكر عتاب مسز تريس عندما ارسلت « بطاقة » التهنئة بعيد « الكريسماس » بعد موعده كما كنا زملائى وانا نفعل ذلك فى أعيادنا فى القاهرة . كنت وزملائى نتبادل بطاقات التهنئة بأعيادنا بعد أن تنتهى الاعياد وليس قبلها . وكان عتاب مسز تريس درسا لى ، وبدأت من بعده ارسل بطاقات التهنئة قبل الاعياد وان تلقيت الكثير منها بعدها .

وفى طريقى من لندن حتى غادرت السفينة ميناء مرسيليا حدث لى نفس مايحدث عادة لاجنبى شرقى . كانت منغصات لاداعى لحدوثها ، وكنت أكظم غيظى أمام من يحدثها وانا ساخر . ان المسئول على استلام

الباسبورتات على اللنش الذى سيعبر بحر المانش ،
وكان فرنسيا ، عندما راى ان الباسبورت الذى اعطيته
له بناء على طلبه مصرى ، وكـــــان أمامه عامود من
الباسبورتات طويل لانه كان يضع كل باسبورت يأخذه
ممن كان واقفا فى « الطابور » قبلى فوق الباسبورت
الذى استلمه من قبل وهكذا . أما الباسبورت الذى
ناولته له فقد كان مصريا فوضعه فى آخر ماجمع من
باسبورتات . عرف أنه باسبورت مصرى ، وان الجزائر
فى ذلك الحين فى ثورة ضد الاستعمار الفرنسى وان
المصريين قاطبة يؤيدون الثوار الجزائريين .. ففعل
المسئول الفرنسى مافعل انتقاما كما بدا لى . وعندما
فعل مافعل هززت كتفى ساخرا . وفى محطة باريس
ظن البعض لاننى كنت اتحدث باللغة الانجليزية أننى
امريكى زنجي ، ولما عرفوا اننى مصرى تغيرت ملامح
الوجوه وساءت المعاملة الى الدرجة التى كنت على وشك
ان لا الحق بالقطار الذاهب الى مرسيليا . وذهبت الى
مرسيليا بعد ليلة طويلة قضيتها فى القطار . كان
نومى متقطعا . ولكنى لم أبال لان عينى كانتــــا على
حقائبى . فكنت انام لاصحو وكنت اصحو لانام حتى
وصلنا الى مرسيليا . واسأل على حقائب الكتب فقيل
لى انها لم تحضر وستحضر غدا . ونصحت بأن اذهب
الى « شركة كوك » لتتولى هى مسئولية الاستلام ثم
الشحن حسب العنوان فى القاهرة . وذهبت الى الشركة
واستلم المسئول الاوراق الدالة على ما لى من حقـائب
وطلب مفتاح كل حقيبة حتى يسهل خروجها من الجمارك
وطلب ايضا مايوازى خمسة عشر جنيها مصريا ، وكان
كل مافى جيبى عشرة جنيهات فقط رأيت ان اعطيه منها
ثمانية لابقى الجنيهين فربما احتاج اليهما وانا فى طريقى

الى القاهرة ومنها الى بيتى . كانت فترة حـرجة وسخطت على نفسى ، فقد دفعت من النقود والمعاناه حتى الآن ماكان يوازى النقود والمعاناة التى كنت سادفعها لو انني ركبت احدى السفن الذاهبة الى بور سعيد . وسادفع كما ذكر لى مسئول شركة كوك نقودا اخرى عند استلام حقائب الكتب من مدينة الاسكندرية . وزاد سخطى انى دفعت أيضا من كرامتى امام أشخاص بسبب الجهل بالحياة الانسانية كان أسلوب معاملتهم لى مشوبا بالتعصب البغيض . اننى اعذر هؤلاء ولكنى لا اعذر نفسى ، فقد تعلمت الدرس من قبل وصحيح ان اساليب التعصب اساليب متغيرة ، لان الناس متباينون ، ومن حقهم ان يتباينوا . فكان على ان اعلم ذلك ، ومن ثم فاننى ارى أنهم من اجل ذلك يعذرون ولكنى لا اعذر نفسى . وتذكرت متحف اللوفر وعظمته وخلود من خلقوا روعته وجماله ورايت راسى ينحنى اجلالا ، وسرعان مانسيت كل ماهو قبيح . الوجه القبيح الفرنسى او اى وجه قبيح غربي .

ومرت ايام اربعة فاذا بنا فى « ميناء نابلى » ، كان اليوم يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وجاء ركاب جدد بعد ان ترك السفينة بعض الركاب الذين امتطوها فى مرسيليا وكان من بين الركاب الجدد مصريون يتحدثون باللغة العربية بصوت عال عن قيام ثورة فى مصر . ومنهم من كان يذكر انه سمع ذلك فى الاذاعة قبل ان يركب السفينة ، ومنهم من كان يتطوع بذكر العكس . وتأكدنا جميعا بقيام الثورة من راديو السفينة وكانت الاذاعة تبث باللغة الفرنسية احيانا وباللغة الانجليزية احيانا اخرى . واتخذت مكانا بالقرب من بعض المصريين لكى اسمع مايقولون وسرعان ماذبت فيهم .

لقد كانوا اناسا شتى . فيهم من الشباب ومن الكهول ومن النوعين . وكان بعضهم على علاقة مابعض ، وكان الاكثر غرباء ولكن الحادثة الكبرى قد جمعتهم . وسمعت ضمن ماسمعت ولم اكن اعلم عن الانتخابات التى جرت في نادي ضباط الجيش وعن « اللواء محمد نجيب » والتحدى الذى قام به الضباط ضــــد الملك فاروق وحاشيته ، وأشياء عديدة اخرى . وعضضت على البنان لانني بعت الراديو الذى كنت أملكه قبل ان ابارح مدينة لندن بيوم واحد ، وقلت ليت ذلك ماحدث ، وكنت ومعى الاخرون الان سمع مايحدث الان في بلادنا بكل اللغات ومنها اللغة العربية فعنها تأخذ الاذاعــات الاجنبية . ولكن « كلمة ياريت » كما تقول الاغنيــة « ماتعمر بيت » وتذكرت الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد ومجهوداته في سبيل تعديل معاهدة ١٩٣٦ منذ عام ١٩٥٠ حتى تكون مصرنا الخالدة مستقلة استقلالا حقيقيا ، فكان قد تفاوض مع « بيفن » وزير خارجية بريطانيا في مدينة لندن فى يوم ٤ من شــــهر ديسمبر عام ١٩٥٠ ، واستمر يفاوض بعد ان حــــل محل بيفن « موريسون » ، وتذكرت موقف الاخير المراوغ ومحاولة مراجعته . والحادثات التى مرت بمصر أخذت تتداعى في ذهنى . الغاء المعاهدة حريق القاهرة ، اقالة وزارة الوفد ، وانفجارات العنف فى مدينتي بور ســــعيد والسويس ، وامر الحكومة « الوفدية » العمال المصريين الذين يعملون فى المعسكرات البريطانية بترك العمل وطلبها الى المقاولين الذين يتعاملون مع الجيش البريطانى الذى يحتل منطقة القتال فسخ العقود .. وغير ذلك مــــن الحادثات التي تدل على ماوصلت اليه البلاد من ظروف تدعو الى القيام بالثورة واهمها حرب فلسطين والاسلحة

الفاسدة التي خاض بها جنود وضباط الجيش المصري هذه الحرب . وقامت الثورة في يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وهاانذا مع غيري من المصريين وغير المصريين في عرض البحر نخوض الامواج لكي نصل الي ارض الوطن . ولكن امورا اخرى تتعلق بالدكتور صلاح الدين كانت قد شغلت بالي . فقد كان الدكتور صلاح كما يعلم القارىء رئيس الهيئة التنفيذية التي كانت تشرف على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وكان اتصالي به بحكم انني كنت مدير هذا المكتب اتصالا وثيقا . رايت فيه الانسان الكريم ذا الاخلاق العالية جدا الرفيعة جدا . وله عندي من الذكريات مايسعدني حقا ويدلل على اريحيته وفضله وكرمه . ويذكر القارىء موقفه من الدكتور عوض عندما وقف الاخير في سبيل اعطائي قرضا اشترى به ملابس استعدادا للسفر الى لندن لاول مرة في فبراير عام ١٩٤٨ ، ويذكر القارىء موقفا من زاهية مرزوق عندما وقفت بوصفها امين صندوق مؤقت للجمعيه المصرية للدراسات الاجتماعية في سبيل منحي هذا القرض بحجة عدم وجود بند في الميزانية يسمح بالصرف . وانا اذكر ايضا موقفا لايمكن ان يقوم به الا رجل مثل الدكتور صلاح الدين . كان ذلك في عام ١٩٤٩ وقد عقد اول مؤتمر للخدمة الاجتماعية العربية في مبنى اليونسكو بمدينة بيروت . كان يسمى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » . وكان على الدكتور صلاح ان يقدم ورقة عمل عن الاحداث الجانحين وقد اعددت هذه الورقة بالاشتراك مع السيد المستشار محمد فتحي والاستاذ فتح الله المرصفي تحت اشراف الدكتور صلاح . وذهبت اليه في بيته وقرات عليه الورقة كلمة كلمة وقام بالتعديلات التي رآها وقامت

ادارة المكتب بنسخها وارسالها اليه ألتى أرسلها بدوره الى ادارة المؤتمر الذى كان مقرره الدكتور عباس عمار . وجاءت اللحظة التى يقرأ الدكتور صلاح ورقته فبدأها بالشكر الجزيل لكل من اسهم فى أعدادها وذكر الاسماء واحدا واحدا المستشار محمد فتحى والاستاذ فتح الله المرصفى والاستاذ سيد عويس . وكنت الوحيد الذى كان حاضرا لاننى كنت قد دعيت الى الحضور مع احد الزملاء ممثلين للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية . وعندما انتهى الدكتور صلاح اصطحبته كما عودنى لكى نأكل « بسبوسة » في محل مشهور فى مدينة بيروت . وذهبت معه فى سيارة معدة خصيصا لتنقلاته وكان يسوقها سائق لبنانى . ودخلنا المحل المشهور وامر بثلاثة صحون بسبوسة أكلناها السائق وهو وانا جميعا . وانتهزت الفرصة ونحن فى محل الحلويات وتحدثت عن الورقة التى القاها فى المؤتمر ورد فعل الحاضرين وبخاصة عندما ذكر أسماء الذين اسهموا فى اعدادها فقال : « يا اخى انا مالى بالخدمة الاجتماعية انا راجل مهتم بالسياسة » . قال ذلك مجاملة بالطبع فهو يعلم قطعا الاتصال الوثيق بين السياسة والمسائل الاجتماعية . ولا يمكن الا أن اذكر عندما ذكر اسمى والتفات الحاضرين نحو المقعد الذى اجلس اليه واحمرار وجهى والعرق الذى تصبب من جبهتى . ونظرات الناس ويالها من نظرات . وذكرياتى مع الدكتور صلاح التى لا صلة لها بالعمل فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث كثيرة واختم بها عندما اتيحت لى الفرصة لاكون عضوا من أعضاء فوج الرواد فى مصيف الاسكندرية فى صيف عام ١٩٤٦ . كان معسكر الرواد معدا لبعض الرواد واعضاء اسرهم

من زوجات وابناء ، كما كان معدا للعديد من طلبة الجامعة ، وقد دعيت مع آخرين لاشترك في هذا المعسكر وكانت سنى قد بلغت ٣٤ عاما ! وكانت المرة الاولى فى حياتى التى اذهب فيها الى مصيف . وكانت فترة الاقامة للفوج الذي اشتركت فيه اسبوعين . وكانت متعتى الذهنية توازى ان لم تفوق متعتى الجسدية . كان يضم المعسكر من الاساتذة فضلا عن الدكتور عباس عمار الدكتور سليمان حزين والاستاذ فؤاد جلال والاستاذ حنا رزق . وكان يحضر الدكتور محمد صلاح الدين فى الامسيات ليحيى أو يشترك فى حفلات السمر ولا غرو اذا كنت تراه وهو فى حياته العادية شخصا تشع من نفسه وفى سلوكه آثار التذوق الفنى وعشقه للجمال والاناقة ، وينعكس ذلك فى ملبسه وفى حديثه وفى آرائه وفى اتجاهاته وقبل ذلك وليس بعده فى حبه الاصيل لمصرنا الخالدة . وفى المعسكر كان من حظى بل من حظ اعضائه جميعا ان يحاضرنا بعض المفكرين المصريين مرة او مرتين فى الاسبوع ، محاضرة عامة ، وكان الاستاذ « احمد امين » الذى عرفته من كتبه ومن مقالاته فى « مجلة الثقافة » احد المحاضرين . واننى اذكر ان موضوع محاضرته كان عن « تعقيل العمل الاجتماعى » وكان يدور حول روح العصر « عام ١٩٤٦ » وما تتطلبه هذه الروح من الافادة من تطبيق المنهج العلمى فى مواجهة المشاكل الاجتماعية التى كان ، ولا يزال ، ينوء بها المجتمع المصرى . ومن ثم فالعمل الاجتماعى لابد أن يكون على اسس موضوعية تتضمن سياسة اجتماعية التى تتضمن بدورها الاهداف والوسائل التى تحققها حتى نعرف الاولويات ونستطيع التخطيط من اجل مواجهتها . كانت فرصة لى لان استمع لمؤلف كتب فجر

الاسلام وظهر الاسلام وزعماء الإصلاح فى العصر الحديث وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، والذي كما تقول سيرته انه ولد في « حارة الميادية » وعاش صباه وبعض شبابه فيها . وهي احدى الحوارى المتفرعة من شارع البقلي بقسم الخليفة ، نفس القسم الذي ولدت وعشت صباي وشبابي فيه .

وراحت الذكريات تروح وتجيء . وفجأة تذكرت الاستاذ « دانيال برسوم » الذى كان رئيسا لقلم التوريدات بمصلحة الحدود ، تذكرته الان وانا على السفينة الذاهبة الي ميناء الاسكندرية وتذكرته قبل ذلك عندما قرأت خبر نعيه في جريدة الاهرام وانا فى مدينة لندن . كان وقع الخبر اليما على نفسى . لان طموحات هذا الرجل لم تكن لها حدود ، واين هو الان واين هذه الطموحات ؟ واخذ المستقبل يداعب خيالى مستقبل مصرنا الخالدة قبل مستقبلى . ماذا سيحدث ياترى ؟ انني مع نجاح الثورة واستقرارها من أجل المستقبل المشرق . وهأنذا استمع الي الاذاعة واسمع ويسمع معى من على السفينة من المصريين اسماء الذين ايدوا الثورة وكان اعضاء هيئة التدريس فى جامعة الاسكندرية على رأسهم . ومع أننى سمعت خفقان قلبى من اجلهم ولكنه سرعان ماتجلد . كنت أؤمن بمصرنا الخالدة ايمانا راسخا . وتأكدت فى ضوء بعض ماقرأت عنها فى كتب التاريخ انه على الرغم من الاستعمار المستمر منذ عام ٥٢٥ ق . م وحتى الان « عام ١٩٥٢ » فان المجتمع المصرى استمر وبقى . مازالت مصرنا الخالدة على خريطة الدنيا . كانت بحق مقبرة الغزاة . وبقى شعبها الاصيل يؤدى أدوارا تتفق مع ظروف كل عصر وكل موقف اجتماعى فى حياته اليومية . فقد يقف موقف المتفرج احيانا ، وقد ينافق احيانا

اخرى وقد يسخر من نفسه أو من حكامه ومن فى حكمهم احيانا ثالثة ، وتراه صابرا الوانا من الصبر التى تنوء بحملها الجبال ، وفى موقف آخر تجده يستغرق فى التدين وجاء وعزاء ، وربما كان الدعاء على الظالم تنفسا عن صدور ابنائه ، وتجد فى حقبة اخرى هذا الشعب متمردا يعصي ما يؤمر به ويرتكب ماتراه قوانين المستعمر او الظالم جرائم ، وفى التاريخ نجد الثورات المصرية فى نطاقها الضيق احيانا وفى نطاقها الواسع الذى يشمل المجتمع احيانا اخرى ، كما نجد حروب التحرر وحروب الغزو والانتصار . وكنت وانا على مقربة من ميناء الاسكندرية اسأل نفسى واسائلها ماذا ينتظر شعبنا المصرى من مصير ؟ هل ماحدث مجرد حركة جيش للحصول على ترقيات ؟ هل ماحدث مجرد انقلاب كالذى قام به حسنى الزعيم من قبل ؟ هل ماحدث هو فعلا امتداد لمبادىء مصطفى كامل ومحمد فريد او لثورة ١٩١٩ او تصحيح للثورة العرابية ؟ هل وراء ما حدث قوة اجنبية ؟ كان الناس من حولى يقولون « انها ثورة » وكان الدليل عندهم أن فاروق أمر بالخروج ليذهب بلا رجعة الى المنفى الذى يختاره . لقد تأكدت من هذا الامر فقد احسست كما احس ركاب السفينة بوقوفها، وكنا نرى معالم الاسكندرية على بعد وعندما جاءنا فى احد القوارب رجال الجمارك ابلغونا اننا سنقف حتى الساعة السادسة مساء موعد خروج فاروق فى يخته « المحروسة » الى المجهول . وحدث هذا فعلا ورأينا اليخت يسير بجوارنا وفاروق واقف فى احد اركانه وكأنه ينظر الى لا شىء . ومن الغريب أننى وجدت شخصا فى الخمسين من عمره وربما اكثر من ذلك وهو يرفع يده تحية عندما مر اليخت بجوار السفينة . كان

مصريا مافى ذلك من شك . وانا أسائل نفسى منذ لحظة رؤيتى يده مرفوعة واصابعها الخمسة مضمومة الى جبهته محييا لماذا فعل هذا الرجل مافعل . ان فاروق لم يره حتما لانه كان فى ضوء الظروف التى عاشها وعاناها منذ يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ حتى يوم طرده من البلاد ، لم يكن ليرى الا المجهول . وقد بدا لى أن الرجل كان يعرف ذلك حتما فهو فى ضوء مايتحلى من ملابس وسمات انسانية يبدو مدركا لما فعل . وقد فعل مافعل ومن حوله يرونه . هل كان مصدر ما فعله هذا الرجل لونا من الولاء أو هل كان توقعا لفشل القائمين على ماثاروا عليه ، أو هل كان تعبيرا للقول السائد « من فات قديمه تاه » ! لم ادر الاجابة عن هذه الاسئلة فى ذلك الحين ولا ادرى حتى كتابة هذه السطور .

ثم عدت الى نتائج رحلتى منذ شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، اى فى خلال فترة ثمانية عشر شهرا وانا فى المجتمع الغربى احاول ان امتص رحيق ثقافته المنتظمة « الاكاديمية » وغير المنتظمة « كل عناصر الثقافة الاخرى التى صادفتنى وصادفتها » . لقد كانت هناك نتائج مافى ذلك من شك . وقد ذكرت من قبل الكثير منها . ويكفينى اننى أتقنت اللغة الانجليزية قراءة وكتابة ، واننى اتصلت ببعض الاساتذة الانجليز ، واننى تتلمذت على أستاذى البروفسور جون لويس . واننى تذوقت الوانا من الفن « فن الموسيقى والفن التشكيلى مثلا » . واننى قد وجدت الفرصة مواتية لاهتم بعلم التاريخ وبعلم الاقتصاد ، وبخاصة مايتعلق بتاريخ بلادى بعامة وتاريخها السياسى والاقتصادى والاجتماعى الحديث بخاصة . واننى قد صححت الكثير من معلوماتى وواجهت

القلق الفكرى فى ضوء تنشئتى الاجتماعية والمصـــادر الثقافية المكتوبة وغير المكتوبة التى زودت ثقافتى قبـــل ان ازمع السفر الى الغرب لا لاغترب فحسب بل لأتقرب ثقافيا أيضا . اى اضيف الى عناصر ثقافتى عنـــاصر الثقافة الغربية او بعضها . انني لم افعل الكثير ممـــا كنت اروم وابتغى . فالفترة التى قضيتها كانت قصيرة جدا فى حياة المرء العادى ، او حتى غير العادى ، ولكنى اعترف بأننى فعلت مايشبه المستحيل لكى اغترف مـــن مناهل الثقافة الغربية . لم اضيع وقتى هباء . ولكنى احسست بأن قامتى لم ترتفع ارتفاع قامة الدكتور عوض او قامة الدكتور حـــزين . وقد قابلت الدكتور حـــزين ليس فقط فى معسكر الرواد فى صيف عام ١٩٤٦ فى الاسكندرية ، ولكنى قابلته محاضرا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ببيروت فى عام ١٩٤٩ فى موضوع « خطط الاصلاح الاجتماعى والاوضـــــاع التاريخية والثقافية فى الشرق العربى » . وكـــانت محاضرته قيمة . خرجت من القاعة بعد انتهائهـــا شخصا آخر . وكان من اهم آثار هذه المحاضرة على تفكيرى أن اتجهت وأنا فى لندن الى دراسة « عـــلم الانثروبولوجيا » كهواية تماما كما هويت دراسة « علم الفلك » ومحاولة فهم الظاهرة الفلكية . لقد وجهتنى محاضرة الدكتور حزين نحو دراسة ثقافة بلادى . وكانت المعلومات التى علقت فى ذهنى منها كلها جديدة على . اننى لم اكن اعرف مثلا ان المجتمع المصرى كما اخـــذ من الثقافات الاخرى فقد اعطى ، وان ما اخذته مصرنا الخالدة لم يمس الاصيل الذى عندها فى قليل أو كثير بل بقى الاخير مع غيره عبر الازمان جنبا الى جنب . ولكن محاضرة الدكتور حزين عرفتنى ذلك وغيره كثير ، ان

اهم مايسرت لي محاضرة الدكتور سليمان حزين التي القاها في مؤتمر بيروت في عام ١٩٤٩ في مبنى اليونسكو، كان ولايزال ، خلق الاهتمام الرشيد بالمجتمع المصرى . لقد اكدت هذه المحاضرة ماوصلت اليه من تجسارب اجتماعية وبخاصة عندما اتيحت لي الفرصة وانا طالب بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة في خريف عام ١٩٣٨ لكى أدرس حالة احد الاحداث المتهمين في احدى الجرائم ، وعندها ايقنت بعد اتمام دراسة هذه الحالة بان المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم او هو موسوعة اجتماعية لا اول لها ولا آخر .

وفجأةوانا على هذه الحال استدعي الذكريات وتستدعيني الذكريات ، واحاسب نفسي وتحاسبني نفسي ، واتذكر الايام التى كانت والايام التى ستكون ـ تذكرت فجأة كتبى التى هى الآن تحت رعاية « شركة كوك » . انها كتب عديدة وثمينة . فيها كتب فلسفية ، وكتب تاريخية ، وكتب اجتماعية ، وكتب اقتصادية ، وكتب تهتم بالفنون وغيرها وغيرها . وفى حقائب هذه الكتب مذكراتى التى كتبتها وانا الخص ما اقرأ او التى كنت اكتبها فى اثناء المحاضرات . ومن الكتب ما قد يبدو دخوله الى البلاد فى ذلك الحين محرما مثل كتب ماركس وانجلز ولينين وستالين وجون لويس وكتاب ولفرد بلنت عن التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر، وبعض المجلات وقصاصات المقالات وغيرها وغيرها . ولكنى كنت متفائلا . فقد عبأت هذه الكتب وغيرها من « الممنوعات » وانا فى لندن قبل ان يطاح بالنظام المصرى فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . فلعل الظروف ان تتغير وان يحدث ، كما حدث وأن كان متوقعا ، ماليس فى الحسبان . ان كتبى التى أحضرتها

معي من لندن كانت ومازالت حياتي . انني لا ادعي انني قراتها كلها . فبعضها وبخاصة الموسوعي منهـــا كنت اراه وكأنه « موسوعة » فعلا اذهب اليه كلما احتجت الى معلومة جديدة لا اعرفها او للتأكد من صحة معلومة اعرفها . وساورتني الهمـوم فقـد خشـــيت ان يكون حصولي عليها متعذرا . وزاد قلقي لانني لم اكن اعرف شيئا مما يحدث في مصر في ذلك الحين . لم يكن احد يعرف شـيئا . كان البعض يردد اسـماء كـانت مجهولة عندي . وكان البعض يدعي المعرفة بالتفاصيل وكان لا يستطيع احد ان يواجهه بكلمة او حتى باشارة . كنا بعض المصريين وأنا نلوذ بالصمت . وكان الواحد منا كان يقول فى سره « ياخبر بفلوس بكره يبقى بلاش » . والحق ان هذا التفكير كان ساذجا حقا . فانا مثلا لم اكن اعرف ماكان جاريا فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ وما قبله من ايام الا بعد فترة طويلة ـ وما عرفته وعرفه الناس لايمكن أن يكون بالضرورة هو ماكان فعلا جاريا فى تلك الايام ومابعدها . انه التاريخ ، وحقـائق التاريخ تحتاج للحصول عليها الى وقت . ان المؤرخين وهواة التاريخ لا يجمعون على عظمة « محمد على الكبير » وحسن نواياه نحو مصرنا الخالدة . وقد بدأ محمد على الحكم وهو فى سن ٣٦ عاما فى عام ١٨٠٥ ومات فى عام ١٨٤٩ ، اى ان وفاته قد مر عليها اكثر من ١٣٠ عاما حتى كتابة هذه السطور . وكان مايزيد فى قلقي ليس الكم او الكيف لما حصلت عليه من معلومات فحسب بل كيف استخدمها ؟ هل ستتاح لى الفرصة لأفعل شيئا احقق به بعض اهدافى ؟ هل ماحصلت عليه من معلومات يكفي ؟ هل حققت حلم ابي وامى لاكون امتدادا للـزعيم مصطفى كامل باسلوب يتفق مع العصر الذى اعيش فيه

او العصر الذى سأعيش فيه ؟. وفجأة رأيت ركاب السفينة يغادرونها الى البر عن طريق مراكب صغيرة اقرب الى « الفلوكات » . فسارعت اليهم اسير معهم حيث يسيرون الى ارض الوطن العزيز وانا اواجه المجهول . والامل الوثاب يملأ فؤادي وكنت اردد فى سرى عبارة خطرت في بالى ، وكثيرا عند مواجهة المجهول في خلال تلك الفترة من حياتى ماكان تخطر فى بالى ، الا وهى « فمن جسر ايسر ومن هاب خاب » .

العودة الى الوطن وتجربتى مع ثورة عام ١٩٥٢ فى خطواتها الاولى

وهاأنذا انزل من سلم السفينة الى اخر درج ، ثم وضعت قدماى فى المركب الصغير الذى سينقلنى مع من كانوا يصحبوننى من ركاب السفينة ، ووصلنا اليه آمنين . وهاقد مست قدماى ارض ميناء الاسكندرية . وما أن فعلت ذلك حتى احسست بأن كيانى كله قد مسته مشاعر متباينة ، هى مشاعر نبيلة نبل حب الوطن الذى هو من الايمان . واضيفت الى تلك المشاعر مشاعر المناخ الذى كان يهيمن على الاسكندرية وكنت اراها فى الناس: فى حركاتهم وفى كلماتهم وفى تعبيرات وجوههم ، وفى العيون . وما ادراك ما العيون . انها تشع الفرح كما تشع الامل والانطلاق . ان الصيحات فى كل مكان ، والاصوات على اختلاف درجات سلم موسيقاها تملأ كل مكان . وقد اختلطت الاصوات الآدمية باصوات الاذاعة التى لا تكف عن البث بكل انواعه والوانه : بالكلام احيانا وبالموسيقى احيانا اخرى ، وبالاغانى والاناشيد احيانا ثالثة . لقد احسست بالجموع الغفيرة التى كانت تملأ الشوارع . وسرعان ماذبت فيها ، واصبحت قطرة فى محيط من الادميين الذين لا يذكرون المرارة ولكنهم كانوا يعيشون وكأنهم فى المستقبل المشرق . انهم كانوا ينظرون الى أمام . فالمصري ينسى « الاسية » ويرحب بالتسامح . ويرى أن فى عبارة « صافى يالبن » « حليب

ياقشطة » املا مرتقبا على الدوام ، وكانه السحر ، صرت انظر مع الناظرين الى أمام وانا متفائل . وطرحت الماضي جانبا لأرى ماهو كائن وحاولت ان اتوقع ما الذي سيكون . اصبحت ذرة وانا مع الملايين . وتأكد لى فى الحال ان شعب ميناء الاسكندرية هو شعب مصرنا الخالدة . وشعب مصرنا الخالدة ، ككل الشعوب ، يدفع الحياة دائما مهما يكن من شيء لتكون خيرا مما هى عليه . وما ان انتهيت الى هذه النتيجة حتى وجدتنى استعمل عقلي واكاد ان ادع العواطف جانبا . وتذكرت مثلنا الشعبى « عدو زمان مالوش امان » . وتوجست اشياء مخيفة قد تحدث فى المستقبل القريب او حتى فى المستقبل البعيد . ولكن ماكان يجلجل فى الاذاعة جرفنى الى الواقع الحى الذى كنت فيه .
كانت الاذاعة قد مهدت لاذاعة « بيان تاريخى » منذ الساعة الخامسة مساء . سمعنا ذلك ونحن ما نزال على السفينة . وفى السادسة والنصف كما اذكر بعد ان وطئت اقدام ركاب السفينة ارض الوطن ، وكنت معهم ، الاذاعة تجلجل ببث « البيان التاريخى » على الملأ ، وسمعنا صوتا لم نتبينه فى اول الامر لا انا ولا من كنت فى اوساطهم فى « طوابير الاستماع » أمام احد « الراديوهات » المنتشرة فى ميناء الاسكندرية .. يقول :

« بنى وطنى .. اتماما للعمل الذى قام به جيشكم الباسل فى سبيل قضيتكم قمت فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ الموافق ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ هـ بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وسلمته عريضة موجهة الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

تحمل مطلبين على لسان الشعب .
الاول : ان يتنازل جلالته عن العرش لسمو ولي عهده قبل ظهر اليوم .
« الثاني : ان يغادر جلالته البلاد قبل الساعة السادسة مساء . وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين وتم التنفيذ فى المواعيد المحددة دون حدوث مايعكر الصدر . وان نجاحنا الى الآن فى قضية البلاد يعود الى تضافركم معنا بقلوبكم وتنفيذكم لتعليماتنا واخلادكم الى الهدوء والسكينة ، واني اعلن ان الفرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبأ غير انني اتوسل اليكم ان تستمروا في التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم في امان ولى كبير الامل فى انكم ستلبون ندائى فى سبيل الوطن ، وفقنا الله لما فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام » .
وصاح الجمع الحاشد الذي انخرط اعضاؤه فى طوابير الاستماع ، انه محمد نجيب .. انه محمد نجيب .. ولاول مرة كنت اسمعه محدثا ، وان سمعته بعد ذلك مرارا . كانت احداها في الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم « يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ » ، حين اذاع بعد طرد فاروق بساعتين فقط قائلا :
« انماينسب الى من عمل مجيد ان هو فى الحقيقة الا مجهود وتضحيات لرجال الجيش البواسل من جنود وضباط ، ولم يكن لي الا شرف قيادتهم » . واستطرد قائلا :
« وقد امر جلالة الملك فاروق عندما طلب الجيش اسناد منصب القيادة العامة الي بأن ينعم على برتبة الفريق بدرجة وزير فلم اعلن رفضها حتى لا يعرقل ذلك غرضا اسمى وهو تنازل الملك عن العرش .. والان

وقد انتهت الامور فاني اعلن تنازلي عن هـــذه الرتبة قانعا برتبة اللواء مراعاة لحالة الدولة المالية » .

وبرز اسم « محمد نجيب » واصبح ملء الســمع والافواه . وكان اثر كلمته الثانية على الناس عظيمـا . فصفقوا وصفقت معهم حتى ادمى التصفيق ايادينا . ولكني والحق يقال راجعت نفسي بعد ذلك فقلت ان هذا الرجل العظيم يتحلى بصفات انســانية تميــل الى « الرومانتيكية » ؛ وما فعله أو ما اريد له ان يفعـله لا يجب ان يجعل لهذه الصفات وزنا . فقد درست في « علم الاجرام » أن من الصفات التى تصنع رجال الاعمال أو رجال السياسة ليست فقط المخاطرة والاقدام بل ايضا الرغبة فى الكسب . والملاحظ ان هذه الصـفات هي التى تكون المجرمين العتاه . لقد بدأ لى الرجل لاول وهلة عندما تنازل عن الرتبة ، أى عندما ابدى الرغبة فى عدم الكسب ، انه يعيش فى « يوتوبيا » قد خلقها المناخ الثقافى المصرى حتى تسود بعض القيم الاجتماعية التي جعلت حكم المصريين منذ عام ٥٢٥ ق . م حتى قيام الجيش المصرى بقيادة الرئيس محمد نجيب فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، ميسرا . تلك كـانت هواجسي وانا مازلت انضج العناصر الثقافية الجـديدة المتجددة التي استوعبتها واكاد ان اتمثلها . وقد أكد ظني او حكمي هذا أن وضع شخص عرفنا ان اسمه « جمال عبد الناصر » مديرا لمكتب الرئيس محمـد نجيب . ولم يكن يعرف سوى القليل من بنات وأبنـاء مصر عن الازل شيئا قليلا او كثيرا . وقد أكون مخطئا خطأ جسيما فلعل تنازل الرئيس محمد نجيب عـن الرتبة المشار اليها كان يعنى ، أذا كانت الرغبة فى الكسب صفة اصيلة فى شخصيته ، حيلة سياسـية

لكسب الجماهير وبخاصة والحركة الجديدة ما زالت تخطو اولى خطواتها . لم اكن فى ذلك الوقت استطيع التقدير السليم وذلك لان الحقائق كلها او حتى بعضها لم تكن فى حوزتى ، فأنا كنت بعيدا عن الديار فترة طويلة من الوقت وكان اهم اهدافى العب من المعرفة انى وجدت فى المحاضرات او فى المتاحف أو المسارح او فى الندوات او فى جلسات الاصدقاء او فى الكتب وغيرها من المصادر . وكان اهم مايشغلنى ان اسهم فى تكوين المواطن المصرى الصالح ، اما بطريق مباشر كما كنت افعل وانا فى مؤسسة الزفاف الملكى او فى معسكر كوم امبو او فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث او فى جمعيتنا الناشئة ! جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق . او بطريق غير مباشر فاتاهل لكى اكون المفكر الذى يكون دوره ترشيد المصلح الذى يعمل فى سبيل تكوين المواطن المصرى الصالح . ولاننى كنت فى مستهل رجولتى فى ذلك الحين فاننى كنت آمل ان اجمع بين الدورين . ان الثورة العرابية على الرغم من فشلها فقد تركت لمصرنا الخالدة « كادرا » من القادة الوطنيين ادوا واجبهم بحق . كان منهم عبد الله النديم ومحمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول ، وجاء من بعدهم مصطفى كامل ومحمد فريد وسيد درويش وطلعت حرب واحمد شوقى وحافظ ابراهيم وعبد العزيز فهمى وامين الخولى واحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش وامين الرافعى وغيرهم وغيرهم . وعندما ثارت جماهير مصرنا الخالدة فى عام ١٩١٩ وجدوا القادة الوطنيين على اختلاف مشاربهم الذين قادوهم ضد المستعمر الغاشم . وكانوا على الرغم من الخلافات ، التى يتوقع عادة حدوثها ، على مستوى المسئولية . وعلى الرغم من

نتائج هذه الثورة التى لم تحقق احلام الامة فقد ضرب القادة الوطنيون المصريون الذين قادوا جماهيرها ومن اتى من بعد المثل العليا وبذلوا من التضحيات النفس والنفيس . والامر المهم الذى اذكره ويذكره غيرى كما يذكره التاريخ هو ان ثورة عام ١٩١٩ قد انجبت من بعد قادة وطنيين تسلموا الامانة . وكان منهم مصطفى النحاس واسماعيل القبانى والمازنى وطه حسين ومصطفى صادق الرافعى والعقاد وسلامة موسى ومحمد صلاح الدين ويعقوب فام وتوفيق الحكيم وحسين فوزى وزكى مبارك ومحمد حسن الزيات ومحمد حسين هيكل وفكرى أباظة واحمد امين وانور المعداوى وغيرهم كثيرون مثل حسن البنا واحمد حسين ومن قادوا حركة يوليو عام ١٩٥٢ الذين لم اعلم عنهم شيئا عندما عرفت عنها فى نابلى وانا فى طريقى الى ارض الوطن . واذا كنت قد ذكرت بعض اسماء القادة فهناك اسماء غيرهم لم أذكرهم لاننى لا اعرفهم او لاننى لا استطيع ان أملأ الصفحات تلو الصفحات بأسمائهم . ومن الذين اعرفهم ولم أذكرهم بنات وابناء حى الخليفة الذى ولدت فيه وعشت حتى بلغت سنى سبعة وعشرين عاما . فقد كانوا كثيرين وعلى الرغم من بساطتهم فى المعيشة وفى النظرة نحو الحياة ونحو الموت فانهم كانوا مصريين قلبا وقالبا . كان يبذل الواحد منهم مايستطيع ان يبذل حبا فى مصر الخالدة وعشقا للوطن العزيز . فحب الوطن كان عندهم عقيدة صحيح كانوا كما كان القادة الوطنيون يرون انفسهم كما يتشدق البعض احيانا انهم مصر ولكنهم كانوا يجدون انفسهم ، البسطاء من حينا ، وغيرهم من القادة الوطنيين ، مثلهم العليا ، نتاج النظام السائد والظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسود

المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . أنه من الخطـــل والخطأ الجسيم ان يزعم احدهم ان مصر هى المصريون . ان هذا تبسيط للامور . كان هذا رايى فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ وانا فى ميناء الاسكندرية بعد ان تركت السفينة التى اقلتنى من ميناء « مارسيليا » وكنت فى الغربة قرابة ثمانية عشر شهرا . ومازال هذا الرأى هو رايى حتى كتابة هذه السطور . كنت ، ولازلت أقول ان المجتمع الصالح يصنع المواطنين الصالحين كما أن المواطنين الصالحين يصنعون المجتمع الصالح . انهـا علاقة جدلية . ومن ثم فانا لا ازعم مع الزاعمين بأن مصر هى المصريون ثم اصمت ، او ان اقذف اى مصرى باللوم لانه ينقد وضعا من الاوضاع السائدة فى المجتمع المصرى او يبرز مشكلة من المشاكل الثقافيـــة الاجتماعيـــة والاقتصادية التى تعوق تنمية هذا المجتمع لكى يتقدم ويسهم فى تحقيق انسانية الانسان فيه او اذا فعل غيره ذلك وفى غيره من المجتمعات . كنت ارى ذلك ، ولا ازال فى تلك الفترة من حياتى . ذلك لاننى مارست اعادة تكوين شخصيات ابناء المؤسسة التى كنت اعمل فيها بنجاح عندما تغير النظام الذى كانوا يعيشون فى ظله . اننى اذا قلت لمصرى او قال احدهم ان « مصر هى انت ياصديقى » فانا ابرز وجود النظام العام السائد الذى يعيش فيه على علاته . وهل هذه امانة علمية أو حتى امانة فلسفية ؟ صحيح انا كمصرى ، كما قلت لنفسى فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى وجدته فى مينـــاء الاسكندرية فى يوم ٢٦ من شهر يوليو من عام ١٩٥٢ مساء وفى اثناء الليل ، مرآة لمصرنا الخالدة فى ضـــوء حياتى التى عشتها فى المجتمع المصرى سواء كانت حياة طيبة او حياة غير ذلك . او كانت حياة فيها ماهو طيبه

او فيها ماهو غير ذلك . انني كمصري نتاج مجتمعي اي الجماعات التي انتميت اليها منذ ان ولدت . لقد اثرت في هذه الجماعات مافي ذلك من شك وانا ايضا اثرت فيها في ضوء قدراتي وامكاناتي . وقدرات الشخص منا وامكاناته كما يعلم القارىء محدودة ومتباينة فبعضها مايسر الغث وبعضها مايسر الثمين . ولعل العودة الى عهد محمد علي يفسر لنا الكثير مما ذكرت . فالملاحظ انه على الرغم من الامجاد التي حدثت في ذلك العهد اي انه على الرغم من النهضة التي وضع اسسها ذلك الحاكم الذي دبر « مذبحة القلعة » التي قتل فيها مايربو على اربعمائة من بني الانسان ، في شخص المصانع « العنابر » والمطبعة الاميرية والقناطر الخيرية والجيش وغيرها وغيرها لم يهتم الاهتمام الاصيل الكافي، اي اهتمام المصري الاصيل ، بتكوين القادة من المصريين على الرغم من البعثات التي ارسلها الى فرنسا والى غيرها من البلاد واشهرها بعثة « رفاعة رافع الطهطاوي » . وعلى الرغم من اثار هذه البعثات في شخص بعض اعضائها بعد عودتهم الى مصرنا الخالدة ، فان هؤلاء الاعضاء ، وكانوا قلة ، وعلى رأسهم رفاعة رافع الطهطاوي قد عانوا الكثير الكثير . ونجح محمد علي ومن جاءوا من بعده في ان يشتروا معظم الاعضاء بأثمان لا تغني ولا تسمن من تقدير ، فقد كانت اقرب الى الرشوة منها الى المنحة الخالصة التي تيسر للمدفوع له اذا كان مواطنا رشيدا ان يؤدي لبلده عملا صالحا .

وصممت على ان ابقى في الاسكندرية ليلة قبل ان ابرحها الى القاهرة الحبيبة لانضم الى اسرتي الصغيرة : زوجتي واحمد وآمال وسمير وليسير ومحمد . واستاجرت غرفة في احد الفنادق لليلة واحدة اعيش

لبها فرحة الجماهير واسمع من قريب احيانا ومن بعيد احيانا اخرى الهتافات والتعليقات التى تنم على الامل المرجو . وما كان املى الا ان اعمل عملا صالحا اذا لم اتمكن من العودة الى مصادر المعرفة فى لندن او فى غيرها من دول الغرب او من دول الشرق وان كان الذهاب الى الاخيرة فى ذلك الحين متعذرا . وفجأة تذكرت كتبى التى اودعتها امانة لدى « شركة كوك » لكى تشحنها على عنوانى بالقاهرة . تذكرتها كتابا كتابا .. تذكرت ليس فقط كتب « ماركس وانجلز ولينين وستالين » ولكننى تذكرت ايضا كتابى « هوجين » وكتب « ج . ب . س هولدين » وبخاصة (كل شىء له تاريخ طبعة عام ١٩٥١) و « ماهى الحياة؟ طبعة عام ١٩٤٩ » و « عدم مساواة الانسان طبعة عام ١٩٣٢ » ، وكتبا عديدة عن مصر القديمة وبخاصة كتاب « تراث مصر طبعة عام ١٩٤٩ » ومحرره « جلانفيل » وكتاب (فجر الضمير طبعة عام ١٩٣٣) تأليف «برستد» وكانت منها مجموعة كبيرة من كتب سلسلة « مكتبة كل شخص » Everymans. Library —

وقد غذتنى هذه السلسلة بالمعلومات القيمة التى قدمها عباقرة الفكر امثال « داروين » و « آدم سميث » و « ريكاردو » و « روسو » و « ج . س ميل » و « كنت » و « وليم جيمس » وغيرهم وغيرهم . ولم يكن « بلنت » بكتابيه « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر » و « يومياتى : ١٨٨٨ ــ ١٩١٤ طبعة عام ١٩٣٢ » ولا « كرومر » بكتبه « مصر الحديثة : المجلد الاول طبعة عام ١٩٠٨ » و « مصر الحديثة : المجلد الثانى طبعة عام ١٩٠٨ » و « عباس الثانى طبعة عام ١٩١٥ »، لم يكونا مصدرُ التعرف على مصرنا الخالدة فى العصر

الحديث ولكن كان كتاب « شفيق غربال » « بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على طبعة عام ١٩٢٨ » وكتاب « شارل عيسوى » « مصر : تحليل اجتماعى واقتصادى طبعة عام ١٩٤٧ » . وكانت من كتبى التى تعالج الموضوعات الدينية فضلا عن مجلة « روبن ليفى » عن مؤلفه « علم الاجتماع الاسلامى » كتب اخرى عديدة ، تذكرت منها كتاب « تراث الاسلام طبعة عام ١٩٤٩ » وكان محرره « توماس ارنولد » بالاشتراك مع « الفرد جيلايوم » وكتاب « المؤسسات الاسلامية طبعة عام ١٩٥٠ » تأليف « موريس جود فروى ديمومبينز » ، وكتاب « العقائد التي يعتنقها الناس طبعة عام ١٩٥١ » تأليف « شارلز فرانسيس بوتر » وغيرها وغيرها . وكان ضمن ما تذكرت من كتب كتابى « دراسات مستقبلية لثقافة تحتضر طبعة عام ١٩٤٩ » و « الوهم والحقيقة طبعة عام ١٩٥٠ » تأليف شهيد الحرب الاسبانية الاهلية « كريستوفر كودويل » ، وكتابى (الانسانية كفلسفة طبعة عام ١٩٥٢) و « وهم الخلود طبعة عام ١٩٥٢ » تأليف « كورليس لامونت » . ولم تكن كتبى تخلو من الروايات الخالدة مثل روايات « جوركى » و « فاوست » و « تولستوى » و « ديكنز » و « هاريت بيتشر » (مؤلف رواية كوخ العم توم) فضلا عن حكايات « بوشكن » و « دوستيوفسكى » وغيرهم وغيرهم . وفجاة تذكرت اننى ربما كنت الشخص الوحيد الذى لديه المجلد الرابع من كتاب « راس المال » لماركس او الذى يعتبر المجلد الرابع وعنوانه « نظريات فائض القيمة طبعة عام ١٩٥١ » . وكتاب عن « فرانسيس بيكون » وعنوانه « فرانسيس بيكون فيلسوف العلم الصناعى طبعة عام ١٩٥١ » ومؤلفه « بنامين فارنجتون »

ذكرته كذلك ، كما ذكرت مجلدى « ادوارد ب . تيلور عن « الثقافة البدائية : دراسات فى تطور علم الاساطير والفلسفة والدين واللغة والفن والعادة طبعة عام ١٩٢٩ وكتاب « فريزر » الغصن الذهبى الطبعة الموجزة عام ١٩٥٠ » . وتذكرت كتبا اخرى كثيرة . وكانت لهفتى على المذكرات التى كنت اكتبها فى المحاضرات او كنت الخص فيها ماكنت اقرا ، كانت هذه المذكرات مع هذه الكتب التى كانت تملأ ثلاث حقائب كبيرة وكان يربو عددها على الثلثمائة كتاب ، وذلك عدا الكتب الدراسية التى كان على « ان اقراها لاؤدى الامتحان فى محتـواها .
كنت فى حجرتى المتواضعة فى احدى غـرف فنـدق متواضع فى ميناء الاسكندرية . كنت على السرير مستلقيا احاول ان انام فلم استطع . ويبدو اننى ، كمـا اذكر الآن اى عند كتابة هذه السطور ، اننى لم انم الا بعد ان سمعت آذان الفجر يدعو الناس الى الصلاة . فقمت وتوضأت وصليت الفجر حاضرا ثم نمت متقطعا حتى الصباح لاستعد للحاق بالقطار الذاهب الى مدينـــة القاهرة . وعلى الرغم من ان حرارة الشوق الى رؤية اعضاء اسرتى الصغيرة كانت تملأ كيانى ، فقد تذكـرت خروج الملك فاروق مطرودا وشعرت بالتفاؤل . وكنت فى حقيقة الامر شامتا ، فقد كان شخصا متسلطا جاهلا وكان قبل ذلك وربما بسببه فاسدا مفسدا . كـانت سيرته وسيرة اعضاء عائلته تزكم الانوف . ولم يكن على الرغم من مركزه الرفيع النموذج الانسانى الصـالح ليكون قدوة صالحة . ورجوت الله وانا اصـلى الفجر « حاضرا » فى السجود أن يستبدل به من يؤمن بحقوق الشعب المصرى الخالد ويعوضه عما عانى على مر السنين منذ الماضى السحيق وحتى لحظة خروج فاروق مطرودا

وفي ضوء العلم سرت الى تفكيرى خشية وددت لو ان المسئولين عن « الحركة » او « الثورة » الجدد لو انهم اهتموا بها . ان مصرنا الخالدة فى ضوء تاريخها القديم المستمر كانت تضع حكامها على تباينهم فى مكانة رفيعة دائما . وكان الشعب المصري يقدس بعض حكامه .
وكانت خشيتى تأتى من ان خلع الحاكم كرمز من رموز السلطة يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الاخرى .
فالحاكم والرئيس والمدرس والاب ومن فى حكم هؤلاء فى المجتمع اى مجتمع ، وبخاصة المجتمع المصرى ، هم رموز النظام الاجتماعي ولسان حاله . وهم فى هذا الضوء يكونون جزءا من كل شخص يعيش فى المجتمع ، اى ان سلوك اعضاء المجتمع واداء ادوارهم الاجتماعية يكونان « عادة » فى حدود النظام الاجتماعى الذى يعيشون فى ظله . وخلع الحاكم يؤثر بالضرورة فى شخصيات اعضاء المجتمع الذين يحكمهم ؛ اى يؤثر فى انماط سلوكهم . ومهما كان خلع فاروق مبررا وضروريا فان هذا الخلع يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الاخرى فى المجتمع ومنهم « الرئيس » و « المدرس » و « الاب » ومن فى حكم هؤلاء عند اعضاء المجتمع الاخرين «العاديين» وبخاصة فى محيط الاحداث والشباب . ومن ثم فان الاهتمام باعادة تكوين المواطنين اصبحت مسألة ضرورية واعادة التكوين هذه تعنى تكوين المواطن المصرى الصالح لكى يؤدى ادواره ــ الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع المصري الجديد . وبدات احلم وانا استعد للرحيل من الفندق لالحق بالقطار الذاهب الى مدينة القاهرة . كنت مازلت اعيش حياتى الفكرية التى استقيتها فى بلاد الغربة . ورأيت كيف ان الانسان وقد اصبح جبار العصر الحديث . وكيف اصبحت قوى

الطبيعة التى كانت شيئا مجهولا رهيبا لم تعد شيئا مجهولا ولا رهيبا . فالانسان فى ضوء العلم قد اصبح يسيطر على هذه القوى او كاد . وهو الآن يصنع السحاب ويزرع الصحراء ويحول مجارى الانهار ويزحزح الجبال ويجعل من الهضاب الجرداء حقولا وجنات . لقد سيطر الانسان فى ذلك الحين على الذرة واصبح من الممكن ان يفاد من طاقة الذرة الهائلة فى خدمة الانسان. والانسان ، اعظم من فى الوجود ، اصبح هدفه الاصلاح الثورى فى كل الميادين والمجالات وبخاصة فى ميادين ومجالات العلم والطب والفن والحقوق السياسية التى تمكنه من اختيار شكل الحكومة التى يذعن لقوانينها .. الخ وقلت وانا اركب القطار ان محك اللقاء هنا فى مصرنا التى تطل على عهد جديد ان يعطى الانسان من الحقوق ماتستحقه انسانيته . لقد كان على الدوام يعطى ويعطى منذ الازمان السحيقة وكان لاياخذ الا اقل القليل . وقد آن الاوان لياخذ بقدر مايعطى . وتذكرت الامية التى لا يزال الملايين من المصريين يعيشون فى غياهبها . وتذكرت المشاكل الاجتماعية العديدة التى لخصها البعض فى الثالوث غير المقدس : الفقر والجهل والمرض . وقلت فلأنتظر . ثم عشت فى الخيال وكاننى استقبل اعضاء اسرتى الصغيرة ويستقبلنى اعضاؤها ، لقد مرت الايام والشهور وانا بعيد عنهم ، كانت فترة لا تعدو الثمانية عشر شهرا ولكنها فى عمرى الزمنى كانت اطول واعمق واجدى من كل الفترات . لانها ، كما بان لى بعد، كانت الفترة التى اكتسبت فى خلالها من الخبرات التى كانت المرجع الاول لكل خبرات انسانية جاءت بعدها .

ومالبثت أن وجدت نفسى بين أحضان الحب والحنان.

حب وحنان اعضاء اسرتي الصغيرة : زوجتي واحمد وآمال وسمير وتيسير وسعد . واذا كانت احضانهم متعددة وسعتني وزيادة ، فان حضني الوحيد وسعهم كذلك ، اصبحنا كأننا شخص واحد . احسست بأنني اكتملت ، اي ان النقص الذي كنت احس به قد كمل بعد ان عدت اليهم وعادوا الى . ان احمد وهو الاكبر اصبح في الثامنة عشرة من عمره ، وان مسعد وهو الاصغر أصبح في التاسعة من عمره . كانوا صغارا على الفراق . وكان العبء كبيرا كبيرا على « ماما » زوجتي . وبقدر ماكنت افتقدهم احسست بانهم كانوا يفتقدونني ايضا . ما اعجب الحياة التي اخوضها منذ ان ولدت ! وما اكثر مابررت لهذه الحياة ماكانت تفعله بي وبمن كانوا ولايزالون أعز الاعزاء عندى ! كان اليوم يوم ٢٧ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وكانت آثار حوادث يوم ٢٣ من شهر يوليو حتى يوم ٢٦ من نفس الشهر ملء افواه الناس . في خارج الاسرة يتحدث الناس عنها واعضاء اسرتي يتحدثون ويشتركون في الاغاني والاناشيد التي تبثها الاذاعة باستمرار ويرددها الناس في الحال وبخاصة الشباب والصغار ، ذكورا واناثا على السواء . ومنها كما اذكر :

« ايدك في ايدي ياعم ياعم نفدى الوطن
بالدم . ونبقى وحدة ويد واحدة
ايدك في ايدي ياعم ياعم ... » .

وبعد ايام قلائل وجدتني اذهب الى وزارة الشئون الاجتماعية لكي اقدم نفسي لابدأ عملي فاذا بي أوجه الى الذهاب الى « مصلحة الخدمات » التي كان يرأسها في ذلك الحين الاستاذ « محمد حسن » الذي كنا نعرف اسمه ولا نعرف شخصه . ذلك انه كان يؤلف عاما بعد

عام كتابا عن اسئلة امتحانات شهادتى « الكفاءة » و « البكالوريا » مع حل هذه الاسئلة . وكنا ونحن طلبة نبادر بشراء هذا الكتاب الذى كان يضم اسئلة الامتحانات التى عقدت من قبل واجابة كل سؤال ، وذلك لنهتدى نحن الطلبة ونشبع حب الاستطلاع عندنا ولنطمئن او نحاول ان نفعل ذلك . وسرعان ماوجدتنى فى « ادارة الاحداث » فى وظيفة « مفتش اجتماعى » . وتسلمت عملى الجديد فى اول يوم من شهر اغسطس عام ١٩٥٢ . ووجدت ادارة الاحداث يديرها مدرسون سابقون وكان يراسها الاستاذ « عباس ابو شوشة » . ولم يكن لى مكان اجلس فيه . فكان الاستاذ ابو شوشة يدعونى لاجلس معه فى مكتبه . كان رجلا على وشك الاحالة على المعاش ، وكان كريما . ولم يكن هو او غيره من الموظفين الآخرين يعرفون شيئا عن الاحداث الا اسم « الاحداث » . وقد عرف الجميع خبراتى فى هذا الميدان فكنت موضع احترامهم المزيف . وكنت اجلس كل يوم ولا اعمل شيئا ، كنت ضيفا على رئيس الادارة الذى كان يحلو له ان يتحدث عن ماضيه وخبراته وآماله وبعض آلامه . ولم يتحدث احد عن مايحدث من احداث سياسية . كان المسئولون عن ادارة الاحداث وغيرهم من الادارات الاخرى يتحدثون همسا عن « التطهير » . وكانت المصلحة لاهم لها الا ان تيسر للمحققين مهمتهم لكى يقرروا موظفيها الذين سيكون نصيبهم التطهير . وكنت اعيش فى هذا المناخ وكاننى اعيش فى « المريخ » . لا اعرف شيئا . ولا يريد احد ان يعرفنى شيئا . وبدا لى اننى فى مسرح كوميدى تراجيدى . وبدات اؤدى دور المتفرج لاسرى عن نفسى الملل الذى كاد ان يكتم انفاسى . وكان الوقت الذى اقضيه كل صباح فى مواعيد

العمل الرسمية طويلا طويلا . ومع ذلك فكنت ارى الموظفين من حولى وهم يؤدون ادوارهم فى مسرحية التطهير . وبدا لى منذ اول لحظة ان هذه المسرحية سياسية من اولها الى آخرها . فالتطهير فى حقيقة الامر يمس الجميع . اى ان الجميع كان يجب ان تتطهر المصلحة بل وزارة الشئون الاجتماعية بل الوزارات كلها منهم ، وبخاصة من كان منهم من المسئولين . ولكن رجال الحكومة الحالية ومن ورائهم رئيس وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، كما بدا لى فى ذلك الحين ، ارادوا ان « يتخلصوا » من اناس بعينهم سواء اكانوا فى الوزارات ام فى المؤسسات الاخرى ومنها الجامعات . وكنت فى المصلحة فى ادارة الاحداث اعيش دنياى . كنت ابكى على ضياع وقتى . ولم اجد الوقت مناسبا لاتحدث عن اجازة بمرتب او حتى من غير مرتب لكى استأنف دراساتى العليا فى لندن . وكانت تسرى عنى احاديث الاستاذ عباس ابو شوشة . كانت احاديث فيها بعض الحكمة . وكدت ان اثق فى انه يحترمنى ولكن الظروف اثبتت لى انه كان يخشانى اكثر . كان فى الدرجة الثانية المالية وكنت فى الدرجة الخامسة المالية . كان فى سن التاسعة والخمسين وكنت فى سن التاسعة والثلاثين . ولكنه كان يجهل عمله وكنت أعلم هذا العمل . وكان الجميع فى شغل شاغل عن العمل . كل يضع يده على قلبه والاصابع تشير الى هذا او الى ذاك من كبار موظفى الوزارة مؤكدة ان اسماء معينة . كان اصحابها يرهبون من يرهبون ويظلمون من يظلمون ولا حسيب ، قد سجلت فى سجلات التطهير . ومن ثم فكنت وكان غيرى يجد مكاتبهم قد اصبحت خاوية لا يدخلها احد ، بل لا يمر امامها احد ، خشية الاتهام . انه النفاق الذى يعيش

فى المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى منذ القديم ولا يزال . ولاننى لم أكن ، منذ أن تركت « مصلحة الحدود » فى شهر مايو عام ١٩٣٩ ، موظفا حكوميا ـ فاننى كنت مستريح البال لا آبه بشىء يتعلق بهذا التطهير ولكن كانت حواسى كلها متيقظة لما كان يحدث . ان ماكان يحدث فى هذا القطاع من اعضاء المجتمع المصرى برز الكثير مما كان خافيا . وكانت النتائج مذهلة أسعدتنى معرفتها وتسجيلها فى ذاكرتى . ومع ذلك فاننى كنت ابكى على ضياع وقتى . فالوقت غير مناسب لاتحدث عن آمالى فى استئناف دراساتى العليا . وكنت اقول لنفسى عند اليأس « البركة فى ابنائى » . انهم امتداد لى فلاكرس حياتى من اجل تحقيق مالم استطع ان احققه انا . ان احمد على وشك الالتحاق بالجامعة وستتبعه ان شاء الله آمال ثم سمير وتيسير ومسعد . والله وحده المستعان .

ومرت الايام ثم الاسابيع ومر شهر اغسطس وتلاه شهر سبتمبر ، وما أن جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ حتى قدمت طلبا للالتحاق بالمعهد البريطانى لكى استأنف دراساتى العليا . وذلك لان نتيجة الامتحان عندما جاءت الى من لندن اكدت رسوبى فى الامتحان الذى جلست اليه فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . كان هذا الامتحان امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية » الذى كان نجاحى فيه يعتبر خطوة الى الامام نحو تحقيق الهدف الذى كنت ابغى تحقيقه . كان رسوبى فى « علم الاقتصاد» الذى اجبت فى الامتحان فيه عن ثلاثة اسئلة لا عن اربعة اسئلة كما اراد الممتحن . كان لى عذرى فقد ذهبت الى قاعة الامتحان فى ذلك الوقت ، لاسباب كانت خارجة عن ارادتى ، متاخرا . وكان حزنى شديدا . حزنت

وحدي ولم اجد من يشاركني مشاعري وعواطفي واخفيت الامر على الجميع . ولكني لم ايأس . فقد كانت ظروف العمل فى مصلحة الخدمات فى الفترة التى رجعت فيها الى مصر مواتية لكى أستأنف الدراسة فى المعهد البريطانى . وما ان جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ حتى استأنفت الدراسة . وكانت الدراسة فى المعهد مسائية فتيسر لى ان اعيش فى المناخ الثقافى المحبب الى نفسى ، وكان الله جل وعلا قد عوضني عن ضياع وقتى سدى في الصباح . ولكن حدث مالم يكن في الحسبان . ففي احد الايام وجدنا الاستاذ « فؤاد جلال » في الوزارة يمر على الموظفين في المكاتب . كان احد وزراء الوزارة التي كان يراسها في ذلك الوقت « على ماهر » الذى اعفى منها فى يوم ٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ ، وخلفه في الرئاسة الرئيس محمد نجيب . حضر الاستاذ فؤاد جلال فى خلال شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ كما اذكر وانا اكتب هذه السطور . وكان عندما رآنى شخصا كريما . لم يتجاهلني كما يفعل غيره عادة او كما فعل غيره احيانا . وانا اعرف هذا الرجل فقد كان احد اعضاء هيئة التدريس فى معهد التربية الذى كان يديره الاستاذ « اسماعيل القبانى » . وقد كان زميلا لأستاذى الدكتور عبد العزيز القوصى . كنت اراه كلما كنت ازور الدكتور القوصي فى المعهد . وكان يعيش مع اسرته معنا فى معسكر الرواد الذى اقيم فى عام ١٩٤٩ بميناء الاسكندرية . وكنت تراه مرحا يغنى لابنائه ومعهم اغنية الاطفال المشهورة :

ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صوصو

وقد اشترك فى نشاطات المعسكر الثقافية والترويحية وكنت اعلم انه عضو فى جماعة « الرواد : ولكنى لم اكن

اعلم ان له نشاطا سياسيا معينا . كان لايبدو عليه أى اهتمام بالسياسة . وفوجئنا ، من يعرفونه من زميلاتى وزملائى وانا ، باختياره وزيرا فى وزارة على ماهر . كان وزيرا لوزارة الارشاد . ولعل اتصاله بوزارة الشئون الاجتماعية عندما زار موظفيها في خلال شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ ان يرجع الى ان كان وزيرا لها او وزيرا بالنيابة في ذلك الوقت لست أدرى . تحدث الى فترة من الوقت ، واستبشر بلقائى ، وقال ضمن ماقال انه يود ان يرانى . ولكنى لم اره بعد ذلك ابدا . وكان الغرض من زيارة الاستاذ فؤاد جلال . كما عرفت بعد ذلك ، انه جاء بقصد اختيار بعض الموظفين الذين يتوسم فيهم الشروط لكي يعاونوا الحكام الجدد بخبراتهم . ولكن فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ ترك الاستاذ فؤاد جلال وزارة الارشاد وعين مكانه « صلاح سالم » وذلك عندما أعاد الرئيس محمد نجيب تشكيل وزارته عندما اعلن مجلس قيادة الثورة الغاء النظام الملكى فى البلاد وقيام الجمهورية بدلا منه .

وفوجئت فى خلال شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ أن دعانى وكيل مصلحة الخدمات ، وامرنى بأن اذهب الى رئاسة مجلس الوزراء لاقابل « الصاغ مجدى حسنين » مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء . لم اكن أدرى لماذا وقع الاختيار على ، ولكنى أحسست ، وربما كنت مخطئا ، بأن كبار موظفى المصلحة ارادوا ان يجعلوا منى كبشا للفداء ، فقد كانت ملامحهم وهمساتهم وانماط سلوكهم تنم على الاعتقاد بأن ماحدث فى البلاد من أحداث جسام لن يستمر ، وان استمر فالى حين . ومن ثم رأوا ان يرسلونى الى موقع الخطر فأنا غير معروف لديهم ولا اصدقاء لى بينهم ولن يكون ولائى ابدا لهم . احسست

وكان احدهم قال عني عندما طلب من المصلحة ارسال احد الخبراء ليعاون بخبرته : ارسلوا هذا الغريب عنا وليكن مايكون . كانوا لايعيشون وقائع الحياة الحية في مجتمعنا ، وكان افق نظراتهم نحو هذه الحياة ضيقا ، ولم آبه لما كانوا يظنون او يعتقدون . اقصد لماكانت نظرات اعينهم تقول لي وهم يشيعونني الى قدرى . وكان التغيير الذى حدث في موقعي لصالحي . فانا سأواجه تجربة حية جديدة لا على فحسب بل ايضا على المجتمع المصرى باسره . ويكفي ان اكسر قيود الملل الذى احياه في هذه المصلحة ، وان اترك الاجسام المحنطة او شبه المحنطة من حولى الى اشخاص تملأ قلوبهم الثورة على الاوضاع البالية ويحاولون ان يغيروا ما استطاعوا من هذه الاوضاع . اشخاص تجرى في شرايينهم الدماء الشابة ولعلي ان اعمل عملا صالحا . ولعلي ايضا ان افيد من هذه التجربة . فانا شخص في ذلك الحين كنت اثق في المستقبل ، وفي ضوء خبراتي المنتظمة وغير المنتظمة استطيع بلا غرور ان اكون على مستوى المسئولية . وسألت الله جل وعلا ، مخلصا ، التوفيق والسداد .

وذهبت الى رئاسة مجلس الوزراء . وسمح لى بالدخول في الحال . وقابلت الصاغ مجدى الذى رحب بى ترحيبا كريما . وجدته شابا يعيش حياة شابة في عقل وروية . بدا لى من عينيه انه ولد ثائر . وقلت لنفسى وربما سمع ماقلت « ربنا يخليك لمصر » . فلعل عيني وشت بما قلت ، او لعلنى قلت ماقلت بصوت مسموع . وتم الاتصال الروحى بيننا في الحال . جمعنا حبنا لمصرنا الخالدة . واكد لى ان مكاني سيكون معه على الدوام لاعمل من اجل توطيد دعائم الحكومة

الجديدة فى نفوس جماهير الشعب المصرى الكريم .
وبرزت فكرة « معونة الشتاء » . فالشتاء على الابواب .
وكنت فى دراساتى فى انجلترا علمت باحد المشروعات الذى له مكان اجتماعى مرموق فى المجتمع الانجليزى .
كان هذا النظام يسمى ب « حوانيت التجارة الخيرية » .
وكانت الهيئة المنظمة للمشروع تجمع شهريا البقايا التى ترى الاسرة اى اسرة الاستغناء عنها . وكان لدى هذه الهيئة كشف باسماء عدد من الاسر التى قبل اولو الامر فيها الاشتراك فى المشروع . فيوزع على هذه الاسر صناديق لكى توضع فيها كل البقايا التى تستغنى كل اسرة عنها ، سواء كانت هذه البقايا ملابس او اجهزة او قطعا من الاثاث .. الخ وكان لكل اسرة صندوق واحد . وتقوم الهيئة باستلام الصناديق من الاسر المتبرعة مرة فى كل شهر وتاخذها الى احد مخازنها وبعد تفريغها من محتوياتها تعود بها فارغة الى الاسر مرة ثانيه . وفى مخازن الهيئة يقوم بعض الاشخاص من ذوى العاهات ، كل حسب قدراته ، بعمليات فرز البقايا المجموعة واصلاح مايمكن اصلاحه حتي يكون صالحا للاستعمال توطئة لبيعه فى حوانيت خاصة فى المدينة .
وكان العاملون فى المخازن والمشرفون على البيع فى الحوانيت من ذوى العاهات . وكانت حصيلة المبيعات توزع على بنود المصروفات لكى تستمر الهيئة المشرفة على المشروع فى اداء رسالتها . وكانت من اهم بنود هذه المصروفات اجور العاملين كل حسب قدراته ونتائج نشاطاته . وكان اهم اهداف المشروع ان لايترك ذوو العاهات دون ماسند وان يشعروا بحق انهم اشخاص منتجون على الرغم من ظروفهم الاجتماعية غير المواتية . اى ان يتاكد كل واحد منهم انه ليس عالة

على احد وانه يستطيع ان يعيش حيــاة الاشــخاص العاديين . وكان كل ما كانت تفعله الهيئة المشرفة على المشروع القيام بالاشراف عليه وادارته بحيث يتيسر تحقيق المبدأ المثل : ان اعظم مايستطيع القادر الواعي ان يعمله لشخص فى حاجة ما هو مساعدته لكى يساعد نفسه . كانت كل هذه الحقائق تدور فى ذهنى وأنا اتحدث مع الصاغ مجدى . ثم ذكرت له عن هذا المشروع وعن اهدافه مما اكد له ان يكون اول مشروع تقوم به الحكومة الجديدة هو مشروع « معونة الشتاء » . وفى اثناء الحديث ضم الينا الاستاذ انور أحمد الذى كان قد قام بتمثيل دور الزعيم مصطفى كامل فى فيلمه المشهور، ولم يقم من بعد ذلك بدور آخر . فكان اول وآخر دور يمثله . وتناقشنا نحن الثلاثة فيما يجب ان يكون عليه مشروع معونة الشتاء ، وانتهينا الى بعض القرارات اهمها كما اذكر دعوة المصريين القادرين الى التبرع بالملابس على تباينها كل حسب امكاناته . وبقى دور التنفيذ الذى ترك للصاغ مجدى ولى ومن تعاون معنا من الســادة الضباط الموظفين المتخصصين . وكانت الخطوة الاولى فى سبيل التنفيذ هى اختيار مكان لاستقبال التبرعات العينية . ووقع الاختيار على أرض المعارض بالجزيرة . وكان همى الاول هو لمن توزع هذه التبرعات ؟ فانا اولا وقبل كل شيء اخصائى اجتماعى اعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية منذ شهر مايو عام ١٩٣٩ . وكنت فى ضــوء خبراتى المتعددة الجوانب اعلم بمن يستحق هــــذه التبرعات . ولم اكن اسبق الحوادث عندما فكرت فى هذه القضية لاننى كنت على يقين بأن الشــعب المصرى القادر سيلبى النداء . وعلى الرغم من اهمية ذلك فان هذه التلبية تعنى الى حد كبير استفتاء شعبيا اجتماعيا

الحكومة الجديدة والذين من ورائها من قادة ثوار . وكنت كمصري على يقين بان هذا الاستفتاء سيكون فى صالح الحكومة الجديدة ، وذلك على الرغم من حوادث « كفر الدوار » التى حدثت في اواخر الاسبوع الثانى من شهر اغسطس عام ١٩٥٢ . اي بعد مرور ثلاثة اسابيع على قيام « حركة الجيش » ، والتى انتهت فى تلك الحوادث باعدام « مصطفى خميس » و « محمد البقرى » . وانا اذكر الغصة التي اصبت بها بسبب هذا الحكم الجائر ؛ ولكن سرعة الحوادث التي كانت تتوالى فى ذلك الحين الهت الناس عن مصير كل من خميس والبقرى ، وبخاصة بعدما صدر قانون الاصلاح الزراعى الذى كان محور احاديث اعضاء المجتمع فى تلك الفترة ومابعدها والذى اعفي على ماهر بسببه من رئاسة الوزارة فى يوم ٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ ، وخلفه فى الرئاسة الرئيس محمد نجيب . واعلن القانون فى يوم ٩ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ اى بعد تولى محمد نجيب رئاسة الوزارة مباشرة . هذا فضلا عن توقع اعضاء المجتمع المصرى اجراء الانتخابات في شهر فبراير عام ١٩٥٣ كما وعدت به الحكومة الجديدة على لسان الرئيس محمد نجيب . فقد بدا لى فى ذلك الحين ان الراى العام كان فى شوق شديد الى الحكم الديمقراطى السليم الذى لم يتمتع به الا نادرا . وكان الامل الكبير للشعب المصرى هو الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية ، وكنت كعضو من اعضاء هذا الشعب اترقب ذلك وارجوه . وعلى الرغم من الغصة التى اصبت بها بسبب اعدام « مصطفى خميس » و«محمد البقرى » فاننى وجدت نفسى اعمل مع الصاغ مجدي ساعات طوالا يوميا من اجل تنفيذ « مشروع معونة الشتاء » . كنت في صحة جسمية وعقلية ونفسية

تسمح بهذا العمل . واعتبرت وجودى بجوار الصاغ مجدى فرصة لارى واسمع عن قرب . وكم رأيت وكم سمعت ؟ الكثير الكثير والمختلف والمتباين . كنت ارى الضباط الكبار ورجال الفكر الكبار يأتون أفواجا وفرادى لكى يقدموا التحيات ويؤكدوا الولاء . وكان بعض هؤلاء الاخرين يكتبون ، وكنت استطيع ان اقرأ بعض ماكانوا يكتبون . وكنت اعجب لما كان يقترح . فبعضهم كان يرى أن تحكم البلاد كما كان « هتلر » يحكم المانيا ، وبعضهم كان يرى أن صدور قانون الاصلاح الزراعى هو خطوة الى الشيوعية . وكان بعضهم يكتب عن مصير قضية « مصر والسودان » وما يجب أن يكون عليه هذا المصير. وكان يأتى بعض الناس لكى يرووا ماوصلت اليه الحال من الفساد في جهة من الجهات . وجاء احدهم وهو يلبس « خرقة التصوف » ويعلق فى رقبته « بروازا » تطل منه « شهادة ليسانس في الحقوق » ، ويقول صارخا مترنحا : « اتركوهم لا تفعلوا شيئا . انهم سيخرجون وحدهم من مصر بلا رجعة . فلا تفعلوا شيئا . اتركوهم . لقد آن أوان جلائهم عن البلاد » ، وكان يقصد « الانجليز المستعمرين » . وجاء الذى كان الصاغ احمد حسان وانا في مؤسسة الزفاف الملكى وهو فى رتبة اللواء ويشغل منصب « حكمدار العاصمة» مودعا الى غير رجعة ، ولما رآنى لم يستطع أن يخفى الصدمة التى اصابته وبرزت آثارها فى عينيه . كنت جالسا بجوار الصاغ مجدي وكان هو واقفا يحيى ويودع . وجاء صديق ابى « اللواء عبد العزيز راشد » وسلمت عليه فى حب واحترام وترك المكان وهو يرى مصيره القاتم . واحسست ان مجرد جلوسى بجوار الصاغ مجدي قد اضفي علي شخصي الضعيف مكانة اجتماعية

لم اتذوقها فى حياتى من قبل . فكان يجيء الى اشخاص لا اعرفهم لكى اكون وساطة بينهم وبين الصاغ مجدى . كان من هؤلاء كبار موظفى رئاسة مجلس الوزراء وبعض كبار موظفى وزارة الشئون الاجتماعية ممن كنت أسمع عنهم ولا اراهم . وكان رجال الصحافة يأخذون صورا لى وحدى احيانا او مع الصاغ مجدى احيانا اخرى . وكانت تؤخذ صورنا ونحن فى صحبة الرئيس محمد نجيب فى المناسبات او فى غيرها . وكانت تنشر هذه الصور او بعضها فى الصحف . وانا اذكر احد موظفى رئاسة مجلس الوزراء الذى كان يتقن اللغة الانجليزية وكان يذهب الى الخارج فى المؤتمرات او من اجل اداء بعض المهام انه كان يأتى صباح كل يوم امام الصاغ مجدى ثم يقسم باغلظ الايمان بأنه ذهب بالامس الى ضريح « السيدة زينب » او الى ضريح « سيدنا الحسين » ودعا لتوطيد دعائم حركة الجيش . ويؤكد انه « كنس » الضريح حتى تجاب دعواته ، ثم يقدم الى الصاغ مجدى مايعن له من آراء ومقترحات اذا اطلع عليها احد لايرى بدا من ان يبتسم ساخرا . وزيارات الاجانب الى مبنى الرئاسة كانت لا تنقطع وفى يوم من الايام جاء « فوستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ، وقابل من قابل ، ورأيته عن كثب يرد على أسئلة الصحفيين المصريين وغير المصريين . كانت الحياة فى هذه البقعة من ارض مصر زاخرة بأنماط السلوك البشرية المصرية التى كانت تصدر عن المصريين من كل مكان ومن كل لون ومن كل مستوى . وكان يجلس معى فى الحجرة التى خصصت لى والتى توجد بها الخزانة التى احمل مفاتيحها ، الاستاذ احمد فؤاد الذى لم اره من قبل وعرفت انه كان يعمل فى القضاء وقد اسهم من قبل فى قيام « حركة

الجيش » . ولم يكن بيننا سوى التحيات . ولكنى كنت ارى فى يديه او على مكتبه كتبا كنت اعرف عنهـا الكثير . منها كتاب « ماذا حدث فى التاريخ ؟ » وكتاب « الانسان يصنع نفسه » وقد الفهما « البروفسور جوردون شيلد » عضو الاكاديمية البريطانية . ورايت ايضا على مكتب الاستاذ احمد فؤاد كتاب كل من « سيدني و ب وزوجته بياتريس » وموضوعه «شيوعية السوفيت » ، وهو كتاب معروف نشر فى عام ١٩٣٥ عقب زيارتهما للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٣٢ ، وفيه غيرا رايهما عن « مذهب التطور او التدرج » الذى ظلا يعتنقانه ويخلصان له من قبل هذه الزيارة زمنا طويلا . وتأكد لى شيء عن فكر هذا الرجل وبخاصة عندما كان يزوره « الدكتور راشد البراوى » ويتحدثان معا دون أن يسمعهما احد . وكان الدكتور البراوي معروفا بميوله الماركسية . وزاد تأكيدي لما وصلت اليه عن فكر الاستاذ احمد فؤاد ماعلمته فى ذلك الحين من بعض الثقات من انه كان مندوب الاتصال بين الضباط الاحرار وبين المنظمات الشيوعية المصرية وعلى راسها منظمة « حدتو » « الحركة الديمقراطية لتحرير الوطن » . اما هو فلم يكن يعلم عني شيئا . ولعله كان يرى اننى مواطن يساعد الصاغ مجدى فى مشروعاته ويحمل مفاتيح خزانته . وتأكد لدى هذا عندما جاء مع بعض الضيوف لزيارة « المعهد القومي للبحوث الاجتماعية » الذى تم انشاؤه فى عام ١٩٥٦ عندما زارنى فى مكتبى بصحبة المدير ورآني ورأيته وبدا من سلوكه كأنه يرانى لاول مرة . وقد كنت قد عينت فى هذا المعهد عقب عودتى من الولايات المتحدة مباشرة بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة ..

وفى اثناء وجودي في رئاسة مجلس الوزراء في ذلك الحين ، ولدت فكرة مشروع « مديرية التحرير » . وكان الصاغ مجدي مهتما جدا بهذا المشروع . وفى يوم من الايام دعا الصاغ مجدي بعض مدرسي كلية الهندسة من جامعة الإسكندرية . وجاء ثلاثة منهم على ماأذكر وكان من بينهم الدكتور « عزيز صدقى » . وبعد أن شرح الصاغ مجدى فكرة المشروع وجدت أحدهم ، ولم يكن الدكتور عزيز ، يقول متحمسا وموجها كلامه الى الصاغ مجدي بانه مستعد للاسهام بشرط أن لايضطر الى ترك عمله الاكاديمى فى الكلية . وانا لا اذكر اسم هذا المهندس ولا اذكر اسم المهندس الثالث . واذا كنت قد ذكرت اسم الدكتور عزيز فان ذلك يرجع الى انه الوحيد الذى قبل العمل عن طواعية فى المشروع والتفرغ له . ومالبث الصاغ مجدى ان عهد اليه بأن يشرف على تنفيذه . وسرعان ما اعدت حجرة خاصة له لكى يقوم بعمل الرسومات الهندسية الضرورية او ليشرف على عملها بعد زيارة المكان الذى يرى هو أو معاونوه انه المكان الانسب لاقامة مديرية التحرير .

كانت حياتى اليومية فى ذلك الحين مشحونة بالعمل وبالمسئولية . فانا احمل فى حقيبتى مبلغا كبيرا من المال نقودا وشيكات جاءت كلها من التبرعات لمشروع معونة الشتاء ، وعندما تسلمت مفاتيح الخزانة كنت مسئولا لا عن هذا المبلغ فحسب « الذى وضعته فيها » بل ايضا عن اشياء اخرى ، منها على سبيل المثال بعض الساعات وبعض اقلام حبر « باركر » وعدد كبير من « دبل الخطوبة » كان فى لحظات حماس جارف قد تبرع بها بعض الضباط المتزوجين وغير المتزوجين لدعم المشروع . ومن العجيب أن الكثير من هؤلاء

الضباط جاءوا بعد ان فترت حدة الحماس يطالبون باخذ ما اعطره . وقد قمت بعد موافقة الصاغ مجدى برد ما اعطوا . وكنت اعمل ايضا مع السادة الضباط المشرفين على تنفيذ المشروع وبعض الموظفين الآخرين . كان ذلك فى سراى ارض المعارض بالجزيرة . ويرجع قيامي بالعمل الاخير الى مفاجأة كانت قد حدثت بعد الانتهاء من التخطيط للمشروع وبداية عملية تنفيذه . كنت مع الصاغ مجدى فى رئاسة مجلس الوزراء حين رايت الضابط « حمزة البسيونى » وكان برتبة «صاغ» ومعه ضابطان ورتبة كل واحد منهما « ملازم أول » . رايتهم يدخلون من الباب العمومى الصاغ حمزه فى الوسط وكل ضابط من الضابطين على احد جانبيه . ورآهم معى الصاغ مجدى فقام من مكانه لاستقبالهم باسما ثم ضاحكا وهو يترنم بالنشيد المشهور :

« ياعم حمزه . احنا التلامذه »

وفوجىء الجميع عندما سلم على الصاغ حمزة بحرارة واكد بذلك بانه يعرفنى . وانا كنت اعرفه منذ عام ١٩٤٢ عندما كنت مديرا لمؤسسة الزفاف الملكى وكان هو ضابطا برتبة « الملازم الثانى » فى « الجيش المرابط » الذى كان موقعه بجوار مبنى المؤسسة مباشرة . كان فى معسكر الجيش المرابط « تليفون » ولكن الملازم حمزة الذى كان فارع الطول ذا وجه وسيم وشوارب صفراء اللون ذات حجم يلفت الانظار لا يحلو له الا ان يتحدث من تليفون المؤسسة . كان يتحدث يوميا بالتليفون مرة او مرتين او اكثر . وكان يتبرع بدفع نقود نظير كل محادثة تليفونية . لم اكن ادري من الذى يتحدث معه ولم يكن يهمنى ان اعرف . وكان يحدثنى عن الجيش المرابط وعن بعض احواله الشخصية . فهو لم يتزوج

ولكنه يحب سيدة متزوجة . وتراه يقسم لى باغلظ الايمان بأنها اذا ماطلقت فانه سيتزوجها فى الحال . وفى يوم من الايام جاءنى يتحدث عن نقص فى العهدة التى هو مسئول عنها وكانت كلها « بطاطين » . فما كان منه الى أن مزق البطانية الى نصفين وحسب كل نصف وكأنه بطانية . وبذلك خرج من المأزق . وفى يوم آخر ذكر لى ما افزعنى وذلك انه كان فى النادى والمسدس « الذى هو عهدته معه » فاذا بالمسدس دون ما قصد ينطلق فتخرج منه رصاصة فتقتل زميلا . واذا كنت انا قد فزعت حقا فقد كان هو غير مبال . انه لم يقصد ولتكن نتيجة التحقيق ماتكون . وتركت المؤسسة فى اواخر ديسمبر عام ١٩٤٣ الى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث . ومرت الايام وجاءت الحرب الاولى لفلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وسافرت الى لندن للمرة الاولى وعدت فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ ، وفى خلال الفترة التى تلت ذلك سافرت الى لندن للمرة الثانية فى شهر فبراير عام ١٩٥١ — فى خلال هذه الفترة قابلت الصاغ حمزه فى ميدان العتبة الخضراء .. وبدا لى وجهه متغيرا فقد اصيب فى المعركة فى خده ومع ذلك فقد ظل وجهه غير قبيح . وكانت مقابلة حارة . ولم اره بعد ذلك الا وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء عندما رآه الجميع وهو يسلم على بحرارة وبابتسامة عريضة !! ولان رتبة حمزة البسيونى كانت أعلى فأصبح المسئول عن توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية . وعرفت أنه كان احد الضباط الاحرار . وكان احد ضباط سلاح خدمة الجيش وقد اشرف ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ على اعداد سيارات النقل التابعة للسلاح التى كانت تحمل الذخائر وكذلك عربات نقل الجنود لنقل

سرايا الكتيبة ١٣ الى مواقعهم فى تلك الليلة . اما الضابطان الآخران اللذان كانا يصحبانه ويعاونانه فى عمليات توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية فقد كانا الملازم اول ابراهيم اسماعيل ابراهيم والملازم اول محمد عبده الشنارى . وكانا ايضا من الضباط الاحرار وقد لعبا دورا خطيرا فى نفس هذه الليلة مع الصاغ مجدى حسنين . وكان هذا الدور احتلال « اذاعة ابى زعبل ».
وقد كنت اعمل مع هؤلاء الضباط عندما كانت ترد التبرعات العينية المختلفة من بيوت المصريين القادرين او من محلات بيعها او تصنيعها حتى ملئت كل او معظم الحجرات او السرايات فى أرض المعارض بالجزيرة . وضم الى هؤلاء الضباط احد الضباط الجدد وكان برتبة ملازم ثان ، وفوجئت بحضور الضابط جمال زكى وكان برتبة اليوزباشى . ولم يكن الضابطان الاخيران من الضباط الاحرار . وبدا لى ان الضابط جمال زكى قد سعى سعيا حثيثا لكى يكون احد المنفذين للمشروع ، ولم اكن اعرفه من قبل وان كنت اعرف اخاه دكتور سيد زكى الذى كان يحاول بدوره أن يتصل برجال حركة الجيش بكل الوسائل . وبالاضافة الى هؤلاء انتدب بعض موظفى مصلحة المهمات للقيام بأعمال الفرز والاصلاح وغيرها لما يأتى من التبرعات العينية . وقد رأيت ان اولى الجهات بالتبرع لها هى الجمعيات الاهلية التى تشرف على العديد من الاعضاء فى الاحياء المختلفة بمدينة القاهرة ، ثم عندما وجدت ان نوع بعض الملابس وبخاصة « البلاطى والبدل والاحذية » نوع جيد ويكاد ان يكون جديدا ، اقترحت ان نتبرع لطلبة الجامعة المحتاجين على شرط ان نحرص على السرية التامة خشية ان يذاع اسم احدهم . وكانوا فى ضوء كشوف قدمت

من الجامعة يأتون فرادى ، وكنت ترى الواحد منهم يدخل الحجرة لينتقي مايليق به من ملابس ثم يستلمها دون ان يراه احد . وفي كل صباح كانت تأتي العربة التي كانت تحمل الملازم أول ابراهيم اسماعيل ، وكان يسكن في « الخرنفش » ، الي حيث اسكن في «الدراسة» ونذهب مع السائق الى ارض المعارض لنعمل او نحاول ان نعمل عملا رشيدا . وانا اقول ذلك لانه لم يكن كل ما عملناه يتفق مع الخطة التي وضعتها وتم الاتفاق عليها . كان حمزه البسيوني يفعل مايشاء ولا يبالي . لقد اغضب الجميع بتصرفاته بطريق مباشر احيانا او بطريق غير مباشر احيانا اخرى . لم يستثن واحدا . وكان العسكري « المراسلة » موضع سخطه احيانا وفي لحظات تجده موضع رضاه . وقد رايته يضرب هذا المراسلة بكل قواه ضربا مبرحا حتى بدأ يلهث ، وعلى الرغم من محاولاتي العديدة لمنعه من مواصلة الضرب رأفة به وبالمراسلة فانه كان يستمر ، ولكنه كبشر أصابه التعب الشديد فجلس ليستريح . ثم نادى بعد فترة على المراسلة واعطاه نقودا وتفضل عليه بأجازة ٤٨ ساعة ! وانا اذكر انه عندما قبض على بعض ضباط سلاح المدفعية في خلال شهر يناير عام ١٩٥٣ ، طلب مني الصاغ حمزه ان يرافقني الي حيث اقيم ، وركبت معه العربة التي ساقها بنفسه ثم فاجأني بخبر القبض على هؤلاء الضباط وكان أغلبهم من الضباط الاحرار ثم اراني مسدسا كان يحمله وصاح مهددا انه لن يسعه الا أن يفرغ رصاصات هذا المسدس فيمن يجرؤ على القبض عليه ! وكنت على الرغم من سابق معرفتي بالصاغ حمزه اقرب الي قلب كل من الملازم أول ابراهيم اسماعيل والملازم أول محمد عبده الشناوى . احببتهما حبا

انسانيا ووطنيا . وبخاصة عندما كانا أو كان احدهما يقص على دوره فى ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وقد ذكر لى أحدهم وكان متزوجا حديثا وانجب ابنة فى شهورها الاولى أنه بعد ان اتم مهمته جلس وحده واضعا راسه بين كفيه وسرح فكره بعيدا فوجد نفسه وقد قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالاعدام ، وبدا له هذا المستقبل القاتم الخيالى وكانه حقيقة ، فذكر ابنته الطفلة كما ذكر زوجته وذويه الاقربين وتساءل ما الذى كان يحدث لهم لو ان هذا كان حقيقة فعلا . وعندما غضب أحد هذين الضابطين من تصرفات الصاغ حمزه التى مسه منها بعض الرشاش ذكر لى وكأنه يقلل من شأن الدور الذى قام به الاخير فى ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، انه بعد خروج سيارات النقل ذهب « يقصد الصاغ حمزه » الى الحجرة لينام وكأن ماحدث لم يحدث اى ليخفى اية شبهة عن اشتراكه فى اى عمل من الاعمال التى كان عليه أن يقوم بها كاحد ضباط الاحرار . ولم يدر بخلد هذا الضابط ان الصاغ حمزه سوف يؤدى فى المستقبل القريب والبعيد ادوارا اخرى اعظم خطرا . ولم يدر بخلده أيضا أن هذا الرجل ذو شخصية سيكوباتية وأن وقوع الاختيار عليه ليقوم بالادوار المستقبلية كان اختيارا موفقا . وكان من هذه الادوار كما حدث بعد ذلك ان يقوم الصاغ حمزه بادارة « السجن الحربى » واستقبال المعتقلين فيه من ذوى الرأى ومعاملتهم المعاملة التى لاتليق بآدمى . ولم أكن فى مصرنا الخالدة فى ذلك الحين ، فقد سافرت الى الولايات المتحدة فى خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ حتى آخر يوم من شهر مايو عام ١٩٥٦ لاكمال دراساتى العليا من أجل الحصول على

درجة الدكتوراه . ولكنى عندما عدت علمت من الكثير عما فعله حمزه البسيونى . كان اسم هذا الرجل على السنة الجميع ممن أعرف وممن لا اعرف . وقيل لى ان ما فعله لا يمكن لأحد ان يصفه ، واذا استطاع فان وصفه يحتاج الى مجلدات تنضح بالتعذيب والارهاب والمعاملة غير الانسانية . وانا اذكر اننى بطريق الصدفة عرفت رقم التليفون الخاص بحمزه البسيونى . وكنت ارفع السماعة واطلب الرقم ثم اضع السماعة توا ، وذلك لأن ما سمعته جعلنى اتصور ان هذا الرجل قد اصبح وحشا كاسرا . وكان لهذا التصور اثر فى نفسى . لقد قابلت بعض من عذبهم ، وروى كل واحد منهم ماحدث له او حدث لرفاقه فى السجن الحربى . لم اكن ادهش فانا اعرف الرجل ، اى اننى اعرف شذوذه العقلى والنفسى . ولكنى كنت كمصرى فى ضوء ثقافتى المصرية انفر واحزن حزنا شديدا . وعولت على الاتصال به . واتصلت به فعلا تليفونيا ، وبدا ظرفه وهو يتحدث معى ووافق على مقابلتى فى السجن الحربى وحددنا الموعد للقاء ، وذهبت فى الموعد المحدد . كان الدافع الى مقابلته ان اراه وان اتحدث معه فقط ، وان اذكره بالايام الماضية لعلى ان اعلم عن شخصيته اكثر . واننى انتظرت امام باب السجن الحربى قبل ان يفتح اكثر من نصف ساعة . وكانت الشمس تتاهب للغروب . وكان الزمن خريفا فى عام ١٩٦٠ بعد عودتى من الولايات المتحدة بسنوات . وفجاة فتح الباب وقادنى احد العساكر الى مكتب حمزه البسيونى . ووجدته جالسا على اريكة وكانت جثته قد تضخمت كثيرا ، وبدا لى وكانه احد القراصنة فقد كان يغلق احدى عينيه ويفتح الاخرى . وتاكدت منذ اللحظة التى وقفت فيها علي باب السجن من اننى كنت مراقبا .

وقام ليسلم على وطلب لى فنجانا من الشاى . وعندما جلست وجدتنى أنظر الى حوائط الحجرة فاذا عليها صورة « جمال عبد الناصر » وصورة « عبد الحكيم عامر » ولافتات فيها بعض العبارات الشائعة . ولم يخل حائط من لافتة مكتوب عليها عبارة مثل « يارب استر » و « سترك يارب » و « الستر ياكريم » . وفى اثناء تعاطى الشاى وقبل ذلك كنا نتحدث سويا . وقد بدات الحديث ، أولا ذاكرا له عن احوالى وماذا اعمل فى الوقت الحاضر . وماذا كنت اعمل فى الفترة التى تركت فيها مصرنا الخالدة . وبدأ يتحدث حمزه البسيونى عندما سألته عن زواجه من السيدة « المتزوجة » التى كان يرغب فى زواجها اذا ماطلقت .. فقال انه تزوجها فعلا ولكنه بعد فترة طلقها . واكد لى انه لا يتعاطى خمرا او مخدرات من نوع ما . واكد لى ايضا انه لايذهب الى مسرح او الى سينما . وصرح بأنه مثل المعتقلين فى السجن فهو فى حقيقة الامر معتقل ايضا ، واراني سريرا حجرة جانبية وذكر انه لا يبرح السرير الا اذا كان هناك عمل يقتضى وجوده فى مكان آخر . وقال مؤكدا أن مافعله لايلام عليه فانه ان لم يكن قد فعله كان غيره بالضرورة قد فعله . وسرعان ما قلت له اذن فانت الآن تستطيع ان تنام دون ماقلق . فأكد على صحة قولى . وكان هذا التأكيد يؤكد على انه شخص ذو شخصية سيكوباتية يبرر كل تصرفاته ولا يندم على اى منها فالقيم اية قيم لا تقف حائلا فى سبيل اى عمل يقوم به ولعل من يتاح له فرصة الاطلاع على ملف خدمة هذا الطاغية ان يجد الكثير الكثير مما يبرر هذا الوصف . وهو كشخص سيكوباتى تراه كريما ذا ابتسامة جذابة . ومكثت معه منذ الساعة السابعة مساء حتى الساعة العاشرة مساء ،

وكنت فى اثناء هذه الفترة الطويلة تحت المراقبة . كان باب الغرفة التى نجلس فيها « مواربا » وكان جندى يحمل السلاح يمر عليها بين لحظة واخرى . وفى اثناء هذه الفترة كنت أحاول ان استاذن فكان يلح على بالجلوس ويطلب مشروبا آخر . وقد تعاطيت بعد الشاى فنجانا من القرفة ، ومرة ثانية فنجانا من الشاى . وبدا لى كما اذكر ان وجودى معه ذكره بالماضى الذى لم يكن ابيض ناصعا ولكنه افضل من الحاضر الاسود وان كان يبرز عوامل هذا السواد . وكان يتحدث عن عبد الحكيم عامر بقوله « الراجل الكبير » . وعندما ذكرت له عن عوامل عدم تركه الجيش مثل العديد غيره من الضباط الاحرار قال وكانه يفتخر صائحا : لقد طلب منى ترك الجيش وانا رفضت ، لاننى افضل العمل بالجيش عن اى عمل آخر . وكان عندما زرته قد وصل الى « رتبة اللواء » . ولم يعلم هذا الرجل ابدا ان الاختيار وقع عليه لانه خير من يقوم بأعمال الارهاب والعنف والتعذيب ومعاملة الشرفاء معاملة غير انسانية . انه فى ضوء تاريخه الذى اعرفه ، وكان هذا الذى اعرفه قليلا جدا ، وفى ضوء مواقفه التى ذكرت بعضها بالتفصيل قبل ذلك ، كل ذلك وغيره يؤكد عبقرية من وقع اختياره عليه ليكتب لنفسه صفحة قاتمة مع الذين قاموا بمثل اعماله سواء كانوا من المصريين او من غير المصريين . ان مآل هذا الرجل والآخرين امثاله « زبالة التاريخ » حتما . ولعله ان يكون عبرة لغيره .

وانا اذكر فى عام ١٩٦٤ فى شهر يناير على الارجح اننى كنت فى مدينة « نيش » بجمهورية يوغسلافيا . كنت ازور سجنها المشهور ، ومكثت اياما ، وفى اثنائها زرت « برج الجماجم الادمية » الذى شيده « خورشيد

باشا » - لعله ان يكون هو نفس أحمد خورشيد باشـــا
الذى كان واليا على مصر حتى عام ١٨٠٥ بعد أن خلعه
المصريون وولوا محمد علي » القائد التركى فى عـــــام
١٨٠٩ . شيده من جماجم المصريين الاحـــرار الذين
قاتلوه كمغتصب في سبيل استقلال وطنهم . قاد الزعيم
الثائر « ستيفان سنجاليتش » جنوده المصريين ضـــد
الاتراك المستعمرين . وكان عدد الجنود المصريين ثلاثة
آلاف مقاتل . وكانوا يقاتلون حوالى ١٨٠٠٠ من الجنود
الاتراك بزعامة خورشيد باشا . واستغرق القتال نحو
اثنتي عشرة ساعة مات الصربيون فى خلاله ماعـــدا
ستيفان سنجاليتش وحوالى خمسين مقاتلا صربيا .
ولم يستسلم الاخيرون . بل واصلوا القتال حتى قتلوا
جميعا ومات معهم حوالى مائتين من الجنود الاتراك .
وقد ضرب الصربيون الثائرون مثلا وطنيا رائعا جعـــل
خورشيد يفكر ويقدر . وعرف أن خصومه لا يخشون
الموت . فالموت عندهم أصل الحياة . واذا هان الموت
وهبت الحياة . وكان خورشيد أنانيا لانه كان طاغية لم
يذكر الا نفسه وكرامته وهيبته . وكل هذه ترهات لايأبه
بها الزمن . ولا يعترف بها الا الاغبياء . فماذا فعل هذا
الانانى الطاغية ؟ اتخذ من الطاغية « تيمورلنك » مثالا
يحتذى . الم يبن تيمورلنك سورا من جماجم أعـــدائه
ليرهبهم ؟ فليفعل هو ذلك . وليتمسك بهذا الســـلاح
الواهى . وكان ماكان . وقد بنى هذا البرج فى عـــام
١٨٠٩ ، وتبلغ مســاحته اربعة اقدام مربعة وارتفـــاعه
خمسة اقدام . بنى هذا البرج وكانت ادوات البنـــاء
الرئيسية ٩٥٢ من الرءوس الادميـــة وبعض الطـــين
والحجارة . ولعل هذا المعتوه ان شفى غليله . ولعل هذا
الانانى الطاغية ان تصور ان هذه هى نهاية الاحرار . ومن

يذهب الى مدينة نيش يجد هذا الاثر قائما . ولعل من يذهب الان يجـــد ٦٢ من الرءوس الادمية فقط . فالحائط الشرقى للبرج قد تحطمت جماجمه بســبب الرياح الشرقية . ومن يذهب الان الى مدينة نيش يجد ابناء الضحايا او ابناء ابنائهم يعيشون حيــاة الاشراف المستقلين ، يبنون حضارتهم من البانين من ابناء جمهورية يوغسلافيا . ومن يذهب الآن الى مدينة نيش يجـد حتما اللعنة الابدية التى اختارها خورشيد لنفســه . تصب جامها ، بكل اللغات على ام راس هذا الملعون .

ولا اخفى على القارىء شيئا فقد زرت هـــذا الاثر ثلاث مرات . ولم اكن اتصور عندما سمعت عن وجوده ان ترى عيناى ما رأتا . ما اشنع مارايت فى كل مرة . فلم تكن الجماجم كلها فى هذا البرج الذى بنــاه الملعون سليمة . فقد تركت عوامل التعرية ، بمرور الوقت ، بصماتها عليها . فترى بعض هذه الجماجم قد تهشــم وتحطم او كاد .. لم يبق منه سوى ماكان يمكن ان يكون العيون او الجباه أو الانوف او الافواه . ومع ذلك فقد ترى بعض هذه الجماجم سليما . يكاد أن ينطق بالوان العذاب التى لاقاها اصحابها . وآه من فتحات الافواه فى هذه الجماجم . وآثار تقلصات الشفاه ألتى مــات اصحابها عليها . وآه من بقايا الصرخات ألتى كانت . وآه من سمات الهلع التى تبدو . وآه مما كانت تقول للرائى .

وفى كل مرة كنت ازور برج الجماجم الآدمية عندما كنت فى مدينة نيش فى جمهورية يوغسلافيا ، كنت اتذكر حمزه البسيونى . او فى الواقع كنت اتذكر من كانوا يستعملونه . وكنت اردد صامتا أبيات الشعر التى

قالها الشاعر الفرنسي « لامارتين » عندما زار هذا البرج في عام ١٨٣٣ وتتضمن :

« فليحتفظ الشعب العربي بهذا الاثر .. انه سيعلم اطفالهم القيمة التي تتضمن استقلال شعب .. وانه سيريهم فداحة الثمن الذي دفعه آباؤهم في سبيل هذا الاستقلال » .

وهاهو ذا الشعب العربي العظيم قد اصبح يمسك زمام امره على الرغم من الاتراك ، وخورشيد واحد منهم ، وعلى الرغم من « هتلر » وزمرته من الفاشيين وغيرهم وعلى الرغم من التجارب الرهيبة التي عاش بلاياها واهوالها فما جدوى الاستبداد والظلم اذن ؟ ما جدوى ارهاب حمزه البسيوني وتعذيبه ومن حذا حذوه اذن ؟ الا يبدو استبداد هؤلاء الطغاة ، ومن يستعملونهم ، بالناس وظلمهم اياهم وارهابهم وتعذيبهم ليست كلها ، على الرغم مما يبدو من بعضها من شر ، شرا مطلقا . ان المواقف وحدها هي التي تقرر الشر وهي التي تقرر الخير . ان مايبدو خيرا في موقف معين هو الشر بعينه في موقف آخر . والعكس صحيح . ان ماقصده حمزه البسيوني والذين كانوا يستعملونه كان شرا مطلقا مافي ذلك من شك . ولكنه ومن كانوا من ورائه كانوا في ضلال . والتاريخ وحده هو الحكم والشعب المصري العظيم سيبقى أبد الدهر عظيما .

وفي اثناء وجودي في مبنى رئاسة مجلس الوزراء حدثت احداث كثيرة هزت ثقة العديد من المصريين المتفائلين . كانوا وانا منهم يتوقعون اجراء الانتخابات في شهر فبراير عام ١٩٥٣ ، ولكن الشعب المصري

فوجىء فى يوم ١٠ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٢ بقيام « مجلس الثورة » بالغاء دستور عام ١٩٢٣ . وفى يوم ١٧ من شهر يناير عام ١٩٥٣ اعلن هذا المجلس عن فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات وعلى ان تؤجل الانتخابات البرلمانية حتى انتهاء هذه الفترة . وفى الوقت ذاته تقرر حل الاحزاب والهيئات السياسية ومصادرة اموالها فيما عدا « جمعية الاخوان المسلمين » باعتبارها منظمة دينية خاصة . وفى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ اعلن الدستور المؤقت لفترة الانتقال والذى سيحل محل دستور عام ١٩٢٣ . واعطى هذا الدستور سلطة السيادة لقائد الثورة فى مجلس قيادة الثورة « كقيادة جماعية » وبصفة خاصه التدابير التى يراها ضرورية لحماية الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافها . واصبح لمجلس الوزراء الحق فى ممارسة السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية . واما رسم السياسة العامة للدولة فيقوم به مؤتمر مشترك ينعقد من اعضاء مجلس قيادة الثورة وأعضاء مجلس الوزراء . وقد اعلن فى الوقت نفسه عن قيام « هيئة التحرير » كتنظيم سياسى ليشغل الفراغ الذى سينتج عن حل الاحزاب فى خلال فترة الانتقال .

احداث كثيرة سريعة لم يكن يتوقعها الكثير وان كانت قد دلت على ماكان يهدف اليه من قاموا بحركة الجيش التى ولدت ماسمى ب « مجلس الثورة » عندما اعلن ان هذه الحركة ان هى الا ثورة . وقد كان تاثير كل ذلك على كمواطن يرنو الى حرية أهل بلده الذين عاشوا فى ظل الحكم الاجنبى منذ « قمبيز » اى منذ عام ٥٢٥ق.م .

حتى قيام محمد نجيب بأعباء الرئاسة كمصرى لاول مرة كان التاثير عنيفا حقا . ولكن الامل فى المستقبل المشرق لبلادى ظل يداعب خيالى ، وبخاصة عندما اعلن مجلس قيادة الثورة الغاء النظام الملكى وقيام الجمهورية بدلا منه فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ . لقد سمعت هذا الاعلان فى الاذاعة وكان يعلنه « الاستاذ يوسف وهبى » بصوته الجهورى . ولم البث ان تذكرت « رفاعة الطهطاوى » الذى كان فى باريس وقت قيام ثورة عام ١٨٣٠ وعزل فيها الملك « شارل العاشر » ، وتذكرت ايضا موقفه منها ، كما تذكرت قوله :

« ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : ان ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع ! »

وعلى الرغم من عواطفى ومشاعرى وآلامى وآمالى وما وقفت ضد الاخيرة من حوادث وحادثات ، فاننى لم اكن اتوانى عن الذهاب الى دروس المعهد البريطانى ، وبخاصة بعد أن وضح امامى ماكان غامضا على من قبل. بل بعد ان وضح امام جماهير مصرنا الخالدة ماكان غامضا عليهم من قبل ، فقد برز اسم « جمال عبد الناصر » واصبح بعد اعلان الجمهورية اسما لامعا . وعندما اعلنت الجمهورية اعيد تشكيل الوزارة وقبل رئاستها « الرئيس محمد نجيب » واصبح جمال عبد الناصر الذى كان مجرد مدير مكتبه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة « قرار مجلس قيادة الثورة فى يوم ١٩ من شهر مايو عام ١٩٥٣ » ، كما اصبح « الصاغ » عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة مع منحه رتبة اللواء وذلك بدلا من محمد نجيب الذى رئى أن يكتفى برئاسة الجمهورية

والوزارة مع رئاسة مجلس قيادة الثورة ! وقد عين جمال عبد الناصر فى الوزارة المشكلة بعد اعلان الجمهورية وزيرا للداخلية . ورأيت الاستاذ احمد فؤاد قد اختفى من مبنى رئاسة مجلس الوزراء ليكون مديرا لمكتب وزير الداخلية . وقد تولى الصاغ ابراهيم الطحاوى واليوزباشى أحمد طعيمة ادارة هيئة التحرير ، وقد ضم اليها الملازم محمد عبده الشناوى الذى كثيرا ما دعانى الى زيارة ادارتها ولكنى لم افعل ذلك .

كنت اذهب الى الدروس مساء وكان قلبى مفتوحا وبخاصة بعد ان تسلمت الكتب التى شحنتها فى ميناء مرسيليا ، عن طريق « شركة كوك » من جمارك الاسكندرية دون اية عوائق . كنت سعيد الحظ فعلا . فاننى عندما كنت ارتبها فى الحقائب وانا فى لندن معتزما العودة الى القاهرة ، لم اكن اعرف بل لم اكن اتوقع قيام حركة الجيش التى اصبحت ثورة ٢٣ يوليو فيما بعد . كنت فى ذلك الحين كما يذكر القارىء فى يوم ١٨ من شهر يوليو على التحديد فى ميناء « الدوفر » بانجلترا وانا فى طريقى الى باريس ثم الى مرسيليا ... الخ . وكنت سعيد الحظ لان حركة الجيش التى قامت فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ كما أطاحت بالملك فاروق أطاحت أيضا بالرقابة على الكتب فى الجمارك . وما اسعدنى عندما تسلمت تصريح الخروج من « بوابة » الجمارك وانا اركب « عربة الحانطور » الى محطة السكة الحديد لكى الحق بالقطار الذاهب الى مدينة القاهرة الحبيبة . كنت وانا أحتضن الحقائب وكأننى احتضن متعات الدنيا المعنوية كلها . كانت كتبى

دنياى وحياتى المعنوية والبوصلة التى ارشدتنى الى الطريق الاقوم والتى فى ضوء التجارب والخبرات كنت ارجو ان تظل كذلك . وبالاضافة الى كل ذلك فاننى فى اوائل عام ١٩٥٣ سارعت الى كتابة طلب خاص بمنحة دراسية الى الولايات المتحدة لمدة عام واحد . وكان من شروط الحصول على هذه المنحة النجاح فى امتحان اللغة الانجليزية ثم مقابلة لجنة مكونة من امريكيين ومصريين تطبق نوعا من الاختبار على كل طالب . ومقابلة هذه اللجنة مشروطة بنجاح الطالب فى امتحان اللغة الانجليزية . وكان شهر يونيو عام ١٩٥٣ شهرا مليئا بالامتحانات عندى . فانا فى خلاله جلست الى امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية : جامعة لندن » وجلست ايضا امام لجنة المنحة بعد نجاحى فى امتحان اللغة الانجليزية بتفوق . ولم ألبث ان عرفت رسميا باننى حصلت على المنحة الدراسية وكان ذلك فى اواخر شهر يونيو عام ١٩٥٣ . وكنت انتظر نتيجة امتحان الدبلوم وانا جد متفائل . وظهر امامى فى ذلك الحين مخرج لازماتى النفسية التى عانيت منها وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء وفى ارض المعارض بالجزيرة فى اثناء حملة معونة الشتاء التى انتهت بمجرد انتهاء فصل الشتاء وتسليم المشروع الى وزارة الشئون الاجتماعية . وبعد ان لاحظت اننى اصبحت وحدى اقوم بالعمل مع الصاغ مجدى كلما دعت الضرورة الى ذلك وبخاصة بعد ان اودعت المبالغ المجموعة على ذمة هذا المشروع فى بنك مصر باسم الرئيس محمد نجيب بعد ان تكونت لجنة خاصة للقيام بعملية التسليم والتسلم ، وبعد ان سلمت

عهدتي ومفاتيح الخزانة الى الصاغ مجدي .
وحصولى على المنحة الدراسية جلب الى وجع دماغى عدت الى حيرتى التى تجىء وتذهب كلما بان فى الافـق مايبسر سفرى الى الخارج لكى اكمل دراساتى العالية . اسرتى الصغيرة كانت اول ما فكرت فى مصيرها عنـد غيابى . احمد اصبح فى التاسعة عشرة من عمره وبدا دراسته الجامعية وآمال قد بلغت سن السادسة عشرة وسمير اصبح فى سن الرابعة عشرة وتيسير قد بلغت سن الثانية عشرة ومسعد قد بلغ سن العاشرة ومعهم زوجتي الشابة والجميع يعيشون فى شقة متواضـعة فى حى الدراسـة . ان ابنائى كانوا فى عمر الزهور . انهم فى مسيس الحاجة الى الرعاية والعناية . ان دورى كأب يحتم على ان امارس ابوتى ، وان من حقهم على ان اكون بجانبهم لكى يشعروا بالامن والامان . ان من حق زوجتى ايضا ان لا اتركها وهى فى عنفوان شبابها . لقد بلغت سنها الاربعين او كادت . سن خطير مافى ذلك من شك . اما انا اذا ماسافرت فاننى سأواجه المجهول وما اصعب هذه المواجهة . صحيح اننى جربت ذلك من قبل ، وان تجربتى قد زودتنى بالكثير مما يجعلنى فى حصن حصين من المغريات . ولم تكن تجـربتى فى السفر وحـدها بل كانت كل تجاربى وبخاصة بعد ان مات ابى فى يوم ١٨ من يناير عام ١٩٣٠ . اى منذ حوالى ٢٣ عاما او يزيد . كل ذلك كان قد اضفى على الكثير من الثقة فى نفسى والتعود على مواجهة الحياة بحلوها ومرها وحـدى . ودراساتى الاكاديمية فى لندن وفى المعهد البريطانى فى القاهرة وقبل ذلك فى مدرسة الخدمة الاجتماعية واعمالى التطبيقية فى ميدان الاحداث الجانحين حيث أتيحت لى الفرصة لكى أطبق طريقتى فى خدمة الجماعة وخدمة

الفرد فضلا عن البحث العلمى الاجتماعى ـ كل ذلك قد صاغ شخصيتى لكى تعرف اكثر وتفهم ما يواجهها فهما موضوعيا . ان بصمات أساتذتى منذ الفترة التى كنت اجلس بين يدى الامام الشيخ محمود خطاب ثم بعد ذلك الفترة التى عملت فيها تحت رئاسة السيده الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام ، ثم فى لندن فى اثناء جلساتى مع استاذى البروفسور جون لويس سواء كانت فى قاعة المحاضرات او فى محل اقامتى ، وجلساتى مع الاستاذ ترى نيومان فى منزله ومع أصدقائه المثقفين من الشباب . كانت هذه البصمات ، ومازالت ، محفورة فى محددات شخصيتى الثقافية الاجتماعية . وخبراتى العديدة منذ ان عدت الى القاهرة اواجه ثورة يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، بل وأسهم فى بعض نشاطاتها ، اضافت الكثير ، على الرغم من قصر المدة ، الى الخبرات السابقة . وخرجت من كل ذلك بنتيجة واحدة هى انه مازال ينقصنى الكثير ، وان اكمال دراساتى العالية قد اصبح ضرورة . وبدأت اعيش احلامى من جديد . واعتذرت لنفسى ولابنائى ولزوجتى فأنا لا ابغى الا ان اتعلم لكى اعلم ، والاباء والازواج فى كل مكان يجندون من أجل اهداف لا انسانية يجد فى تحقيقها تجار الحروب وانا قد جندت نفسى لكى اعمل عملا صالحا من اجل مصرنا الخالدة . من اجل ابنائها كلهم وبخاصة ابناء الثورة الجديدة . انني كنت ارتعد خوفا وهلعا من مصيرهم . ان كل ماحدث حتى لحظة مغادرتى البلاد فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ كان صراعا على السلطة فى الاغلب الاعم . ان ممارسة الديمقراطية الحقة قد عطلت وكان هذا أمرا يحزننى حقا : ان العنصر البشرى فى شخص اطفال المجتمع لم يلتفت اليه . والامية لم يبدأ

مسئول فى التفكير فى مواجهتها وكفاحها . ومع ذلك
فقد كان الامل ان يتغير ذلك الي الافضل بعد ان يعيش
اعضاء المجتمع حياة اكثر استقرارا فى ظل ايديولوجية
واضحة المعالم والاهداف . كان املي ان يحدث ذلك وانا
أؤهل نفسي فى الخارج حتي اذا ماعدت كانت واجباتي
نحو الوطن المفدى اكثر وضوحا . وقررت قبول المنحة
الدراسية والسفر من اجلها الى الولايات المتحدة .
ولكن العقبات بدأت تقف فى سبيل هذا السفر من كل
جانب . وكان اصرارى اقوى من كل العقبات . لم تقف
اسرتى الصغيرة عقبة فى سبيل هذا السفر ، بل على
العكس وافقت زوجتي كما وافق ابنى أحمد وابنتى آمال
على سفرى . ولعلهم ان فعلوا ذلك لانهم لم يجدوا سبيلا
آخر الى غيره . كانت مشكلتى الحقيقيــة ان توافق
الوزارة التى اتبع لها على منحى أجازة لمدة عام بمرتب
اتركه لاسرتي لتنفق منه ، اما انا فيكفينى مرتب المنحة
الشهرى وكان قدره ١٥٠ دولارا . وكان املى فى موافقة
الوزارة املا كبيرا فالوزير الحالي كان الدكتور عبــاس
عمار ، وكانت صلتى به صلة طيبة . وكنت أعرف عنه
أنه كان رجلا مكافحا ، وانا مثله رجل مكافح فلعله ان
يتعاطف مع قضيتى . كان هذا املى . فبادرت الى طلب
مقابلته وكانت معى مذكرة اعددتها خصيصا عن الموضوع
بالتفصيل . وما كان عليه الا ان يتفضل بالموافقة على
منحي الاجازة لمدة عام بمرتب . وحدد موعد المقابلة
بسرعة وكان الوزير يتوقع حضورى . وماكدت ان اصافح
سكرتيره الخاص واسمع ماقاله لى الا وتوجست خيفة .
قال لي السكرتير وكان الزميل الاستاذ منير القصبى :
« انت فين ياعويس . الوزير قالب الدنيا علشانك . وبيني
وبينك هو زعلان قوى منك » . وقد فاجأنى قول هذا

الرجل الطيب الذى اعرف عنه ممارسة التصوف وعلاقاته الوثيقة باحدى الطرق الصوفية المنتشرة فى المجتمع المصرى . ولكنى باسم الله جل وعلا دخلت الى حضرة الوزير . ولم يكن متجهما ولكنه بعد ان طلب منى الجلوس اخذ يعيرني بأنني « اجرى وراء الضباط » فى الوقت الذى تحتاجنى ادارة الاحداث بمصلحة الخدمات . ولم أكن افعل مما قاله شيئا . فانا لم اذهب الى مبنى قيادة الوزارة الا باذن المسئولين فى المصلحة . وانا لم الهث وراء احد . وانا فعلت مافعلت محاولة منى للخدمة العامة فى حدود قدراتى . وبفضل الله فعلت الكثير من احل العديد من المواطنات والمواطنين . وقلت لعباس عمار كل ذلك . ولكنه فى محاولة لكى يقنعنى طلب منى أن اؤجل قبول المنحة عاما واحدا ثم اسافر بعد ذلك . وعندماذكرته بسنى فقد كنت فى الاربعين من عمرى وهذه فرصتى ، كتب على المذكرة التى قدمتها اليه « تأشيرة » لم يرفض فيها طلبى ولم يقبله تاركا الامر للسيد مدير مصلحة الخدمات الاستاذ محمد حسن صاحب كتاب «الامتحانات العامة » الذى تحدثت عنه سابقا والذى جلب له الشهرة فى محيط طلبة المدارس الثانوية وبخاصة الذين كانوا يجلسون الى امتحانات « شهادة الكفاءة وشهادة البكالوريا » . وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت الى محمد حسن فى مكتبه وكان يجلس معه الزميل « بدراوى محمد فهمى » والاستاذ « شميس » لاعب كرة القدم المعتزل . وما ان رآنى افتح الباب اذا به يقفز من على كرسيه مرحبا بى ومحييا ، وكنت احمل « شنطة » فيها بعض الاوراق الهامة آمننى على حفظها الصاغ مجدى ، ودهشت لما فعله المدير ، وأسوة بما فعل رحب بى الجالسان معه ترحيبا حارا . وذكرت له امر مقابلتى

للوزير وقدمت له المذكرة وعليها « التأشيرة » فاذا به يسارع الى آلة التليفون وتحدث مع الوزير بشـــأن مضمون المذكرة . ولم اسمع ماقاله له الوزير ، ولكن محمد حسن سرعان ماتجهم وجهه وتغيرت سحنته وقال لى آمرا : اذهب يافندي وروح على مكتبك ولا تذهب الى مجلس الوزراء .. هذا امر . فذكرت له دون ان ابدو منفعلا للتغيير المفاجيء الذى حدث للرجل الذى قام من على كرسيه واستقبلنى مرحبا وانا على وشك الدخول من باب حجرته امام الشخصين اللذين كانا معه ، ثم صدور الامر الاخير من نفس هذا الرجل بعد دقائق بمجرد ان انتهى حديثه التليفونى مع عباس عمار الوزير ـ ذكرت له ان هذا الامر لن ينفذ لسبب بسيط هو اننى احمل فى شنطتى التى احملها فى يدى اوراقا هامة ولابد لى من تسليمها . وتركت الحجرة وانصرفت . وخرجت من مبنى المجمع حيث تقع حجرة مدير مصلحة الخدمات الى « كوبرى قصر النيل » لاستوعب ماحدث وافـكر فيما يجب على ان افعله . تماما كما فعلت ذلك ذات مرة وانا فى مصلحة الحدود فى شهر مايو عام ١٩٣٧ اى منذ حوالى ستة عشر عاما . وقفت فى المرتين امام الكوبرى المذكور استنشق الهواء المنعش الذى يحيط به لعلنى ان اهتدى الى مخرج . ولم اجد هذا المخرج فى المرة الثانية الا ان اذهب الى الصاغ مجدى واذكر له ماحدث بالتمام والكمال . فكان كريما وانسانا فاضلا حقــا . ذكر لى ان محمد حسن وامثاله ماهم الا جثثا محنطـة وقد آن الاوان للتخلص منها . وذكر لى ايضا ان عباس عمار كتب له مرات من أجل عودتى الى المصلحة ولــكنه كان يرمى فى كل مرة الخطاب المرسل اليه فى ســـلة المهملات . وذكر لى كذلك انه قال له ذات مرة إننى كنت

اعمل فى مؤسسة الزفاف الملكى وكان يقصد بهــذه المعلومة الوقيعة بينى وبين النظام الجديد ، اى ان عباس عمار كان يريد ان يقول اننى كنت من اهل الحظوة فى السراى الملكية وان ولائى كان ولايزال للملك المخلوع . ولكنه اي الصاغ مجدى لم يابه لما قاله عباس عمــــار الوزير الى الدرجة انه لم يسألنى عن هذه المعــلومة . عندما سمعها لاول مرة ، شيئا . وكانت دهشتى كبيرة حقا لما سمعت عن محاولة عباس عمار الوقيعــة بهــذا الاسلوب الدنىء . ان عباس عمار فى خــلال فترة من الزمان انتدب عميدا لمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وكان يدعى وهو وزير انه جاء الى الوزارة لكى يحقق احلامه فى غرس مهنة الخدمة الاجتماعية وحماية العاملين فى ميادينها . وكان يعلم هذا الرجل ماهى « مؤسسة الزفاف الملكى » نزلاؤها واهدافها والمسئوليات الضخمة التى كانت على عاتقى لكى اجعل وزملائى منهــا البيئة الصالحة لكى تيسر تكوين أو اعادة تكوين شخصــيات نزلائها ، وهم احداث جانحون ، لكى يصبحوا مواطنين صالحين . كان عباس عمار يعلم كل ذلك حق العلم ، وكان عندما يزور المؤسسة يبدى آيات التشجيع لى ولزملائى وقد زار المؤسســة أكثر من مرة . ولــكنه الانسان الذى لا يرى الا مصلحته وفى سبيل تحقيقها يتخذ من الاساليب مايروق له . وقد اتخذ عباس عمار الاساليب الملتوية دون مادعا فى سبيل تحقيق مآربه فى شخصى . ولكن اذا كان الله معنا فمن علينا ؟

وقد طيب الصاغ مجدى خاطرى وحاول ان يثنينى عن السفر ولكنى ذكرت له تصميمى وبينت له أســباب هذا التصميم ومن اهمها مابلغت من العمــر وسفرى فى الوقت الراهن هو فرصتى . واقتنع الرجل وطلب منى

ان اعد مع الاستاذ « عبد الرحمن ابو العينين » مدير ادارة المستخدمين فى مجلس الوزراء فى ذلك الحين المكاتبات اللازمة لاستخراج « جواز السفر » والموافقة على السفر الى الخارج . وتم كل ذلك وامضى على المكاتبات المعدة . وسارعت الى ادارة « الجوازات » وتم المراد فى فترة قصيرة جداً ، فالاوراق كانت قد خرجت من ادارة مستخدمى مجلس الوزراء والذى امضى عليها كان الصاغ مجدي حسنين . وكان فى ذلك الوقت علما مشهورا . وفى جيبي وضعت الجواز منتظرا تحديد موعد السفر الذى حدد فعلا فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٤ وتركت الماضي باكمله ورائى ونظرت الى الامام . الى المستقبل المجهول . مسلحا بالايمان هادفا الى تحصيل المعرفة والمزيد منها محققا بذلك امل ابى وامل امى واملى . لم اهتز عندما رايت بدراوى محمد فهمى فى الشارع وذهبت اليه بقلبى المفتوح فأدار لى ظهره . ولم اذكر لاحد ماذا فعلت او ماذا انا فاعل . وعندما حدد الموعد اخبرت زوجتي وابنائى ، وصحبنى يوم السفر احمد وآمال وكان معهما زميلان ابلغتهما بالموعد قبل يومين فأبديا استعدادهما لمصاحبتى . كانا الزميل حمدى مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . وفى الموعد سافرت ولم يعلم الوزير او مدير مصلحة الخدمات او غيرهما عن هذا السفر شيئا . ولكنى وقبل ان اركب الطائرة كنت قد اعددت خطابا للوزير ادعوه فيه مرة اخرى الى الموافقة على منحى اجازة لمدة عام بمرتب أو حتى بدون مرتب ويبدو أنه علم بالسفر عندما كنت فى طريقى الى الولايات المتحدة او ربما عندما وصلت اليها فعلا . وقيل لى بعد ذلك أنه ثار وانتظر حتى مرت خمسة

عشر يوما واعتبرنى اخذت اجازة بدون اذن ورفتنى من وظيفتى الحكومية . ونشر الخبر فى جرائد القاهرة ولم يذكر اسمى وان ذكرت مخالفتى وهى اخذى اجازة اكثر من خمسة عشر يوما بدون اذن . ولعل عباس عمار بما فعله ضدى نسى ان لى اسرة كانت تقتات من مرتبى ولم يذكر الا انه كان وزيرا .

السفـر للخـارج مـرة ثـالثـة لطلـب العلـم

(الولايات المتحدة الامريكية)

وفي يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ذهبت الى المطار ، وكان بصحبتي العزيز احمد والعزيزة آمال . ركبنا العربة سويا واصر على الذهاب معنـا الزميـل حمدي مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . كنت أنظر الى امام واحسست بأنني ابتدىء حياة جديدة . وكنت قد اطمأننت على أسرتي الصغيرة فقد كفلت السيدة الزا ثابت مصاريفها عن ثلاثة شهور قادمة .. ولم تكن معونة السيدة الزا مادية فحسب بل كانت أيضا معنوية، شملتني كما شملت اعضاء أسرتي . وفجأة اذا بي في المطار امام الطائرة التى ستقلنى الى « مدينة بيروت » . ولم احس بما حولي ولا بمن حولي . لم أكن ارى شـيئا سوى الطائرة . ودفعت بخطاب ارسلته الى عباس عمار الوزير في صندوق بريد المطـار . وسلمت على ولدى وعلى الزميلين . واذا بي أجدنى جالسا على أحد المقاعد في الطائرة . كانت طائرة ، كما اذكر ، صغيرة الحجم ، وكان ركابها قليلين . وهأنذا اترك مدينة القاهرة الحبيبة وما فيها ومن فيها . وعشت مع أفكارى وآمـالى واهدافى . وكنت فى حقيقة الامر اواجه المجهول . وكم تعبت فى الماضى من مواجهة هذا المجهول . ولكنى كنت متفائلا . فأبى قبل ان يفارق الحياة بلحظات ذكرنى ، وامى قبل ان تموت بلحظات كانت تدعو لى الدعـوات الحانية . واذ اذكر حالتى التى كنت عليها وانا اكتب هذه السطور اذكر اننى كنت مدفوعا بيد خفية الى

مصيري وقدري . لم اكن افكر بعقلي لان كل تصرفاتي .
كما ذكر لي بعض الزملاء فيما بعد ، كانت لا تمت الى
منطق سليم ابدا . كنت اعيش في الحقيقة لا مع افكاري
وآمالي واهدافي في ضوء التفكير الموضوعي وانما كنت
اعيش معها تدفعني اليها قوة اكبر من عقلي . ولم اكن
ادري ، كما اذكر الآن ، ماهية هذه القوة او مصدرها .
كنت في ذلك الحين اقول تبريرا لتصرفاتي انني احاول
تحقيق امنية ابي وامي . وكان هذا يكفيني لكي اسير
على الدرب لعلني اصـــل . وبدا لي انني لم اكن ابدو
على مستوى الشخص الذي يتوقع وجود سماته الآخرون
فقد فوجئت عندما سألت احدي مضيفات الطائرة بعد
ان استقرت في مطار مدينة بيروت عن عنوان الفندق
الذي سابيت فيه ليلة واحدة لألحق بالطائرة الذاهبة
الى « مدينة نيويورك » في صباح اليوم التالي ، بأن
قسمات وجهها قد تغيرت فجأة وان عينيها اخذت تنظر
الي من اعلى الى اسفل وكأنها كانت تستنكر علي ان
اكون احد نزلاء فندق من الدرجة الاولى « الممتــازة »
وانا في ملابس مثل ملابسي واحمل حقيبة مثل الحقيبة
التي كنت احملها . انني لا اذكـــر اسم هذا الفنــدق
الآن ، ولعله وانا اكتب هــذه السطور قــد اصبح
خــرابا بعد كل ما حدث لمدينة بيروت من دمار وماحدث
لساكنيها واهليها من مذابح وحشية وتشريد وضياع .
لم تكن تعلم هذه المضيفة انني لم ادفع دانقا لكي انزل
في هذا الفندق ، ولعلها كانت تعلم ذلك ولكنها ابت ان
تصدق ان شخصا مثلي يكون من حظه ان يعيش مع علية
القوم القادرين تحت سقف واحد !! كانت لا تعلم عني
شيئا وانما لفت نظرها مظهري اي ما البس وما احمل
من حقائب . ولعلها كانت في سريرتها تغبطني او تحسدني

او كانت تقول « يدى الحلق للى بلا ودان » . علم ذلك عند ربى . وعندما تسلمت حقيبتى التى كانت مودعة فى مخزن الطائرة وكانت بها ملابسى وبعض اللوازم ، حملتها مع حقيبة اليد الى اول « تاكسى » فى طريقى الى الفندق . واعطيت حجرة بها سريران وحمام خاص فضلا عن بعض الاثاث الذى كان يضم ضمن مايضم محطة اذاعة محلية تعزف الموسيقى « الخفيفة » . ذكرتنى هذه الحجرة بالحجرة التى امرنى استاذى يعقوب فام بالمبيت فيها ثلاث ليال فى « فندق شبرد » المشهور بمدينة القاهرة قبل أن يهدم عندما كان يشرف تربويا على مؤسسة الزفاف الملكى وكنت أقوم بمسئولية مدير المؤسسة . وقد دفعت مصاريف اقامتى فى فندق شبرد ادارة المؤسسة . وكان هدفه ان اعيش هذه الخبرة فلعلى ان اخوض مثلها فى مستقبل الايام . وكان هذا هو اسلوب الاستاذ يعقوب فام . كان لايعظ بالكلام ولكنه لكى يربى كان ييسر المواقف على تباينها لكى يعيشها المتلقى ويحيا ماتأتى به هذه المواقف من خير أو حتى من شر فهذا لا يهم . أن ما يهم ان يعيش الانسان الخبرة . وكان يرى رحمه الله ان « من جسر ايسر ومن هاب خاب » . ومع ذلك فلم يكن فندق مدينة بيروت هو الحجرة التى نزلت فيها لابيت ليلتى . ولكنه كان أعظم وافخم . فالاثاث الذى تضمه « صالاته » اثاث أنيق حقا ، والروائح الزكية تملأ كل ركن فيه ، والحديقة التى تلف مبانيه كانت يانعة ومملوءة بالورود والرياحين وكان النزلاء من طبقة غير الطبقة التى خرجت منها ولازالت متمسكة بى فى حركاتى وفى سكناتى وفى حديثى وفى ايماءاتى . وكانوا من جنسيات شتى . كان منهم الانجليز ، وكان منهم الاميركيون ، وكان منهم غير أولئك

وهؤلاء . وعندما حان وقت تناول طعام العشاء ذهبت مع من ذهب الى حجرة الطعام . ولم استطع فى ضوء ثقافتى ان اجارى الآخرين فى تناول الكميات التى التهموها من الوان الطعام . كنت اعرف بعضها فآكل منه ، اما الذى لم اكن اعرفه فقد فضلت أن لا اتجاسر واطلب منه قليلا او كثيرا . ولعل هذا الذى لم اكن اعرفه كان الذ واشهى . كنت اجلس على احدى الموائد وحدى . وكان النزلاء يجلسون جماعات . لقد عزلت نفسى لكى اتذوق حريتى التى كانت عندى اثمن شىء فى الوجود . كانت فرصة لى لكى ارصد الوانا عديدة من تصرفات من حولى . وما كان اجمل ثيابهم . الرجال والنساء والاطفال على السواء . وما كان اقبحهم عندما كانوا يتناولون الطعام الذى امامهم . كنت أنظر الى عيونهم فأراها عيون وحوش مفترسة . كانوا يفترسون الطعام الذى يأكلونه افتراسا . وكانت عيونهم تفضح ذلك فيرتد بصرى الى ما انا مشغول به . وانتهى تناول طعام العشاء ، ورأيت ان اذهب الى حجرتى لكى أستعد للنوم واسمع الموسيقى الخفيفة حتى تهدأ اعصابى فقد كان يومى مملوءا ولم يكن فارغا . وفى خلاله عشت الوانا من المشاعر ، وواجهت الوانا من المواقف . وانا فى حاجة الى النوم لاستيقظ مبكرا حتى امتطى الطائرة الذاهبة الى مدينة نيويورك عن طريق « جزيرة شانون » بالمملكة المتحدة حيث تبقى فترة من الوقت ، ينتهز خلالها الركاب او بعضهم الفرصة لشراء مايحلو لهم من ملابس جاهزة او مايلزمهم من حاجيات . وجزيرة شانون محطة ينزل فيها بعض الركاب ويمتطى الطائرة ركاب آخرون . لم اكن من الركاب الذين اشتروا شيئا وان كان بودى لو اننى اشتريت « جاكتة » من الصوف الاسكتلندى .

ولم يكن ثمنها يعدو الاربعين دولارا . ولكنى اذا كنت قد اشتريتها كان يبقى فى جيبى عشرون دولارا اخرى . ولم اكن اعرف شيئا كثيرا او قليلا عندما تحط بى الطائرة في المطار فى مدينه نيويورك . فلم ابغ المقامرة ولا المغامرة فأبقى فى جيبى عشرين دولارا فقط . وقد ندمت على ذلك فيما بعد . فقد كان الثمن رخيصا جدا بالنسبة للثمن الذى يمكن به شراء مثل هذه الجاكتة في الولايات المتحدة . وتكون الجاكتة الاخيرة عادة مجرد شبيهة بالاولى . اننى اذكر هذه التفاصيل لكي ابين مدى حرصى فى ضوء ظروفى الاقتصادية التى كنت ساتوقعها فى الولايات المتحدة . فالمنحة التى حصلت عليها تتضمن دفع مصاريف الجامعة واعطائى مبلغ ١٥٠ دولارا شهريا . وانا لم اكن ادرى شيئا عن تكاليف الحياة فى المجتمع الجديد . وكنت ادري واتوقع ان يكون لاسرتى ، بعد ثلاثة شهور ، بالضرورة ، نصيب من المبلغ المذكور عندما استقر فى حياتى الجديدة المجهولة .

ركبت الطائرة من مطار بيروت الى مدينة نيويورك ، وكان يجلس بجانبى رجل انجليزى وكنا فى يوم ١٦ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، والانجليز مازالوا ضيوفا ثقلاء على قلوب وعقول بنى الوطن . كان الامل متعلقا بما قيل عن مفاوضات تجرى فى الخفاء أو فى العلن بين حكومة الثورة وبين الانجليز المغتصبين . لم يكن احد يستطيع ان يعرف ماذا ستسفر عنه هذه المفاوضات . وكنت فى ضوء تجربتى المحدودة مع بعض الضباط الاحرار وما علمت من صراعات فيما بينهم وما كان يحتمل ان يكون منها فيما بينهم وبين بعض الاحزاب المنحلة ، ارجو أن تكون نتائج هذه المفاوضات او بدايات المفاوضات فى صالح مصرنا الخالدة . ومع ذلك فان شكى فى ذلك

كان قائما . ولا يمكن ان انسي « زيارة فوستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة فى ذلك الحين الى مبنى مجلس الوزراء ، عندما قابل من قابل ، وخرج ليلقى الصحفيين المصريين وغير المصريين وانا ارقب ذلك عن بعد . كنت وكـان الكثيرون معى يرون دور الولايات المتحـدة الذى برز بعـد الحـرب العـالمية الثانية والآثار المترتبة على هـذا الدور فى منطقة الشـرق الاوسط ، وبخاصة وقد كنت اعلم وانا فى لندن فى خلال عام ١٩٤٨ ان « هارى ترومان » رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الحين كان اول من اعترف « باسرائيل » كدولة هارى ترومان هذا الذى وقع أمر القاء قنبلتى «هيروشيما» و « نجازاكى » ، وكان هذا التوقيع يعنى دمار المدينتين وموت اكثر من ثمانين الفا من الآدميين المسالمين . كان منهم الاطفال والشيوخ والشباب . وكان منهم من كان نائما او من كان فى احضان زوجته او امه . وكان منهم المرضى فى المستشفيات والذين كانوا يعيشون فى بيوت المسنين . لم تكن الخشية فى ذلك الحين من الانجليز ودولتهم فى أفول ، ولكن الخشية كانت فى ذلك الحين من الولايات المتحدة التى خرجت من الحرب العالميـة الثانية فى عام ١٩٤٥ وهى تملك « القنبلة الذرية » . وبدت فى اعين جماهير العالم وكأنها عملاق . وقـد لعبت الولايات المتحدة فى عهد « ايزنهاور » دورا بارزا وبخاصة عندما اعلن عن المفاوضات بين حكام مصر الجدد وبين الانجليز . وكان الاميريكيون يرون فى بجاحة ان قاعدة القنال لم تعد قاعدة بريطانية بقدر ما أصـبحت قاعدة غربية استراتيجية اعدت للدفاع عن منطقة الشرق الاوسط باكملها !! كنت وانا جالس فى مقعدى فى الطائره التى نقلتنى الى مدينة نيويورك عن طريق جزيرة شانون

بالملكة المتحدة ، وكان يجاورني الراكب الانجليزى ، أفكر في كل ماسبق . وكان جزعي على مصير المفاوضات منبثقا من احساسي وشواهدى المادية لبدايات الصراع الذى كان فى محيط رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة فهنا ينتهز العدو ، عدو زمان ، او العدو الذى بدأ يملأ الفراغ ، الفرصة ولن يعدم الوسائل لايجاد الفرقة بين المفاوضين المصريين حتى يستطيع ان يضاعف المكاسب على حساب مصالح مصرنا الخالدة . وبدأ الحديث بيني وبين جارى فى امور شتى لم يكن من بينها امور سياسية سألنى عن مآربى من السفر وعن هويتى ، وسألته كذلك . تبادلنا الاسئلة كما تبادلنا الاجابات عن هذه الاسئلة حتى مر الوقت واذا بنا فى مطار جزيرة شانون، ونزل الراكب الانجليزى وغيره وجاء آخرون ممن كان هدفهم الوصول الى مدينة نيويورك مثلى . وكنا فى منتصف الليل بتوقيت جرينتش . وعندما أقلعت الطائرة من جديد نمت . وفوجئت بأننا جميعا قد وصلنا الى مدينة نيويورك سالمين فى صباح يوم ١٦ من شهر اغسطس بتوقيت الولايات المتحدة !!

وهأنذا فى المطار الذى يبعد عن محطة السكة الحديد مسافة استغرقها « الاوتوبيس » الذى اقلنى فى حوالى ثلاثة ارباع الساعة . وانا لم تتح لى فرصة ركوب هذا الاوتوبيس الا بعد ان تأكد المسئولون من صلاحية جواز سفرى ومن موافقة السفارة الامريكية بمدينة القاهرة على هذا السفر ، وفضلا عن ذلك عندما تأكد المسئولون ايضا عن سلامة صحتى وخلوى من الامراض المعدية وبخاصة مرض « السل » ومرض « التراكوما » ، وكانت أوراقى تضم الاشعة والشهادات التى تدل على ذلك والتى صدرت من اطباء طلبت منى السفارة الامريكية في

مدينة القاهرة الذهاب اليهم انفسهم ، فهم موضع ثقتها
ومن ثم فهي لاترضى عن غيرهم بديلا ولا تثق الا فيهم .
وكان يقف فى انتظارى امام محطة السكة الحديد مندوب
« ادارة التربية الدولية »
التى تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات
المتحدة . ورؤيتى له كانت نجدة لى . وقد عرفته توا .
فقد كنت أتوقعه وكان هو ايضا يتوقعنى . كان يلبس
شارة تدل على انه المندوب المنشود . ولعل لون جلدى
اوحى له بأننى العميل المنشود كذلك . وعلى الرغم من
ان هذا اللون اسمر وليس اسود فقد واجهت بسبب
ذلك مواقف اجتماعية غير انسانية لم اكن اتوقعها
وبخاصة فى منطقة مثل منطقة « انجلترا الجديدة »
التى تقع فيها الولاية التى سالتحق فيها باحدى جامعاتها
اقصد ولاية « ماساتشوستس » وجامعة « بوستن » .
وقد نصحنى المندوب بأن اركب قطارا معينا لاذهب الى
احدى الضواحى حيث اجتمع ببعض الدارسات
والدارسين من الذين منحوا منحا مثلى لكى نمكث فترة
اسبوعين حيث نحضر برنامجا معينا نتعرف فيه عن
طريق بعض النشاطات الثقافية والاجتماعية . تحت
اشراف بعض المتخصصين ، على ملامح المجتمع
الاميركى . ويسمى هذا البرنامج عند المسئولين
الاميركيين « برنامج التوجيه »
وكانت دهشتى كبيرة عندما وجدت
احد الاشخاص ينتظرنى امام المحطة التى اقصدها . فما
ان نزلت من القطار ، وكنت الوحيد الذى نزل ، فاذا
بالشخص المنتظر يستقبلنى محييا مرحبا ، وسرعان
ماطلب منى ان اصحبه فى احدى السيارات التى قادها
حتى وصلنا حيث سبقنى من الدارسات والدارسين

آخرون . وجدت انهم يعيشون فى احدى المـــدارس « الداخلية » حيث كانت خالية من طلبتها . ثم وجهت الى حجرتى المختارة لى والمؤثثة اثاثا كافيا لكى استريح واضع حقيبتى الكبيرة والصغيرة التى كنت احملها فى يدى ولم يكن لدى غيرهما ، وذلك حتى يحين موعـــد تناول طعام الغداء . وعندما حان الوقت اسرعت الى الحجرة المعدة لذلك وانا فى شوق شديد الى الطعام . وفى حجرة الطعام قابلت الدارسات والدارسين . كانوا من بلاد شتى . كان منهم الانجليز والفرنسيون والالمانيون والهولنديون والهنود والباكســتانيون واليابانيـــون والعراقيون ، وكان منهم ايضا من أتوا من بلاد امريـكا اللاتينية مثل البرازيل والارجنتين ، وكنت وزميـــل المصريين الوحيدين . لم اكن اعرف هذا الزميل من قبل ولم اكن اعرف عن عمله او محـــل اقامته فى مصـــرنا الخالدة شيئا . انى اذكر ان اسمه كان « حبيب » وذكر لى انه عمدة فى احدى قرى الصعيد . كان عددنا حوالى ثلاثين شخصا . وكانت خلفياتنا العلمية والثقافية متباينة . وفى حجرة الطعام كان يحضر الطعام اعضـاء منا فى نظير اجر يحصلون عليه ! كانوا قبل أن ندخـــل الحجرة يعدون الموائد ثم بعد أن ندخل ونجلس فى الاماكن المعدة يحضرون اطباق الطعام اصـــنافا والوانا وبكميات وفيرة . ومنذ هذه اللحظة تأكد عندى اهتمام الامريكيين بالنقود . فكل شىء فى الحياة عندهم له ثمن . ولا جدوى من التضحيات الانسانية والمجـاملات التى لا جدوى منها . وزاد تأكدى عندما اعلن ونحن فى حجرة الطعام عن طلب اشخاص منا يستأجرون لكى يجمعوا التفاح من حدائق مجاورة ، وان من يجد فى نفســـه الكفاءة فليتقدم على أن تكون اوقات العمل فى اوقات

الفراغ . ويدفع للشخص العامل عن ساعة العمل دولار او دولاران لا اذكر بالضبط . وعرفت الاعضاء الزميلات الدارسات والزملاء الدارسين وعرفوني . كما عرفت المشرفين على البرنامج ولاحظت أن من بينهم اساتذة وبعض طلبة الدراسات العليا . كما نحن الاعضاء نحمل ثقافات متعددة بل قد يكون بعضها متعارضا مع مايحمل الاميريكون من حولنا من ثقافة . وكان هم الاميريكين المشرفين والباحثين ان يحتكوا بنا ثقافيا . فقد كان من قبيل الافتراض اننا بعض قادة مجتمعاتنا الثقافيين ، واننا فى الواقع نمثل الى حد كبير أو الى حد ما ثقافات مجتمعاتنا التى ولدنا فيها وكنا نعيش فيها قبل حضورنا الى الولايات المتحدة . انها فرصة رائعة لكى نكون تحت المجهر ليس فقط لدراسة كل شخص منا بل لما هو اهم واجدى اقصد لمحاولة دراسة ــ عن طريق تصرفاتنا وانماط سلوكنا ــ المجتمعات التى جئنا منها لكى تفهم مناصر ثقافاتها . ومن ثم وضعت البرامج العديدة ومعظمها ثقافي للتعرف على الاراء واذا تيسر للتعرف على الاتجاهات ، التى تموج بها تصرفاتنا وانماط سلوكنا كما نحضر الاجتماعات ونستمع الى المحاضرات وندعي الى المناقشات السياسية وغير السياسية . وكان يحضر الينا القادة من المجتمع الاميريكى سواء اكانوا اساتذة جامعات أو زعماء نقابات او رجال اعمال لكى يحتكوا بنا واذا تيسر لكى نحتك بهم . وكان الاخيرون يحضرون مستمعين لمن يحاضر ولمن يناقش . وكنا نوضع فى مواقف اجتماعية معينة لكى يظهر من ردود الفعل ماقد يكون قد خفي . وكانت السيدات الاميريكيات يلعبن دورا حاسما فى هذا المضمار . وكان البرنامج يتضمن زيارات الى بيوت الاثرياء والى المصانع . وانا اذكر

اليوم اى وقت كتابة هذه السطور ، اى منذ حوالى ثلاثين عاما ، اننا زرنا مصانع آلات .I.B.M —
اى المصانع التى تصنع الالات الحاسبة الالكترونية ،
وكانت هذه International Business Machine —
الالات قد صنعت فى عام ١٩٤٤ ، ونحن الان فى عام ١٩٥٣ . واللاحظ ان اول جهاز للحساب كان قد صنع فى مصر القديمة وفى الصين قبل العصر المسيحى . وكان جهازا بدائيا . ولكننا نحن الآن فى عام ١٩٥٣ حيث صنعت هذه الالة بعد تحسينات جذرية ، واستمرت التحسينات حتى اصبح من المتيسر فى خلال سبع دقائق حل مسائل حسابية تتضمن أكثر من مليون عملية حسابية . هذا ما علمته مع الآخرين من العالم الذى كان يشرح لنا احدى الالات . ولكن ماكان يعلمه اكثر عن هذه الالات هم اليابانيون الزملاء . كنا ما عداهم مجرد متفرجين . اما هم فقد كانوا يناقشون مناقشة العارف بأسرار الآلة الحاسبة الالكترونية الذى يحاول ان يعرف اكثر . وقد علمنا ضمن ماعلمنا ان هذه الالات لا تباع ولكنها كانت تؤجر . وانا اذكر اننى كنت امام لغز كبير وضعه الانسان المتقدم أمامنا لكى نحاول ان نحله . وعلى الرغم من الفشل الذريع الذى حاق بالحاضرين ماعدا اليابانيين فقد كنت سعيدا جدا . لان تقدم الانسان وسيادته على الطبيعة وعلى المجتمع أمران لا يختلف عليهما انسان يحب الحياة ويسعى جهده لتحقيق انسانية الانسان . وعندما كنا فى هذا المصنع رايت مالم يره غيرى ، وذلك لاننى نظرت من النافذة فرايت فناء المصنع الواسع وهو مملوء بمئات من السيارات ، وعندما سألت عن أصحاب هذه السيارات قال أحد الموظفين لى انها ملك لعمال المصنع !! وكان

المسئولون عن برنامج التوجيه يحضرون المحاضرين من زعماء الزنوج وكان هؤلاء الزعماء مختـــارين اختيارا متعمدا ، وكنت ترى الواحد منهم خطيبا مفوها ولكنه لا يقول عن التفرقة العنصرية شيئا هاما . فكنت وأنا والحاضرون من الاعضاء وبعض الضيوف لا نسمع عـن اهداف المعركة ضد التفرقة شيئا ، ولانسمع عن النقاط التي يجب مهاجمتها شيئا . وكـان الخطيب الزنجي القائد المفوه لا يذكر شيئا عن الوسائل التي كـان يجب اتباعها ، ولا يذكر شيئا هاما عن دور القيادات القومية والمحلية في الصراع . ولم يجب واحد من هؤلاء القادة الزنوج عن وجوب او عدم وجوب وجود تنظيم راحد قيادي اجابة شافية ، وحتى اذا لم يكن ذلك ضروريا فلم نسمع شيئا عن ضرورة اهتمام مختلف التنظيمات بتحديد دور كل منها . كانوا يأتون ويذهبون لكى يبرروا الحالة المنحطة للزنوج فى الفترة التى كنا موجـودين فيها ، وكانت تتضمن التفرقة فى التـدريب المهنى ، والتفرقة فى التدريب على التلمذة الصناعية ، والتفرقة فى النقابات والتنظيمات العمالية وخاصة فى أعمـــال الميكانيكا والبناء ، والتفرقة فى الخدمات التى تقدمهـا مكاتب العمل الحكومية ، والتفـرقة فى الخـــدمات والتشغيل فى القوات المسلحة ، والتفرقة من جـانب أصحاب العمل بما فى ذلك العقود الحكومية . وكانوا يذكرون ويكررون مايذكرون عن اعتمادهم على المحكمة العليا للولايات المتحدة التى اصدرت حكما فى عام ١٩٣٥ يقضى ببراءة أحد المحكوم عليهم من الزنوج لان هيئـة المحلفين لم تضم زنوجا . وكانوا يذكـــرون ويكررون مايذكرون عن أن المحكمة العليا فى عام ١٩٣٨ أمـــرت « ولاية ميسورى » اما ان تقبل السود فى كلية الحقوق

واما ان تهيىء لهم كلية للحقوق يدرسون فيها . وكانوا يعولون على الحكم فى القضية المشهورة عندما قاضت أسرة « براون » فى « مدينة كانساس » السلطات لعدم سماحها لابنتهم بدخول مدارس البيض . وكانت القضية امام المحكمة العليا فى ذلك الحين ولكنها لم تكن قد أصدرت قرارها بعد . وكان المحاضرون الزنوج الذين جاءوا بهم الينا يأملون فى ان يكون القرار منصفا للزنوج كانوا يبدون لنا تفاؤلهم دائما ويرون أن القانون « الاميركى » لا يعترف بالتفرقة فى المدارس ومن ثم يجب أن تستعد المدارس لادخال السود فيها . وكان الدارسون الهنود اعلا الحاضرين صوتا . كانوا يناقشون ويناقشون ، وكذلك كان الدارسون الفرنسيون مثل الدارسين الهنود يناقشون كثيرا . وكان يحرضنا الاساتذة المشرفون على المناقشة وكان البعض يلبى والبعض لا يلبى . وكنت قد آثرت ان العب دور المتفرج فلم اناقش كثيرا ولا قليلا ، وكذلك لم اشترك فى اللجان التى شكلت لادارة البرنامج تحت أشراف الاساتذة المشرفين . كنت اشارك بالحضور فى جميع النشاطات : الزيارات والحفلات والندوات والمحاضرات وغيرها . وكان اشتراكى الفعلى بين الدارسات والدارسين وبعض طلبة الدراسات العليا من الاميركيين . اى اننى لم اكن سلبيا مائة فى المائة فقد كان لى دور فى الحفلة الختامية للبرنامج التى حضرها المئات من الاميركيين سواء كانوا من الذين اتصلنا بهم واتصلوا بنا او غيرهم . كان على ان اغنى منفردا غناء مصريا . فغنيت اغنية كان ابناء مؤسسة الزفاف الملكى يغنونها فى حفلات السمر . كما غنيت احدى الاغنيات التى حاولت أن أشرك الحاضرين فى ترديد احد مقاطعها السهلة دون عمل « بروفات »

بالطبع . وكانت مجازفة ، ولكنها اثمرت فقد كنت أسمع الاطفال الذين كانوا يعيشون من حولنا يرددون المقطع وحدهم فى صباح اليوم التالى . تماما كما كان ابناء المؤسسة يرددون الاغاني التى توضع لهم فى المؤسسة ، كما كانوا يغنونها فى خارج المؤسسة . وقد كان مضمون الاغنية الفردية ريفيا مصريا . واننى اذكر منها :

دورى يا ساجية دورى
واروى الارض حبة حبة دورى
دا الزرع بين ايديك دورى
وضلة العالى عليك ياساجية دورى
دورى ياساجية دورى

اما الاغنية الجماعية التى حاولت ان يردد احد مقطوعاتها الحاضرون من غير عمل البروفات الكافية او غير الكافية ، فقد كانت اغنية « فرانكو آراب » اذكر منها :

يادنج دنجى يادنجى دنجى
يادنج دنجى يادنج دنجى
مستر سميث — Is a gentleman
وتملى جعان — He eats very much

ولم تتضمن الاغنية مستر « سميث » وحده . بل تضمنت اسماء عديدة اخرى . وكانت هى أسماء بعض الدارسات والدارسين فى البرنامج .

ومر الاسبوعان مر السحاب . وانتهى البرنامج . وتفرق الجمع كل الى حيث يريد . وكنت أهدف الى الوصول الى مدينة « بوسترن » حيث التحق بالجامعة . وهذه المدينة هى عاصمة ولاية « ماساتشوستت » أحدى ولايات « انجلترا الجديدة » New England States —

وتضم انجلترا الجديدة غير ولاية ماساتشوست ولاية « كنكتكت » و « نيوهامبشير » و « فيرمونت » و (مين).
وانا اذكر جيدا انه وانا في طريقي الى بوستن اضطررت لكى ، انتظر القطار ، ان أنام في «المحطة » ساعات حتى يحضر . وكان في فناء المحطة اماكن للجلوس عليها ، وكان يجلس معى الكثيرون الذين لا يعرفوننى ولا اعرف واحدا منهم . وكانت الحقيبتان الكبيرة والصغيرة في حيازتى وكنت حريصا عليهما حرصي على ان انام . ولم ادر اذا كنت قد نمت او كنت متيقظا . كنت في لهفة للوصول الى مدينة بوستن . وكانت هواجسى عديدة ومتباينة . فانا لا اعرف عنها شيئا ، ولا اعرف مصير التحاقى بالجامعة شيئا ايضا . ولكننى كنت ايضا مطمئنا الى اننى اذا وصلت الى المدينة ساجد مكانا للمبيت .
ووصلت الى المدينة فعلا عند الغروب . وكان معى عنوان المكان الذى سأبيت فيه ورقم التليفون فى حالة الرغبة فى الاتصال بالمسئولين عنه . كان المكان المنشود هو « محلة نورفولك » Nor Falk House centre —
« بحى روكسبرى » بالمدينة . واننى اذكر اننى عندما وصل القطار الى المدينة سارعت بالنزول منه حاملا الحقيبتين لاتحدث تليفونيا لكى اعرف من المسئولين عن المحلة عن أيسر الطرق الى الوصول الى حى روكسبرى .
وحاولت أن اتحدث تليفونيا فلم استطع . كانت « كابينات » التليفونات موجودة بالمحطة ولم يكن يشغلها احد ، ولكنى لم اعرف كيف اتصل ، فخرجت من الكابينة الى أقرب شخص طالبا منه مساعدتى فلبى طلبى فى الحال . وكانت تلبية هذا الرجل « الغريب » لى فالا حسنا . وتذكرت مدينة لندن فى الحال . فلقد كان من المستحيل ان اجد شخصا فى هذه المدينة لايعرفنى يؤدى

لى خدمة ما . ومع ذلك فقد ظلت مدينة لندن مدينتى المفضلة بعد ذاك وقتا طويلا . وتحدثت فى التليفون وكان المجيب هو « مستر ديفيز » ولم اكن اعرف عنه شيئا ولكنه كان يتوقع مجيئى ، وعلمت بعد ذلك انه مدير محلة نورفولك . كان انسانا لطيفا حقا وطلب منى لكى احضر ان استاجر « عربة تاكسي » الى ميدان «اجزن اليوت » ، وفى الميدان اجد « كنيسة » ويقع امامها مبنى المحلة المنشود وكان رقم ١٤ . ووعد فى لهجة بالغة الظرف والانسانية اننى ساجده امام المبنى ينتظرنى . وعندما وصلت الى المكان المقصود وجدت مستر ديفيز منتظرا . رحب بى ثم ساعدنى فحمل الحقيبة الصغيرة ،ترك لى حقيبتى الكبيرة وقادنى الى حجرتى ذاكرا لى انها مؤقتة حتى يجد لى حجرة مناسبة لرجل جاء من افريقيا وكان يقصد من بلاد تكون درجة حرارة الطقس فيها عادة مرتفعة .ومالبثت الا لحظات بعد ان تركنى ، فاذا بى استعد للنوم ، وكنت فى حاجة الى النوم فعلا وحقا ، وفى السرير وجدتنى راقدا وعلى من «البطاطين» مايكفى لكى يعصمنى من برد الخريف فى مدينةبوستن . ونمت نوما طويلا عميقا كما اذكر اذا استيقظت ظهر اليوم التالى ، واحسست بالجوعالشديد . وانصت وانا مازلت فى السرير فلم اسمع لاحد من الآدميين او غيرهم صوتا. وقمت لاستعد للخروج . وعندما خرجت من المبنى قابلنى مستر ديفيز واعطانى مفتاحا لكى افتح الباب عند عودتى من الخارج . وكان للمبنى بابان وكان المفتاح يصلح لفتح ايهما . ولم اشا ان اطلب من مستر ديفيز ان يدلنى على مكان حيث اتناول فيه الطعام . كنت اود، كما كنت افعل دائما ومازلت افعل حتى الآن اذا ذهبت الى بلد اجنبى ، ان التمس بنفسى طريقى . وخرجت الى

الشارع او الى ميدان جون اليوت ، وكان الهواء باردا منعشا حقا . وسالت احد اصحاب الحوانيت التى تقع بجوار المحلة ، كان أول حانوت . فارشدنى الى مكان بعيد ، وجدته صيدلية يديرها مع زوجته رجل من أصل يونانى . وسالت عن الطعام لكى اتناوله ، فعدد لى اصنافا عديدة من « الساندويتشات » ، وطلبت مارايت انه يكفينى مع فنجان من القهوة . وجلست حيث يجلس الآخرون . وجاءنى الصيدلى وانا ارتشف فنجان القهوة وبدأ يتحدث معى . عرف اننى مصرى جاء يطلب العلم فى بلاد « العم سام » وعرفت منه انه يونانى الاصل وان السيدة التى تعمل معه وتعاونه هى زوجته وان له ابن وابنة وكلاهما فى التعليم الثانوى . وكان يطمح فى ان يحل ابنه محله فى ادارة الصيدلية فى يوم من الايام بعد ان يكون قد تأهل للقيام بهذه المسئولية وقد اتضح للرجل اننى اتحدث اللغة الانجليزية الفصحى . ومن ثم فانا لست من نفس المكانة التى يتسم بها معظم اهالى حى روكسبرى . ذلك الحى الذى بدأ السكان الزنوج يزحفون اليه افرادا وجماعات . وقد أحسست بدفء مشاعر هذا الصيدلى . وعولت على ان اواظب تناول طعام الافطار عنده كلما كان ذلك ممكنا . واستأذنت للانصراف بعد ان دفعت ثمن ماطلبت . وفى اثناء العودة وجدت « المكوجى » فى طريقى . وعندما مررت امام الحانوت الاول الذى ارشدنى صاحبه الى الصيدلية ، وجدت بجواره « مطعما » فيه من الوان الطعام مايشتهيه كل جوعان . ودهشت لان الرجل لم يرشدنى اليه وآثر ان يرشدنى الى الصيدلية . ولم اهتم لان اعرف سبب ذلك ابدا . ولكنى سعدت بان علمت ان صيدليات الولايات المتحدة لا تبيع الادوية فحسب ولكنها تيسر

شراء الحلوى واصنافا من الطعام والشراب ومنهـــا الساندويتشات وتعاطى القهوة والشاى و « الجيلاتى » ايضا !!. وكانت سـعادتى اكثر لاننى عرفت الصيدلى ذا الاصل اليونانى الذى بدا لى انه فرح مثلى لـكى يبادلنى الاحاديث كلما ذهبت الى الصيدلية . وعدت الى المحلة ومعى المفتاح الذى سلم الى واستمر فى جيبى وانا احرص عليه حرصى على نقودى فى خلال المدة من شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكنت قد حرصت فى اثناء العودة على ان اشترى نسخا من جرائد بوستن وبخاصة جريدة « كريستيان سينس مونيتر » وغيرها لكى أتصفحهـا واعيش فى دنيـــاى الجديدة . وكما توقعت لم أجد احدا فى طريقى الى حجرتى ولم اسمع همسات او همهمات . كنت وحدى ، ويبدو أن مستر ديفيز واسرته كانوا وحدهم يشاركوننى مبنى محلة نورفلك . ذلك المبنى الذى يتكون من مائة وثلاث من الحجرات بالاضافة الى « ملعب داخلى لكرة السلة » ، وقاعة كبيرة فى الدور الارضى من المبنى . وبينما كنت منهمكا فى قراءة الصحف فى حجرتى ، اذا بمستر ديفيز يدعونى الى الانتقال الى حجرة أخرى اصـبحت حجرتى طوال الفترة التى مكثتها فى المحلة وهى نفس الفترة التى مكثتها فى مدينة بوستن . كانت واسـعة بها سريران ومكتبة فضلا عن نافذة كبيرة أرى من خلالها شجرة تلعب بأوراقها رياح الخريف . ومنذ اللحظة الاولى اصبحت هذه الشجرة صديقتى . كنت اراها على مدى العام واوراقها تسقط ثم يغطيها الجليد وهى عارية ، ثم بعد ذلك تورق وتخضر بدءا من شهر الربيع حتى فصل الخريف عندما تبدأ اوراقها فى السقوط مـرة اخرى . كنت الاحظ ذلك فى دقة . وكانت هى أول

ما اراه عندما استيقظ . وكان بالحجرة أيضا دولاب داخل الحائط كنت أضع فيه ملابسي . وبمرور الوقت بدأ نزلاء المحلة من الطالبات والطلبة يفدون . كانوا جميعا من الاميريكين من بنات وأبناء الولايات المتحدة . وكان منهم أمريكى من كندا يدعى « جيمس اين » . كانوا في الاغلب الاعم من المسيحيين ، وكانوا ذكورا واناثا . وكان معظمهم من الشباب . كما كان معظمهم من طلاب الجامعة وكنت ومعى احدهم ندرس للحصول على درجـــــة الدكتوراه . واذا كانوا فى الاغلب الاعم من المسيحيين فقد كانوا يتبعون فى الغالب المذهب الكاثوليكى ، وقد وجد معى ، انا المسلم ، آنستان يهوديتان . كنا عشرين شخصا . عشر من الاناث وعشرة من الذكور . وانا اذكر يوم ان اكتمل الجمع انه طلب منا حضور اجتمـــاع برئاسة مستر ديفيز فى المكان المخصص لنا لكى نستريح او لكى ندعو ضيوفنا فيه حيث يوجد مطبخ مجهز بكل الادوات على احدث طراز ، وحجرة خاصة بهـــا جهاز « تليفزيون » وآلة « البيانو » . وفى الاجتمـــاع كان المتحدث الوحيد مدير المحلة وكان حديثه لنـــا يتضمن حقوق كل واحد منا وواجباته . وكانت الواجبات ان نسهم فى ادارة المحلة عندما تستقبل اعضاءها من بنات وابناء الحى ، كل حسب مؤهلاته ومواهبه وخبراته . اما حقوقنا فهى المبيت فى حجرة دون ان ندفع دانقا ، وان نستعمل المكان المخصص للراحة والمطبخ فضلا عن مشاهدة برامج التليفزيون او ممارسة اللعب على البيانو لمن يستطيع فى اوقات الفراغ . اى الاوقات التى لانؤدى فيها عملا تتصل بنشاطات المحلة فى خلال يومين فى الفترة المسائية حيث يبدأ النشاط فى الساعة السادسة مساء الى الساعة التاسعة مساء . اى اننى على نظـــير

المبيت في حجرتي والاستمتاع بحقوقي ان اعطى من وقتي ست ساعات في المساء اسبوعيا واخترت يومي الاثنين والاربعاء من كل اسبوع لأؤدى عملي كأخصائي اجتماعي متخصص في طريقة خدمة الجماعة . وكنت الرائد لاحدى الجمـــاعات من الاولاد الزنوج ، الذين يسكنون في حي روكسبري ، التي تلتحق بالمحلة لاول مرة وقد اختارني مستر ديفيز لهذا العمل لانني اولا مارست مهنة الخدمة الاجتماعية في بلادي ليس فقط كمتخصص في طريقة خدمة الجماعة بل وايضا في طريقـة خـدمة الفرد فضلا عن البحث العلمي الاجتماعي . ولانني ثانيا وهذا امر هام مواطن مصري جئت من قارة افريقيا حيث لا توجد تفرقة عنصرية ويؤكد ذلك لون جلدي الاسمر . اي انني في نظره صالح لقيادة جماعة الاولاد الزنوج شكلا وموضوعا . وبمرور الوقت ابتعد مستر ديفيز عنا وبرز في محيطنا شخص آخر عين وكيلا له هو « مـــستر دونالديونج » وكنا نختصر أسمه ونناديه بمجرد « مستر دن » « بضم الدال » . وكان مستر دن هذا متزوجا وله ولدان ويسكن في ثلاث حجرات بجوار حجرتي . وكانت نشاطاتي مع جماعة الاولاد الزنوج الذين سموا أنفسهم « ذا فيبرز » اى « الافاعي السود » تحت اشراف مستر دن . وكان لكل واحد من اعضاء الجماعة « جاكت » سوداء اللون مكتوب عليها باللون الابيض اسم الجماعة . وقد سعدت بكل شيء صادفته في هذه المحلة . المناخ الثقافي ووجود الصحبة والمشاركة في العمل الذي أحبه واسعى الى تحقيقه الا وهو محاولة تكوين المواطن الصالح او محاولة اعادة تكون هذا المواطن . وكنت اقوم بهذه المهمة في ذلك الحين لافي مصرنا الخالدة ولكن في الولايات المتحدة الاميريكية . وكان عزائي انني اعمل بين الاولاد

الزنوج الذين يعتبرهم « البيض » بعامة وحتى فى مدينة بوستن « مدينة الحرية والاحرار » حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا اقيم تخليدا لذكرى أول زنجي صرعه الانجليز في الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠ ، انصاف مواطنين . وانا لا اقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر لى « جون جراى » الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن ، انه لم يجيء الى محله نورفلك الا بعد ان دار فى شوارع بوستن وحاراتها اياما لكى يسكن مع زميل له « ابيض » ولم يجد مكانا يؤويه الا احدى الكنائس التى وجهته الى المحلة . كان أصحاب الشقق للايجار يرحبون بزميله الابيض ويرفضونه هو . وكانت صدمة عنيفة له لانه كان يعتقد ان مدينة بوستن وهى مدينة لها تاريخها وتعتبر مصدر الحرية والاحرار الذين فروا من أوروبا الى الارض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين ، لا يمكن ان يجد فيها لونا من الوان التفرقة العنصرية . ولكنه عندما وجد آثر ان يكون واحدا منا فى المحلة لكى يستكمل تعليمه العالى ويبنى لنفسه مستقبلا أفضل . كان النزلاء كما ذكرت خليطا من الشباب وغيرهم . وكانوا متباينين فى السمات وفى الثقافات ، ولكنهم فى المحلة على المستوى الظاهر ، او من حيث المبدأ ، كانوا يعتبرون آدميين . وماداموا يؤدون واجباتهم فلهم حقوقهم على السواء .

استرحت نفسيا لوجودى فى محله نورفلك ، ولكنى كنت قلقا على مصير التحاقى بالجامعة لكى أدرس الدراسات العليا التى تؤهلنى للحصول على درجة الدكتوراه . وأنا اذكر الآن عندما ذهبت الى الجامعة . كانت وجهتى الذهاب الى « جامعة بوستن » التى انشئت

فى عام ١٨٣٩ فاذا بى اجدنى امام « كلية بوستن » .
وهى كلية للخدمة الاجتماعية انشأتها الكنيسة الكاثوليكية
لتخرج اخصائيين اجتماعيين من الشباب الكاثوليك .
وعندما عرفت خطأى ذهبت الى « جامعة بوستن » ،
فاذا بى امام عميد كلية الخدمة الاجتماعية بالجامعة ،
وعلمت منه أن الكلية لا تمنح الا درجة « الماجستير » ،
وفى ضوء تاريخ حياتى الاكاديمية يرى أنه من الخير لى
ان التحق بكلية الآداب « قسم الاجتماع والانثروبولوجيا »
وقال ذلك كما اذكر وهو يقلب بعض الاوراق التى كانت
بين يديه والتى عرفت فيما بعد أنها كانت تتضمن
خبراتى الاكاديمية والعملية ، وذكر ايضا اننى اذا وافقت
على ذلك فانه سيحول اوراقى الى كلية الاداب وذكر اسم
« البروفسور البرت موريس » الذى كان يرأس قسم
الاجتماع والانثروبولوجيا فى ذلك الحين لكى أذهب اليه
ويحقق رغبتى وهى حصولى على درجة الدكتوراه لا فى
الخدمة الاجتماعية ولكن فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا
حسب التخصص الذى ارغب فيه . وعندما سمعت اسم
البروفسور البرت موريس ، وافقت العميد على تحويل
أوراقى الى قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بكلية الآداب
بجامعة بوسن . وكنت قد قابلت البروفسور موريس فى
القاهرة فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ وكان فى طريقه
الى الولايات المتحدة آتيا من استراليا مرورا بنيوزيلاندا .
كنت فى ذلك الحين فى رئاسة مجلس الوزراء حيث أقوم
بمساعدة الصاغ مجدى حسنين مدير مكتب رئيس مجلس
الوزراء فى ذلك الحين . وكان البروفسور موريس ضيفا
على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة الذى
كنت أديره فى خلال الفترة من اول ديسمبر عام ١٩٤٤

حتى اوائل شهر فبراير عام ١٩٥١ عندما سافرت الى لندن للمرة الثانيه لكى استأنف دراساتى العالية . وقد راى مدير المكتب الذى حل محلي ان يدعونى الي تناول طعام الغذاء مع البروفسور موريس ، وكان قد اعده فى احدى حجرات المكتب . وكان يشاركنا في تناول الطعام آخرون لا اذكر واحدا منهم وقت كتابة هـــذه السطور . ولما علم البروفسور موريس عن خبراتى فى ميدان علاج الجريمة وجناح الاحداث أبدى اهتمـــامه شخصى الضعيف . وقد تحدثنا كثيرا فى موضـــوعات شتى عن اساليب العلاج والمشاكل التى يصـــادفها الاخصائى الاجتماعى المصرى فى اثناء عمله فى هـــذا الميدان . كانت مقابلة عابرة ولكنها تركت اثرا فى نفسى ، ويبدو انها تركت اثرا أيضا فى نفس البروفســـور موريس . ذلك لاننى عندما قابلته فى مكتبه بعـد ان حدد موعدا لهذه المقابلة ذكر لى أنه تذكرنى بمجرد ان اطلع على الاوراق التى تتضـــمن خبراتى الاكاديمية والعملية . وقد رحب بالتحاقى بقسم علم الاجتمـــاع والانثروبولوجيا الذى يرأسه على ان يكون تخصصى « علم الاجرام » الذى كان هو استاذه ، وعلى ان ابدأ الدراسة فى الموعد المحدد للحصول على درجة الماجستير ثم تترك موضوع درجة الدكتوراه قيد البحث والدراســة بعد حصولى على الدرجة الاولى . وقد ابلغته بأن المنحة التى حصلت عليها لمدة عام فقط وان املى فى ان احقــق هدفى . كان موضوعيا فى تعليقه على هذا . فهــو لم يعد بشيء وترك الامر كله فى يدى . ذلك لان مد المنحة عاما آخر او اكثر يتوقف على جهودى وليس على جهود احد غيرى . وسرعان مابدأ البروفسور موريس فى اعداد

كشف بالعلوم التى يجب على ان ادرسها فى الفصل الدراسي الاول من العام ، واوقات حضور المحاضرات آخذا فى الاعتبار اننى قد جئت من بلد درجة الحرارة فيه بالنسبة لدرجة حرارة مدينة بوستن مرتفعة . ورأيت اهتمام البروفسور موريس وهو يعد الكشف باختيار الاساتذة ايضا . فالملاحظ أن العلم الواحد قد يكون له اكثر من استاذ . وقد علمت انه على ان امتحن فى موضوعات دراسية يكون عدد ساعات القائها فى الاسبوع فى اثناء فترة الدراسة ٣٠ ساعة . فآثرت ان يكون اختيار موضوعات الدراسة فى الفصل الدراسى الاول عن العام الاكاديمى ١٩٥٣ - ١٩٥٤ على اساس ١٥ ساعة فى الاسبوع ، ويكون اختيار الموضوعات فى الفصل الدراسى الثانى من هذا العام على نفس الاساس ، على ان ابدا فى القيام باجراء بحث عن موضوع « نظام الاختبار القضائى فى مصر الحديثة » الذى كنت قد أعددت له العدة من قبل . وفى ضوء خبراتى وافق البروفسور على هذا البرنامج بعد ان قال لى محذرا وهو يبتسم « اننى لا ارغب فى ان تكون عودتك الى بلادك فى تابوت »!
وكانت موافقة البروفسور موريس على اجراء هذا البحث مشروطة بأن يكون تحت اشرافه على أن يعين أستاذ آخر ليشاركه هذا الاشراف . ولم تسعنى الدنيا عند الانتهاء من هذه المقابلة ، وتركت البروفسور موريس راضيا متفائلا وشاكرا . وبدات اردد فى سرى ان الامر كله « يتوقف على جهودى وليس على جهود احد غيرى » . وكانت موضوعات الفصل الدراسى الاول تشمل « جناح الاحداث » الذى كان مسئولا عن تدريسه الاستاذ « ايدوين بورز » ، و « المذنب الشاذ » الذى

كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ج . ك . ستروب » وكان استاذا زائرا جاء من الدانيمارك ، و « علم الاجرام » الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور البرت موريس » ، و « الابنية الاجتماعية المقارنة » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « سانت كلير دريك » ، و « مناهج البحث فى الزواج » الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور ج . ت . جرين » ، ثم « طريقة خدمة الفرد ورعاية الطفل » الذى كانت مسئولة عن تدريسه « الدكتورة ن . دنبار » ويلاحظ القارىء ان الموضوع الاخير هو احدى طرق الخدمة الاجتماعية . وكنت احضر المحاضرات فيه فى كلية الخدمة الاجتماعية بالجامعة . وذلك لان « الخدمة الاجتماعية » مثلها مثل « علم الاجرام » جزء لا يتجزء من علم الاجتماع . فعلم الاجتماع كما كانت تراه جامعة بوستن فى ذلك الحين ينقسم من حيث التخصص الى اربعة ميادين هى :

- علم الاجتماع العام .
- علم الاجتماع التطبيقى .
- نظريات علم الاجتماع .
- مناهج البحث فى علم الاجتماع .

ومن ثم فقد كان اختيارى لعلم الاجرام يعنى ان ميدان تخصصى هو علم الاجتماع التطبيقى . اما موضوعات الفصل الدراسى الثانى ، فقد كانت تشمل « حلقة بحث فى علم الاجرام » وكان المشرف عليها « البروفسور موريس » ، و « حلقة بحث فى النظريات الاجتماعية » وكان المشرف عليها « البروفسور أ . زالنجر » و« المجتمع والثقافة والشخصية » الذى كان مسئولا عن تدريسه البروفسور زالنجر ايضا ، و « المجتمعات الحضرية »

الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « مناهج البحث فى الزواج » الذى كان مسئولا عن تدريسه البروفسور جرين .

واذا كانت ميادين علم الاجتماع كما كانت تراهـا جامعة بوستن فى ذلك الحين اربعة ميادين ، وان على عالم الاجتماع ان يستخدم قوانينه فى حل المشـاكل الاجتماعية مثل البطالة والجرائم والفقـر والامراض والتعصب العنصرى والامراض العقلية والحروب ، فان ذلك يرجع الى الاهتمام فى ذلك الحين بالقيام بدراسة تأثير العلم المادى على المجتمع وبالتعاون لا فى سـبيل تقدم العلم المادى فحسب ، وانما فى سبيل توطيـد السلام والحرية الفكرية بين الامم ، حتى يتسنى للعـلم المادى ان يوالى تقدمه وانتشاره ، وأن يضفى خيراته بسخاء على النوع البشرى . ومن ثم فان الدعـوة الى ان يستدعى ميدان الخدمة الاجتماعية تلازم البحـث الاجتماعى والعمل الاجتماعى اصبحت فى هذا الضوء ضرورة . فقد كان يقال فى ذلك الحين أنه ليس مـن المعقول ان ندع المجتمع يتهدم رغبة فى أن نهيىء لاحـد الباحثين فرصة لدراسة عملية التهدم بهـدوء وعـدم اكتراث . ولذلك كان يدعو البروفسور «ويندل كليلاند» استاذ علم الاجتماع بالجامعة الاميريكية بالقاهرة ، اول من علمنى ا ب علم الاجتماع ، علماء الاجتماع الى أن يتشعوا بروح ملؤها العطف المتزايد مجهودات الاجتماعيين فى الميادين العملية ، والى استخدام علم الاجتماع فى حل المشاكل الاجتماعية بقصد القضاء عليها . ولم يكن من غير المتوقع أن لا يدعو البروفسور كليلاند هـذه الدعوة فى ذلك الحين ، وذلك لان جامعـات الولايات المتحدة ، ومنها جامعة بوستن ، كانت تدعو الى نفس هذه الدعوة . وقد اصبح بمرور الزمن لعلم الاجتماع

كمفهوم انساني ليست فقط معاني عديدة بل أصبحت له أيضا صور عديدة . فنحن نجد الآن « في الثمانينات» علم الاجتماع التاريخي وعلم الاجتماع الصناعي وعلم الاجتماع الطبي وعلم الاجتماع العائلي « الاسرة والزواج والقرابة » وعلم الاجتماع المعرفي وعلم الاجتماع الريفي وعلم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع السياسي مثلا وبدأ اساتذة الخدمة الاجتماعية في مصر اسوة بغيرهم في البلاد الاخرى بان يقوموا باجراء البحوث والدراسات انفسهم او بان يشرفوا عليها لكي يصنعوا دعائم « علم الخدمة الاجتماعية كعلم مستقل كغيره من العلوم الانسانية ، اسوة بما حدث فعلا في علم الاجرام وعلم جناح الاحداث وعلم العقاب .. الخ . ولعله ان يكون لعلم الخدمة الاجتماعية المستقل في المستقبل القريب او البعيد صور مستقلة جديدة اسوة بعلم الاجتماع مثل « علم خدمة الفرد » و « علم خدمة الجماعة » و « علم تنمية المجتمع » .. الخ . ومهما يكن من الامر فان الوصول الى كل ذلك وتحقيق هذا الطموح العلمي [illegible] الاساتذة [illegible] المسئولون عن [illegible] الاجتماعية في مصر [illegible] البحوث [illegible] وذلك عن طريق [illegible] اي عن طريق نتائج البحوث الواقعية في المجتمع المصري [illegible] يمكن ان [illegible] النظريات [illegible] العلمية ومن ثم [illegible] التي [illegible] والقوانين وانني أدعو الى ذلك فانني ارجو ان يبدأ المسئولون عن الخدمة الاجتماعية في مصر بالاهتمام بتقييم طرق الخدمة الاجتماعية المهنية ، كما تطبق في مجتمعنا ، تقييما علميا ، اى عن طريق البحوث الواقعية ، تمهيدا لتقنينها وفقا لظروف مجتمعنا الثقافية الاجتماعية والاقتصادية ، في الريف وفي الحضر وفي مجتمع

البداوة .

وقبل ان اواصل حديثي فانني اود ان أؤكد هنا انه اذا كان المغفور له الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام والبروفسور جون لويس قد تركوا ، كاساتذة لى ، بصماتهم على شخصيتى ، كل فى حدود اختصاصه وفى حدود الاساليب التى اتبعها معى ، فان البروفسور البرت موريس هو ايضا كأستاذى قد ترك بصماته على شخصيتى . انه كان فى تخصصه كعالم اجتماع متخصص فى علم الاجرام موسوعة حية . وقد شهدت بذلك كتبه والجامعات العديدة التى كان يذهب اليها سنويا كاستاذ زائر فضلا عن آلاف الطالبات والطلبة الذين خرجوا من تحت عباءته . سواء كانوا من بنات وابناء الولايات المتحدة او من غيرهم . كان البروفسور موريس فضلا عن فيض علمه الغزير ابا رحيما لى . لم يكن وحده الاب الكريم الذى احتضنني وانا التائه الغريب فى محيط الحياة فى مدينة بوستن ، بل كانت السيدة الفاضلة زوجته « دوروثى » الام الكريمة الرحيمة التى كانت تستقبلنى ، عندما كان يدعونى البروفسور موريس الى تناول طعام الغداء أو طعام العشاء فى بيتها ، وكأننى احد ابنائها . اننى بكل الصدق والامانة وانا الان اكتب هذه السطور فى الوقت الذى كدت ان ابلغ سن السبعين من عمرى ، اذكر بالحب والاحترام هذا الرجل . انه كان يقول لى دائما عندما اشكره على شيء كريم بذله من اجلى « لا تشكرنى ياسيد انت تستحق كل الوان التشجيع التى اسديها اليك كما يسديها اليك اساتذتك الاخرون . لانك طالب جاد ومجد ولانك شخص مهذب ولانك صديق » . كنت أحس وانا معه فى المكتب او فى العربة بجواره وهو

يسوقها او فى بيته بالسعادة الحقة تغمرني . فقد كان مصدرا للحب ومصدرا للاحترام ومصدرا للعلم والمعرفة كان وانا جالس معه يشع كل ذلك ، وكنت اتذوق كل ذلك بنهم المحروم الذى يعيش مغتربا في بلاد الغربة .
وكان البروفسور موريس رجلا كريما حقا . ولا يضن على الآخرين بشيء يملكه ، معنويا كان اوماديا ، اذا كان السائل فى حاجة اليه . واقصد بالشيء المادى هنـــا المراجع النادرة التي لا تجدها الا فى مكتبته . فلم يكن يعطي نقودا لاحد مثلا . ولكنه اذا عرف أن شخصا في حاجة الي مال ويستحق ذلك فانه يسعى جهده لكى يجد العمل الذى يدر عليه هذا المال . أنظر اليه وهو يحاضر الطالبات والطلبة . تجده لا يحاضر فقط فى علم الاجرام ولكن يضيف الكثير من خبراته التى اســـتقاها مـــن المجتمعات التى زارها وهى عديدة منهـا المجتمعـات المحلية « كاليفورنيا ونيوميكسيكو وكولومبيا مثـــلا » او المجتمعات الاجنبية « ملبورن باستراليا ونيوزيلاندا ومصر والدانيمارك مثلا » . وكان أسلوب ألقائه واضحا سلسلا عذبا . كنت وانا الاجنبى فى الفترة الاولى مـــن حياتى فى جامعة بوستن افهم كل ماكان يقـــوله فى المحاضرة ، على عكس الاساتذة الاخرين فكنت افهم من بعضـــهم ٥٠٪ ممـــا كانوا يقـــولون ومن بعضـــهم الاخر ٧٠٪ مما كانوا يقولون . وخبراته فى صميم علم الاجرام كانت عديدة وعميقة . فقد كان رئيس اللجنة التى كانت تخطط من اجل وضع برنامج خاص للشباب فى مدينة بوستن ، وكان مستشارا للجنة المتفرعة من « اللجنة التشريعية لمجلس الشيوخ الاميريكى « عندما كانت تبحث مشكلة جناح الاحداث ، وكان عضوا فى مجلس ادارة « الجمعية المتحدة للسجون في ولاية ماساتشوست» ،

وكان عضوا فى مجلس أدارة « المنظمة الاميريكية لالغاء الحكم بالاعدام » ، وكان عضوا فى « جمعيـــة علم الاجتماع الاميريكية » ، وكان عضوا فى « الجمعيـــة الشرقية لعلم الاجتماع » ، وكان عضـــوا فى « الاكاديمية الاميريكية لعلم الاجتماع السياسى » ، وكان عضـــوا فى « المؤتمر الاميريكى للعقاب » . وقد مثل البروفســـور موريس لسنوات العديد من الهيئات والمنظمات وكان فيها على سبيل المثال لا الحصر « جمعية علم الاجتماع الاميريكية » و « منظمة السجون الاميريكية » . وكم حاولت عندما عدت الى القاهرة الحبيبة أن تدعوه ادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عندما كـــان لا يزال « المعهد القومى للبحوث الجنائية » وكنت قـــد عينت فيه خبيرا مساعدا ، وبخاصة فى بدء حيـــاة هذا المعهد لكى يمنحها هذا الاستاذ الكبير بعض خبراته ولكن جهودى فى هذا الصدد مع الاسف الشديد ذهبت سدى .
ان هدفى فى ذلك الحين من مجىء رجل مثل البروفسور موريس وبخاصة فى التوقيت الذى كنت قـــد ناديت بدعوته ، كما لا يخفى على القارىء ، أن نبدا عملنا على أسس سليمة وبخاصة فقد كانت مهنة البحث العلمى الإجتماعى بعامة والبحث العلمى الجنائى بخاصة مازالت فى أول عهدها فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، اقصد منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما عند كتـــابة هذه السطور .
وفى خلال شهر ابريل عام ١٩٥٤ ، فى الاسبوع الاخير منه ، بعد ان اديت امتحانات الموضـــوعات الدراســـية للفصل الدراسى الثانى تمت الموافقة على البحث الذى قدمته عن موضوع « الاختبار القضائى فى مصر الحديثة» وفى يوم ٦ من شهر يونيو عام ١٩٥٤ ، منحت درجـــة

الماجستير . ولما كانت الدرجات التي حصلت عليها في الموضوعات الدراسية للفصل الاول والفصل الثاني درجات مرتفعة ، فقد حصلت على الدرجات النهائية في سبع موضوعات من احد عشر موضوعا ، فان البروفسور موريس قام بجهد كبير من اجل مد المنحة الدراسية سنة اخرى . كتب من اجل تحقيق هذا الهدف « الكبير » تقريرا لم ار مضمونه الى « ادارة التربية الدولية » التي كانت تشرف على علميا في اثناء وجودي في الولايات المتحدة ، وقد ضمن هذا التقرير خبر حصولي على « الدبلوم العالي للتربية : جامعة لندن » الذي جاءني عنه خطاب رسمي من جامعة لندن قبل ذلك ، وعلم به البروفسور موريس في حينه . وكانت النتيجة ان وافقت الادارة « على مد المنحة لمدة عام آخر . وكان حصولي على درجة الماجستير قد اسعدني حقا ، وبدأ الامل يداعبني في الحصول على درجة الدكتوراه . لم اكن اعلم متى سيحدث ذلك . ولكن كما قال لي البروفسور موريس ذات مرة ان الامر كله « يتوقف على جهودي وليس على جهود احد غيري » .

وجاء يوم التخرج والجامعة تحتفل بهذا اليوم احتفالا كبيرا . كان كل الخريجات والخريجين مع ذويهم وضيوف الجامعة يحضرون هذا الاحتفال المهيب . وكان على أن استأجر « روبا » من الجامعة لكي البسه وانا اتسلم الشهادة الدالة على حصولي على الدرجة الممنوحة لي . وكان كل خريج عندما ينادى على اسمه ويعطى هذه الشهادة يرفعها بيده لكي يراها الحاضرون ومنهم بالضرورة اعضاء اسرته . وانني اذكر انه قد نودى على اسمي وتسلمت الشهادة ورفعتها بيدي لكي يراها الحاضرون الذين بسبب الدموع التي غطت عيني لم

ار امامي منهم احدا . كنت الوح بالشهادة كما كان يفعل غيري فحسب . ولم اكن ادري اذا كانت دموعي دموع فرح وانتصار او دموع حزن واسى . فقد كنت فى هذا الاحتفال ، على الرغم من جموع الآدميين الذين كانوا حولى ، وحدى . لم يكن اعضاء اسرتي الصغيرة بينهم . لم يرني واحد منهم . أن من رآنى لم يكن يمتون لى بصلة قرابية . كانوا من البشر مافى ذلك من شك . وربما فرح بعضهم من أجل حصولى على الدرجة فرحا صادقا . وربما لم يفرح احد . ولكنني كنت متاكدا عندما يعلم اعضاء اسرتي الصغيرة اذا مانقلت اليهم عن طـــريق خطاب خبر نجاحي أنهم سيفرحون حقا وصدقا .

وكان امامي شهور ثلاثة اعيشها خارج الجامعة حتى تبدأ الدراسة فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٤ . وفوجئت بأن زميلاتى وزملائى بالمحلة قد غادروها الى أسرهم . وبقيت مع الشاب الكندى الذى آثر البقاء فى المحلة . وقد توطدت الصلة بيننا . فقد كنا نتحدث سويا ونأكل سويا ونقرأ الجرائد سويا . ونذهب الى دار الســينما « احيانا » سويا . ومع ذلك فان معظم الوقت كنت وحدى . وكنت فى الليل ابقى ساهرا اذكر المــاضى القريب عندما بدأت الحياة فى محلة نورفلك وقابلني مستر ديفيز مديرها . تذكرت الجماعة التى كنت اشـــرف عليها ، اقصد « جماعة الفيبرز » الشبان الزنوج . كيف بدأت معهم وكيف كان رد الفعل عندما علموا بأنني ساكون المشرف عليهم كاعضاء فى المحلة . كنت لا املك لهم ، وانا لا املك غير ذلك ، الا الحب والاحترام . كانوا فى اول الامر لا يثقون فى الثقة التى ابغيها منهـــم لـكي افيدهم بخبراتى وافيد بخبراتهم . كانت اللغـــة فى

اول الامر عائقا بيني وبينهم ، فقد كانوا يتحدثون اللغة « الاميريكية » باسلوب الرجل العـــادي غير المثقف ، وكانوا اذ يتحدثون معي او مع بعضهم البعض ، يتحدثون بسرعة . وكنت عندما اتحدث اليهم وكانت لغتي هي اللغة الفصحى يسخرون من لغتي ويداعبونني . كنـــا نتقابل يومي الاثنين والاربعاء من كل اسبوع من الساعة الســادسة الى الساعة التاسعة مساء . وكنت اســبق حضورهم ، اذ كانوا يتلكأون في الحضور ويتأخرون عن المواعيد المحددة . وكنت اجلس انتظر مؤمنا بان حبي لهم راحترامي سيشعرون بهما حتما في يوم من الايام . وفي احدى الليالي في اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ انتظرت جماعة الفيبرز ، ولكن لم يحضر احد . ومر الوقت فاذا بالساعة تشير الى السابعة والنصف مساء . فحزمت امري على ان اذهب اليهم ، فقد كنت اعلم ان المدارس في حي روكسبري تفتح ابوابها للشباب مساء لكي يقضوا اوقات فراغهم كلما عن لهم ذلك . لم يكن هناك اشراف مهني في هذه المدارس على من يحضر من شباب الحي او من غيرهم من الشباب . وذكرت لمستر « دن يونج » ماعزمت عليه فلم يقف في ســبيلي وترك الامر لي . وذهبت في شوارع حي روكسبري التمس المدارس التي تقع فيه ، وكان البرد قارسا حقا ، وسرعان ماوجدت اعضاء جماعة الفيبرز في احد الملاعب في احدى المدارس . رايتهم وما ان راوني حتى ســارعوا الى استقبالي وطلبت منهم الذهاب معي الى محـــلة نورفلك ، فقد انتظرت طويلا ولم يحضر احد . وابلغتهم في حب واحترام ان هذه المحلة قد اتاحت لهم الفرصة كي ينشطوا ماشاء لهم من النشاط المشروع في حدود الوقت المحدود . ورايتهم يحيطون بي ويتبعونني ، وذهبنا

الى المحلة ودخلنا من الباب الى الحجرة المخصصة لنا حيث تعهد الجميع على عدم التأخير في يومى الاثنين والاربعاء من كل أسبوع فى خلال الفترة المسائية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة . وقد وفوا بوعدهم منذ ذلك الحين الى ان تركت المحلة بعد ان اديت مهمتى الدراسية بحصولى على درجة الدكتوراه في شهر مايو عام ١٩٥٦ . لقد ايقنت منذ تلك الليلة في اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ بانني كسرت « لوح الثلج » الذي كان يقف عائقا بينى وبين جماعة الفيبرز . وقد تأكد ذلك عندما تبرعوا لكى يشتروا لى « هدية » بمناسبة « عيد الكريسماس » ، وعندما دعونى لحضور كنيستهم صباح يوم احد من الآحاد ، وعندما دعاني رئيسهم الي طعام الغداء في بيتهم المجاور للمحلة . وعندما كنا نتبادل الزيارات العديدة بعد ذلك ، هم يأتون عندي في المحلة وانا اذهب الى بيوتهم . وتوطدت صداقتى الخالصة بهم وبأعضاء اسرهم . ولن انسى ما حييت زياراتي لبيت عضوين منهما وهما « بنى » و « دبى » . كان البيت فى احدى حوارى حى روكسبرى الفقيرة جدا ، واذا بى وانا فى الشقة اجدها نظيفة جدا واثاثها يتضمن « البيانو » و « المكتبة » التى تتكدس فيها الكتب والمجلات من كل نوع . ولن انسى الرجل الزنجي كبير السن الذي قابلته فى احد الممرات ، كان الجد الكبير ، ويبدو انه كان فى الثمانين من عمره ، للعضوين المذكورين . وقد كان هذا الرجل الهرم لطيفا معى واحتفى بي ، فأنا قد جئت من قارة افريقيا ، احتفاء كبيرا . وتحدث معي كثيرا وكان يقول لي في يقين « يابني لا تثق ابدا فى الرجل الابيض ولا تذهب الي دار سينما ولا الى مطعم وتجنب الرجل الابيض » . وانا اذكر الآن انني عندما ابلغت مستر « دن يونج » عن

اول دعوة الى زيارة بيت من بيوت اعضاء الجماعة ، شجعنى على الذهاب . فهولم ير في حياته بيت زنجى من الداخل واذا اضطر الى الذهاب الى بيت احدهم فان أهل البيت لا يسمحون له بالدخول ويتعمدون ان يبقى واقفا أمام البيت حتى يقضى حاجته . ان مستر دون يونج اعتبر هذه الدعوة الاولى لى نجاحا ساحقا لى فقد تأكد من توطيد الثقة بينى وبين اعضاء الجماعة .

وانا اذا ذكرت « بنى ودبى » فاننى لايمكن ان انسى ذكر « البرنى زمنك واريك » . كان عدد أعضاء الجماعة خمسة عشر شابا من سن الخامسة عشرة الى سن العشرين . وكانت مواهبهم شتى . كانوا يغنون وكانوا يرقصون وكانوا يتقنون لعبة كرة السلة . وكانوا فى كل هذه النشاطات وغيرها موضع حسد باقى أعضاء المحلة . واعتبرونى اخا كبيرا لهم ، وكان بعضهم يعتبرنى أبا .

وكان عندى يوم الاثنين مساء ويوم الاربعاء مساء من اسعد الايام التى قضيتها لا فى محلة نورفلك فحسب بل فى الولايات المتحدة الاميركية كلها . كنت أنتظر هذين اليومين . فقد كانا لى بمثابة العلاج لما كنت أعانى من الوان الاغتراب فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه فى ذلك الحين . كنت اشعر بانهم اقرب الناس الى واننى من اقرب الناس اليهم . كان بعضهم من السمر ، وكان بعضهم من السود ، وكان من بينهم شاب ملامح وجهه كلها ملامح وجه اى شخص اسود وكان شعره « أكرت » ولكنه كان ابيض ذا شعر احمر . وقد قبله أعضاء الجماعة على انه زنجى لانه كان من المحال أن يقبله الاعضاء البيض على انه ابيض مثلهم . كان هذا الشاب قريبا الى نفسى لاننى كنت أحس بكل ماكان يشعر به ، ولعلى ان نجحت فى تيسير اشتراكه مع أعضاء جماعة الفيرز

فى كلّ نشاطاتهم . كان هذا الشاب يتسولّ الاعتراف به بل كان يتسول الحنان والحب من الآخرين . تماما كما كنت افعل . فانا فى حجرتى اذا دخل على واحد من النزلاء زملائى كنت ابادر بأن اقدم له كل ماعندى من فاكهة او حلوى او .. او . كان هؤلاء الزملاء يعرفون ذلك عنى فيتناوبون الدخول الى حجرتى لكى يأخذوا دون أن يعطوا ، وكنت اعلم ذلك علم اليقين ولكنى كنت راضيا عن تصرفى كل الرضا . ذلك لان حضور احدهم يعنى وجود انيس لى كما يعنى الاعتراف بوجودى ، ويعنى كذلك كسر حدة الاغتراب الذى كنت اعانيه . كل ذلك نظير ثمن بخس : برتقالة مثلا أو تفاحة مثلا أو قطعة من الشيكولاته مثلا . وكان الاطفال يسارعون الى لكى يفعلوا ماكان يفعله الكبار ، كانوا لا يكفيهم ما أمدهم به من حاجات عينية ولكنهم كانوا يطلبون نقودا لا تعدو بضعة السنتات . وعندما يخرج أحدهم من الحجرة ومعه « نيكل » « مايوازى خمسة سنتات » مثلا يذهب توا الى امه او الى ابيه او الى اخته او الى اخيه ليرى من يذهب اليه كيف نجح فى « نشل » هذا المبلغ منى ! ولكنى كنت سعيداً بكل ذلك فقد كان هؤلاء الاطفال يذكروننى باطفالى عندما كانوا فى مثل سنى ، وكانوا يملأون كيانى بالسعادة الحقة . فانا كنت نفسيا فى حاجة الى حضورهم كما كنت ايضا فى حاجة الى حضور آبائهم أو حضور النزلاء الشبان زملائى . اننى كنت كما ذكرت اتسول الاعتراف بى وأتسول الحنان والحب من الاخرين نظير ثمن بخس . ولم تمنع نشاطاتى فى المحلة وزيارات ضيوفى من النزلاء والاطفال من استذكار دروسى فى المواعيد المقررة . بل على العكس لقد كانت عونا على ذلك . كما كانت فرصة رائعة لاغوص

في بعض الالوان من الظواهر الاجتمـــاعية والروابط الانسانية وانماط الســلوك البشرى ، ومن ثم تزداد خبرتى بالانسان مما ييسر لى أن اعلم اكثر لكى افهــم اكثر ومن ثم استطيع ان اعلم اكثر . أليس من تعلم علبه ان يعلم ؟ وانا قد نذرت نفسى لذلك سواء كنت فى الولايات المتحدة الامريكية او فى مصرنا الخالدة . وكان ما اسعدنى ان ارى مصريا ، واننى اذكر اننى رأيت احد المواطنين الذين يدرسون للحصول على درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وكان وحيدا مثلى . فدعوته الى تنــاول الطعام العشاء فى احد المطــاعم التى يديرها بعض اللبنانيين وهم كثير فى مدينة بوستن لكى تأكـــل بعض اصناف الطعام التى تعودنا عليها فى وطننا العزيز مثل « المحشى » و « الكباب » و « الكسكسى » .. الخ . وذهبنا وكان البرد قارسا ، ولكن حرارة اللقاء بددت برودة الجو . وتناولنا الطعام ، وكان طعام العشاء ، وحمدنا الله جل وعلا . ثم آثرنا ان نسير على الاقــدام فى الشارع على الرغم من البرودة القاسية . كـانت المشاعر الحميدة تغمرنى وتسعدنى فى نفس الوقت ، ولم اكن آبه الا اننى فى صحبة مواطن مكث معى بضع ساعات . وفى أثناء الطريق قابل المواطن احد القساوسة الامريكيين سائرا ايضا فى الشارع ذاهبا الى الجهة المضادة ، فسلما بحرارة وتبادلا التحيات الطيبات وانا واقف بجوار مواطنى وانا صامت حتى يقــدمنى الى صديقه . وقدمنى اليه ومد الرجـــل يده وسرعان ماسحبها اذ سمع مواطنى قوله اننى فلان ادرس للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، واننى مسلم . ورأيت الرجل يمد يده للمصافحة فمددت يدى ولكن المصافحة لم تتم عندما سمع كلمة « مسلم » . وسرعان

ما احسست بحبات العرق تسيل من وجهي خجلا على الرغم من برودة الجو واكفهراره . واحسست بأن حبات العرق قد تجمدت على وجهي . ثم سرنا الى مقصدنا ، اي سرت ومواطني الى حيث نسكن . كان يسكن بعيدا عني ، وكنت اقرب الى بيتي منه الى بيته . وعندما عاتبته على اسلوب تقديمي الى هذا الرجل المتعصب اعتذر في حرارة ، وقبلت اعتذاره وانا ساخط . وسرت في طريقي وانا امارس كوني عضوا من اعضاء جماعات الاقلية في المجتمع الذي اعيش فيه . والتمست العذر لاعضاء جماعات الاقلية في المجتمع المصري ، وبخاصة جماعة الاقباط على الرغم من سيادة قيمة التسامح في ربوع هذا المجتمع .

واذا كانت الحياة فيها الشر ويتمثل في البغضاء والتعصب مثلا ، فان فيها ايضا الخير ويتمثل في المحبة والولاء مثلا . وانا اذكر ذلك فالقارىء يعلم الآن ما كان من امر استاذي البروفسور البرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه الكثير ، وهو يعلم ايضا ما احاطني زملائي في المحلة في ضوء ثقافاتهم من رعاية واهتمام وتشجيع . وحتى الزميلات كن في الغالب اكثر من زميلات ، وكن يحاولن وبخاصة في عطلة نهاية الاسبوع اقناعي وآخرين من الشبان لنذهب الى احد محلات « هوارد جونسون » المشهورة لكي نتعاطى طعاما أو شرابا . وكان يدفع كل واحد منا ثمن مايتناوله . وكانت وسيلة الانتقال احدى السيارات التي يملكها احدهم او تملكها احداهن . وانا اذكر انني ذهبت في اثناء احدى العطلات الى « ولاية فيرمونت » التي تلامس حدودها حدود « كندا » . وانني اذكر ايضا اننا وصلنا الى هدفنا بعد اكثر من ست ساعات وسرنا في خلالها في حقول من التفاح التي

تركها اصحابها تثمر دون ان يجمعوا المحصول حتى لا يزيد العرض من التفاح في السوق فينقص الثمن . وكنا نأخذ من ثمرات التفاح « الطازجة » ماتريد ولا رقيب ولا حسيب . ولا يمكن الا ان اذكر احد الزملاء من نزلاء محلة نورفلك الذي دعاني لقضاء عطلة « عيدالكريسماس » في منزله . وقد رحبت بي السيدة زوجته وابنه « ميكى » وكان في العاشرة من عمره وابنته « مارثا » وكانت في الثامنة من عمرها . رحبوا بي جميعا ، ونمت في احدى الحجرات وقضينا وقتا طيبا في البيت وفي خارج البيت . وقد ذكرت لي احدى الآنسات المصريات التي قابلتها في الجامعة ان المشرفة على احدى الجمعيات والتي كانت تدير دارا للضيافة ينزل فيه من يحب نظير تأدية بعض الخدمات ، سمعت عن وجودي وتطلب مقابلتي . كانت « مس وليامز » وقد بدت لي عندما رأيتها انها في الستين من عمرها ولكنها كانت في صحة جيدة جدا . وتحدثت اليها تليفونيا وسرعان ما دعتني الى زيارتها . وزرتها فعلا وكانت كريمة في كل حركاتها وسكناتها وحديثها . وانني اذكر انني تناولت مع طالبة يابانية معها طعام العشاء ، فكانت ـ علىالرغم من انها لم تسعد بممارسة الامومة ـ اما لنا . واتصلت علاقاتي بهذه الانسانة وتكررت زياراتي لها . وقد اصرت على دعوتي الى مصيف « روك بورت » بعد حصولي على درجة الماجستير لقضاء اسبوع للاستجمام . وهذا المصيف عبارة عن مدينة صغيرة تقع على المحيط الاطلنطى وقد ذهبت فعلا الى المصيف ، وكنت ضيفا عليها طوال الفترة التي قضيتها في هذا المصيف ، وعندما قابلت « دكتور موريس ساندرز » الذي كان « ملحقا صحيا » في سفارة الولايات المتحدة بمدينة بيروت . وبدا لي منذ

اول وهلة ان هذا المصيف مصيف كبار القوم . وتأكد لى حدسى بأن عائلة « فوستر دلاس » لها بيت فيه ، وغيرها من الاسر ذات المكانات العالية سواء كانت هذه المكانات سياسية أو اقتصادية او ثقافية لها بيوت فيه . وكان للدكتور ساندرز بيت كبير مزود بالاثاث الفاخر الذى يملأ الحجرات العديدة فيه . وفى روك بورت قابلت الكاتب المعروف « شارد بورز سميث » ، وهو مثل الكثيرين الذين يسكنون فى المصيف « يانكى » مائة فى المائة تماما مثل دكتور ساندرز . ويكفى أن اقول هنا ان هذا الكاتب شاعر ومؤرخ ويكتب الرواية . وقد يخالفنى الرجل عندما ذكرت أنه يانكى مائة فى المائة . لانه يرى ان ٤/٣ سلالته تتكون من سلالة « انجلترا الجديدة » اما الربع الاخير فمن سلالة هاجرت من انجلترا فى القرن التاسع عشر . والمعروف أن انجلترا الجديدة هى معقل كل « يانكى » فى الولايات المتحدة . كان هذا الرجل ضيفا مثلى فى صيف عام ١٩٥٤ على مائدة احدى السيدات الاميريكيات الثريات جدا التى كانت تستاجر الآنسات « الاسكاندينيفيات » للعمل فى بيتها الفخم بأجر نقدى لا يقل عن ثلثمائة دولار شهريا اى بأجر يماثل ماكان يحصل عليه اخصائى اجتماعى حائز على درجة الماجستير فى ذلك الحين . ولا يجب الاجر النقدى المشار اليه ان تحصل الآنسة العاملة على طعامها وملبسها وماشابه ذلك مجانا . اى ان الواحدة منهن كانت تحصل على ضعف ما احصل عليه من نقود المنحة الدراسية انتى كنت ارسل منها الى أسرتى الصغيرة ماتيسر لاعضائها مواجهة ظروف الحياة . كان وجودى فى محلة نورفلك قد وفر على اجر المكان الذى كان يجب ان ابيت فيه . ولم يكن يقل هذا الاجر فى

ذلك الحين من ٦٠ او ٧٠ دولارا شهريا . هذا اذا كان المكان متواضعا وليس عاديا . اي الذى قد لا توجد فيه مياه ساخنة أو اجهزة للتدفئة مركزية او غير مركزية . وانا اذكر ان علاقتى بالمحلة والمشرفين عليها ونزيلاتها ونزلائها كانت اكثر عمقا من علاقتى باساتذتى فى الجامعة ماعدا البروفسور موريس . كنت احترم هؤلاء الاساتذة نعم ، ولكنى فى السنة الاولى لم استطع ان اكون عنهم رايا موضوعيا . ومهما يكن من الامر فان خبراتى عن المجتمع الذى كنت اعيش فيه فى خلال العام الدراسى الاول كانت مبتورة . فقد كنت كالطفل الذى تاه من امه ويسلك الطريق وحده وكانه ضائع احيانا او شبه ضائع احيانا اخرى . ولكن العام مر مر الكرام ولم اشعر بالايام وهى تجرى وتمر مر السحاب . لقد افدت خبرات منتظمة وخبرات غير منتظمة فى خلال ذلك العام مافى ذلك من شك . وقد يسرت لى هذه الخبرات بنوعيها استقبال العام الثانى استقبال الشخص الواثق بنفسه لا الشخص الحائر المتردد مافى ذلك من شك ايضا .

وعلى الرغم من كل ماكان يواجهنى من مهام فقد كنت اتابع ماكان يجرى من احداث سياسية فى الولايات المتحدة وفى العالم وبخاصة فى مصرنا الغالية . كنت اقرا الصحف السيارة والمجلات ، وكنت اسمع للاذاعة ولكننى لم اكن اناقش احدا فى الامور السياسية . فقد عرفت من التجربة ان نوع هذه المناقشة على الرغم مما يقال عن حرية الرأى فى المجتمع الاميريكي من غير المرغوب فيه . وان مجرد نطق كلمة « شيوعية » او كلمة « اشتراكية » كان يعتبر طامة كبرى . ومع ذلك فقد كنت اجد فى الحجرة التى نستقبل نحن نزلاء محلة نورفلك ضيوفنا كتبا عن نكبة هيروشيما ونجازاكى

ملقاة على الكراسي ولا يعرف احد من الذي القاها . انها وضعت لتقرأ . وقد وجدت يوما كتابا بعنوان « الحرية الاميريكية وقوة الكاثوليك : طبعة عام ١٩٤٩ لمؤلفه « بول بلانشارد » ، وهو كتاب ينعى على هذه القوة التي تزداد يوما بعد يوم في العالم . ويعتبر مدينة « روما » معقل الكاثوليكية مثل مدينة « موسكو » معقل الشيوعية . اى ان المدينتين في الاهداف سواء . وفي خلال شهر مارس عام ١٩٥٤ جاء فى الاخبار خبر الازمة التى حدثت فى مصر فى ذلك الوقت . تلك الازمة التى كانت متوقعة وبرزت الى حيز الوجود فى ذلك الحين وكانت بين الرئيس محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة ، وفى نفس هذا الشهر وقع الاعتداء المشين على الفقيه العالم الدكتور السنهورى ، وقام الاضراب العام الذى دبره عمال النقل فى مصر وانتهى هذا الاضراب فى يوم ٣٠ من شهر مارس عام ١٩٥٤ ، وانتهى الامر فى يوم ٢٦ من شهر اكتوبر ، من نفس العام ، الى حادث محاولة اغتيال عبد الناصر ، الذى امكنه بعد تصفية حركة الاخوان المسلمين وتتابع القوى السياسية المضادة من قبل ، ان يجعل السلطة الشرعية والفعلية فى يده ، وبخاصة بعد ان فقد الرئيس محمد نجيب مبرر بقائه فى رئاسة الجمهورية فى يوم ١٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ، لقد علمت بكل ذلك وغيره فى خلال عام ١٩٥٤ وانا فى مدينة بوستن . فقد كنت اتابع الاخبار اولا بأول ، وتحققت نبوءة الدكتور « دريك » الذى كان يحاضرنا فى موضوع « الابنية الاجتماعية المقارنة » حيث كان يقول ان فى الثورات يأكل القائمون بها عادة بعضهم البعض وان ثورة عام ١٩٥٢ المصرية ليست استثناء ولن تكون . كان دكتور دريك يقول ذلك وهو يوجه بصره

الى امام الطالبات والطلبة الذين يحضرون المحاضرة . ولن انسى وساذكر دائما وقع سقوط قلعة « ديان بيان فو » في يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ ، وهي التى حاصرها الفيتناميون الاحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات المتحدة السياسيين وغيرهم عندما استمعت الى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة ، كان رثاء « ندابة » مصرية ، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا . وقد دهشت لان هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من « اقليم فيتنام » ، وان الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة . ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب ، كلها ، هى التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين أن يبث مرثاته على بنات وأبناء الشعب الاميركى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ . وبعد أن استمعت الى هذا الرثاء تذكرت « مستر ومسز بريموكوم » وضيوفهما من النزيلات والنزلاء ، وكان بينهم غيرى اجانب آخرون ، وكان من بين هؤلاء التى كانت تسكن فى لندن ، وكانوا يتحدثون الفرنسية ، شابان من فيتنام . وقد جاء معظمهم عند هذه الاسرة لكى يتدربوا على الحديث باللغة الانجليزية ، تذكرت حياتى فى حضن هذه الاسرة فى خلال عام ١٩٤٨ عندما ذهبت الى مدينة لندن لاول مرة ، وتذكرت الشابين الفيتناميين بعد أن تم انتصار الاحرار من مواطنيهم على الاستعمار الغادر . وقلت فى نفسى لعلهما كانا ضمن المحاربين او لعل واحدا منهما كان ورجوت من صميم فؤادى ان يكونا قد خرجا اذا كانا قد حاربا بعد الانتصار سالمين . واذا كان الانتصار يولد الانتصار مثل العنف يولد العنف ، فقد طالعتنا الصحف فى خلال شهر مايو

عام ١٩٥٤ بظهور اكتشاف « مركب الشمس » فى مصرنا العزيزة بالقرب من الهرم الاكبر ، هرم خوفو ، لقد دوى هذا الخبر فى الولايات المتحدة بل فى العالم دويا مفرحا . اكد عظمة بلادى ، كما اكد قدمها وخلودها . لقد كان هذا الاكتشاف يرجع الى حوالى ٢٦٥٠ ق.م اى الى مايزيد على ٤٦ قرنا من الزمان . والمعروف ان مصرنا الخالدة قد عرفت عقيدة عبادة الشمس منذ فجر تاريخها ، وكان القدماء يفسرون سير الشمس من الشرق الى الغرب بأن الاله « رع » كان ينتقل فى مركبه عبر السماء حتى يصل الى الغرب ثم يقطع بها العالم الآخر فى اثناء ساعات الليل لتولد الشمس من جديد فى صباح اليوم التالى . واذا اعتبرنا ان المركب التى اكتشفت هى مركب الملك خوفو او احدى مراكبه ، حيث ان المصريين القدامى قد ذكروا فى نصوص الاهرام اسماء اكثر من خمس مراكب كان الملك يحتاج اليها فى حياته الاخرى : واحدة منها لرحلة الشمس فى اثناء النهار ، وثانية لرحلة الليل ، اما المراكب الاخرى فكانت لنزهاته فى نيل العالم الاخر او ليركبها فى اثناء عبوره لبعض البحيرات فى العالم الاخر ايضا ــ فان المركب المكتشفة فى خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كما وصفتها الصحف فى ذلك الحين ، كانت فى داخل حفرة مستطيلة منقورة فى صخر هضبة الجيزة جنوبى الهرم الاكبر . لقد كانت مفككة الى اجزاء صنعت من قطع عديدة من خشب الارز التى رتبت بدقة داخل الحفرة . وكان طول الحفرة المستطيلة ٣١ مترا وعرضها ٢ر٦٠ متر وعمقها ٣ر٥٠ متر وتغطيها وتحكم غلقها ٤١ كتلة حجرية تزن الواحدة منها ١٨ طنا فى المتوسط حمتها من تسرب

المياه وتأثيرات المناخ . كنت اقرأ هذه الأوصاف والحقائق وانا مذهول . وايقنت ان سعادتى الحقيقية تغمــرنى دائما كلما وجدت نفسى أمام انتصار الانسان ، انتصاره على الزمن او انتصاره على الطبيعة وظواهــرها أو انتصاره على اية ظاهرة اجتماعية تواجهه وهو يعيش فى المجتمع . والانتصار هنا لايعنى وجود هزيمــة هنــاك ، وانما يعنى التسلط من اجل التغيير الى الافضل حتى ترتفع هامة الانسان الى آفاق الآفاق . وفى خـــلال الفترة التى تلت اكتشاف مركب الشمس من خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كنت ، وانا فى بلد الغربة ، اعيش حالات الاغتراب ، موضع اعجاب من حولى . وكنت عندما يثار الموضوع اؤكد لهم ان فكرة المـــركب من ورائها أفكار وافكار ، اهمها فكرة البعث . فالشــمس تحيا فى اثناء النهار . وفى الغروب تبدأ فى الموت ، وتموت فعلا فى اثناء الليل ، ثم تولد من جديد مع خيوط الفجر . وهكذا دواليك . كذلك الانسان يولد ثم يموت ثم يبعث . عقيدة قديمة قدم الدهر يسرت للانســان ان يعتنق عقيدة قيامة الاموات ، وهذه بدورها قد يسرت عقيدة محاسبة الاموات بعد قيامهم ، اى يسرت الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فى الحياة الآخرة ، اى ان الحيــاة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقا لســلوك الانســان على وجه الارض . وفى هذا الضوء اعتقــد المصريون القدماء ان الانسان بعد موته سيمثل امام القضاة بشان هذا السلوك . وعقيدة الحياة بعد الموت لم تجب ان تكون الحياة قبل الموت عند المصريين القدامى مشتهاة . وكنت فى اثناء احاديثى حول هذه الموضوعات التى اوجدها الى حيز الوجود اكتشاف مركب الشمس جنوبى الهرم الاكبر اؤكد على ان المصريين طوال التاريخ وحتى الآن

يكرهون الموت ويخشونه ولكنهم لا يخشون الموتى . وقد كانوا ، ومازالوا ، يخصصون جزءا غير صغير من اموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبة الموت . وذكرت لهم فى اثناء حديثى ان عدم خشية الموتى عند المصريين القدامى والمحدثين يثبته الايمان بقيامتهم وانتشار سرقة مقابرهم ومهما يكن من الامر فان اكتشاف مركب هرم خوفو كان عندى انتصارا لبلدى وانتصارا على الوان عديدة من القلق التى كانت تساورنى فى ذلك الحين . لقد بدأت بهذا الاكتشاف صفحة جديدة فى حياتى كان من شأنها ان زادت من تفاؤلى وان بددت بعض أحزانى . وقد ساعدنى على ذلك بعض المواقف التى كنت أواجهها من حين لآخر . فقد كنت قد تعودت عندما اذهب الى الخارج ، فى اللحظات الاولى من وصولى الى البلد الذى اقصده ، خصوصا اذا كانت فترة حياتى فيه طويلة ، أن افعل ثلاثة امور : ان اشترى خريطة تبين معالم البلد ، وان اشترى « راديو صغير » ، لاننى اعتبر جهاز الراديو نافذة رائعة تطل على البانوراما الثقافية الاجتماعية للبلد ، وان اشترى جهازا متواضعا لسماع الموسيقى « بيك آب » وبعض الأسطوانات الموسيقية التى اعرفها ، وبعض الاسطوانات الموسيقية الاخرى التى احاول أن اتعرف عليها . فالموسيقى فى رايى غذاء روحى لا يمكن الاستغناء عنه خصوصا وانا فى غربتى . وقد فعلت ذلك فى التو واللحظة عندما وصلت الى مدينة بوستن ، كما فعلته من قبل عندما وصلت الى مدينة لندن . وفى يوم من ايام الاحاد ، وانا اذكر الان ذلك جيدا ، لاننى استيقظ فى هذا اليوم متأخرا . وهى عادة اكتسبتها من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة . وقد اكتسبتها فى الواقع مضطرا منفذا حرفية المثل القائل « اذا كنت فى مدينة

روما افعل كما يفعل اهل مدينة روما » ! وكان قد مر علي في مدينة بوستن اكثر من عام لم اسمع في خـلال هذه الفترة كلاما عربيا ، ولم اتحدث بالطبع مع احـد باللغة العربية . استيقظت في ذلك اليوم متأخـرا ، وحاولت ان أفتح الراديو الصغير ، وكان بجوار السرير . وكنت مازلت شبه نائم ، ويبدو أن المشير الي المحطات قد تحرك في اثناء ذلك واشار الي محطة معينة لم اكن اعيرها اهتماما من قبل ، لاف ايام الآحاد ولا في غيرها . وبعد برهة سمعت من هذه المحطة ما اذهلني . كنت نائما او شبه نائم فاستيقظت ، عيناي مفتوحتـان ، ونبضات قلبي تدق في عنف ، والدم دمي يسري في سرعة مذهلة الي وجنتي . ووجدت نفسي على الارض ارض الحجرة تاركا السرير ارقص على نغمات اغنيـة « المطربة أسمهان » ، وأذكر أنها كانت اغنية :

« اهوى .. اهوى .. يامين يقوللي قهوة »

وعرفت المحطة ، وتأكدت من رقم موجتها ، ومن فترة العمل بها . وعرفت أنها تذيع برنامجا عربيا خاصـا بالاقلية السورية واللبنانية التي تعيش في مدينة بوستن وكان يذاع هذا البرنامج كل يوم احد في نفس الوقت الذي حدث لي فيه ماحدث ولمدة نحو ساعة . وكنـت دائما مع هذا البرنامج في موعده المحدد طوال الفترة التي مكثتها في مدينة بوستن بعد ذلك . وكـان اذا حدث لسبب قهري انني لم استمع له كنت اشعر بأنني فقدت شيئا عزيزا . ومما دهشت له ، ولا ازال ، ان التغيرات التي حدثت في كياني ، وبخاصة البيولوجية منها ، عندما استمعت لهذا البرنامج في اول مرة كانت تحدث وتتكرر في كل مرة استمعت له . وانني أذكر ان بعض زملائي في محلة نورفلك قد عرفوا ذلك . فكانوا

هم ايضا ياتون في الموعد المحدد ويستمعون للبرنامج .
وكانوا يرونني وانا على هذه الحال من السرور الغريب
الذي كان يملأ على كياني . كما كانوا يرون انفعالاتي
وآثار ازدياد نبضات قلبي واحمرار وجنتي وخفتي
ورقصي .. الخ . اما هم فقد كانوا يجلسون كالاصنام
مبهوتين ، ينظرون الى وافواههم شبه مفتوحة . اما
الموسيقى فقد كانوا لا يعيرونها اى اهتمام ، وكذلك
الاغانى . وكان اذا حاول احدهم أن « يتظرف » أو
يسخر ينطلق مقلدا الموسيقى او الاغنية المذاعة بصوته
المزعج مما كان يدعوني الى الثورة عليه ويدعو الاخرين
الصامتين الى محاولة اسكاته مجاملة لى . وانا اسائل
نفسى فى هذه اللحظة ، لحظة كتابة هذه السطور قائلا :
اذا حدثت التغيرات البيولوجية عند استماعى لهذا
البرنامج فى كيانى ؟ وانا لا اعرف الاجابة الشافية عن
هذا السؤال .. ولكن لعلني ان لا أكون مخطئا خطأ
جسيما اذا بدا لى أن الجهاز العصبى فى جسمى يفعل
مايفعله الجهاز الهضمى . فالجهاز الهضمى اذا اكلت
كسرة من الخبز ، مثلا ، يضعها ثم يبلعها ثم يهضمها
ثم يتمثلها ، ويصبح الجزء الصالح منها بعد ذلك جزءا
من جسمى . فهل يفعل الجهاز العصبى ، ياترى ، ذلك
فى كيانى بطريقة او باخرى ازاء المواقف الاجتماعية التى
اواجهها والخبرات الثقافية الاجتماعية التى اعيشها ،
وازاء القيم التي اعتنقها فضلا عن الاتجاهات التى تكون
من ورائها عادة هذه القمم ؟ اى هل الجهاز العصبى
يستوعب هذه الامور ثم يهضمها ثم يتمثلها ؟ ولكن
يلاحظ أن كسرة الخبز تؤثر مافى ذلك من شك فى
جسمى بيولوجيا . ومن التجارب السابقة فعلت ذلك
فى جسمى : الموسيقى العربية التى سمعتها وكذلك الاغانى

العربية وحتى الالفاظ العربيـة . وكسرة الخبز كما يعلم القارىء شيء مادي والاستماع للموسيقى العربية أو للأغاني العربية او للالفاظ العربية يعنى الاستماع لقيم وافكار . فهل يعنى هذا ان المادة « كسرة الخبز مثلا » وان الفكرة « قطعة الموسيقى او الاغاني أو الالفاظ العربية المشار اليها مثلا » تتلاقيان ؟ أو ان الجهاز العصبي والجهاز الهضمي يعملان متعاونين ؟ واذا كانت المادة فى شخص كسرة الخبز مثلا والفكرة فى شخص قطعة الموسيقى او الاغانى او الالفاظ العربيـة مثلا تتلاقيان ، فهل هما تتلاقيان فى شخصيتي وفى شخصية كل من الاشخاص الذين يمرون بنفس التجارب؟ هل هما ، فى ضوء كل هذه الامور ، شيء واحد ؟ اى هل المادة تغنى عن الفكرة؟ او بالاحرى هل الفكرة تغنى عن المادة فى بعض الاحيان ، عشت فى هذا المحيط من الاسئلة والاجابات وتذكرت الحديث الشريف :

« ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز ، والماء رواه الترمذى وقال حديث صحيح . « الجلف : الخبز ليس معه ادام » .

ومن المواقف التى لايمكن الا ان أتذكرها موقف احد الزملاء فى محلة نورفلك . كان اذا اتى عيد«الكريسماس» يصر على دعوتي . فالكل يذهبون الى ذويهم فكان يأبى أن يتركني وحدى . وقد مرت على وانا أعيش فى مدينة بوستن ثلاثة اعياد ، ذهبت فى اثنائها كلها معه فى منزل اسرة ابيه حيث نجد امه واخوته الذكـور الاربعة وزوجاتهم وبناتهم وبنيهم . وكان الجميع وبخاصة الاب والام يعاملانني وكأنني ابن لهما . وكنت أعيش هذه الفترة مع الجميع وانا احاول بصعوبة نفسية شديدة أن اكون

ابنا للاسرة الكبيرة . كنت أفعل مايفعلون . فاذا أكلوا أكلت واذا شربوا شربت وعندما كانوا يحوطون حول « شجرة الكريسماس » كنت تجدنى معهم . وكانت توزع الهدايا وكان لي نصيب منها . كانت اسرة بسيطة وكان اعضاؤها على اختلاف مشاربهم مرحين . تجدهم يغنون بأصواتهم على نغمات آلة الكمنجة التى كان يتقن اللعب عليها اكثر من واحد منهم . ويمر الوقت سريعا وسط الضجيج والضحكات والنكات وانغام الاغانى والموسيقى ، ثم يستعد الجميع الى العودة بعد ان يبيتون لليلتهم ، وكانت الام تهتم بمكان النوم الذى اختير لى لكى ابيت فيه . كنت اشعر بصدق حنانها واهتمامها بى . وكان لسانى لا يفتر عن شكرها الشكر الجزيل على الكرم الذى اولانى به جميع اعضاء الاسرة وهى على راسهم . وانا اذكر اننى عندما كنت استيقظ فى صباح يوم ٢٥ من شهر ديسمبر يكون طعام الافطار معدا لى ويكون ابناء الاسرة وزوجاتهم وبناتهم وبنيهم ماعدا زميلى فى محلة نورفلك قد عادوا من حيث اتوا بعد أن ادى كل واحد منهم واجبه نحو الاب الشيخ والام العجوز . وابقى مع زميلى فترة من الوقت مع الاب الذى كان يحادثنى فى شتى الامور فى مايعرفه منها حق المعرفة ومالا يعرفه منها حق المعرفة ، وكنت احاول ان اسعده بالانصات اليه ، وكنت قد قررت عدم مناقشة مايقول ولكنى مع الاسف الشديد لم اكن التزم بقرارى فى بعض الاحيان . ومهما يكن من الامر فان قضاء الوقت مع هذه الاسرة البسيطة المرحة المتماسكة فى ذلك الوقت من العام كان يعتبر تغييرا لطيفا لجميع الاطراف . وقبل الظهيرة او بعدها نعود بدورنا زميلى وانا الى محلة نورفلك اى من حيث اتينا . وتكرر الذهاب الى هذه الاسرة

ثلاث مرات . وكانت المرة الاخيرة عندى اسعد المرات . لانني كنت قد اديت بعدها مهمتي العلمية وحان الحين لكي اعود الى مصرنا الخالدة .

واستقبلني الفصل الدراسي الاول من العام الاكاديمي ١٩٥٤ - ١٩٥٥ كخطوة في سبيلي للحصول على الدرجة المرموقة « اقصد درجة الدكتوراه » . واستقبلته بترحاب شديدة . وقدعلمت انه على ان امتحن فيموضوعات دراسية يكون عدد ساعات القائها فيالاسبوع من خلال فترة الدراسة ٤٨ ساعة للحصول علي هذه الدرجة . وبالاضافة الي ذلك على ان اقدم بحثا في موضوع مبتكر يضيف شيئا جديدا الى الدراسات التي يهتم بها علم الاجرام ميدان تخصصي الذي اختير لي . ويعني ذلك انني لا استطيع ان اقوم بهذا العبء في عام اكاديمي واحد . ومن ثم طلبت مساعدة البروفسور موريس في اختيار موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي الاول كما فعلت قبل ذلك . وقد رجوت البروفسور موريس ان يأخذ في اعتباره عند الاختيار أن اواصل الدراسة في خلال شهور الصيف اذا كان ذلك متاحا . ومن حسن حظي ان ذلك كان متاحا . وقد تم اختيار موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي الاول من العام الاكاديمي ١٩٥٤-١٩٥٥ على أساس ١٥ ساعة في الاسبوع . على ان يكون اختيار موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي الثاني من هذا العام على نفس الاساس . وفي خلال شهور الصيف ادرس موضوعات اخرى على اساس ست ساعات في الاسبوع . ويعني ذلك انني اذا نجحت في هذه الموضوعات أكون قد درست حتى بداية الفصل

الدراسي الاول من العام الثاني ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها فى الاسبوع فى فترة الدراسة المشار اليها ٣٦ ساعة . وتبقى بعد ذلك موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها فى الاسبوع ١٢ ساعة على ان احضر محاضراتها وانجح فى امتحاناتها . ومن ثم يتسع لي الوقت بعد ذلك للشروع فى القيام باجراء البحث المطلوب . وبعد النجاح فى كل الدراسات فى خلال عامي الدراسة الاكاديمية ٥٤ ــ ١٩٥٥ و ٥٥ــ١٩٥٦ وبعد مناقشة البحث الذى سوف تضمه رسالة تقدم الى الكلية تحت اشراف البروفسور البرت موريس ، وبعد ان تتم هذه المناقشة بنجاح فانني أكون مستحقا لدرجة الدكتوراه فى علم الاجتماع تخصص علم الاجرام . وكانت موضوعات الفصل الدراسى الاول للعام الاكاديمى ٥٤ــ١٩٥٥ تشمل « الحركات الاجتماعية المعاصرة » الذى كان مسئولا عن تدريسه « الدكتور ج . بارنز » ، و « علم الاجتماع الحربى » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ا . ل كايوتس » ، و « علم النفس والشواذ » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ج . ف . سوندرز » ، و « علم النفس والوراثة » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور سوندرز ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « د . ماكول » . اما موضوعات الفصل الدراسى الثاني، فقد كانت تشمل « النظريات السوسيولوجية » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ت . س . ماياكاوا »، و « حلقة بحث فى البحث الاجتماعى » وكان المشرف عليها « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « حلقة بحث فى افريقيا المعاصرة » وكان المشرف عليهما « البروفسور و . براون » و « حلقة بحث فى مناهج

البحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها «البروفسور البرت موريس » ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور ماكول . وفى خلال شهور الصيف من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ تفرغت مع تسعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة « مادة العلاج الجماعى » تحت اشراف الدكتور « روبرت و . هايد » وكيل المستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن فى ذلك الحين . وكان مكان الدراسة فى هذا المستشفى ذاته . وكنا نذهب الى المستشفى من الساعة التاسعة صباحا ولا نبرحه الا فى الساعة السادسة مساء . ومن ثم احتسبت دراسة هذا الموضوع لكل منا على اساس ست ساعات فى الاسبوع . اى اننى وقد نجحت فى كل موضوعات الدراسة فى الفصلين الدراسيين للعام الاكاديمى ٥٤-١٩٥٥ وكذلك تم نجاحى بتفوق فى مادة العلاج الجماعى ، اصبح عدد ساعات الدراسة فى الاسبوع حتى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ ، التى حصلت عليها ، ٣٦ ساعة . وبقى لى من الساعات ١٢ ساعة ادرس فى خلالها موضوعات دراسية بنفس عدد هذه الساعات فى الاسبوع . وبدات هذه المهمة فى خلال الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى الثانى للدراسة للحصول على درجة الدكتوراه اى فى خلال الفصل الدراسى من عام ١٩٥٥-١٩٥٦ . وكانت موضوعات الدراسة المطلوبة « النظريات السوسيولوجية » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور ماياكاواه ، و « حلقة بحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها البروفسور براون ، و « حلقة بحث فى مناهج البحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها البروفسور البرت

موريس . وقد اجتزت الامتحانات كلها وكنت متفوقا وحصلت على الدرجات النهائية فى اثنى عشر موضوعا من خمسة عشر موضوعا . وبدات فى اختيار احد الموضوعات لاقوم باجراء البحث المطلوب للرسالة التى ساقدمها الى الكلية . وكان هذا الموضوع هو : « تطبيق مفهوم منطقة الجناح فى مجتمع غير غربى » وكان عبارة عن دراسة لحى « روكسبرى » فى مدينة بوسطن كمنطقة جناح بالمقارنة بحى « بولاق » فى مدينة القاهرة كمنطقة جناح ايضا . وكان الاشراف على هذا البحث البروفسور البرت موريس بوصفه استاذا لعلم الاجرام بالجامعة ويشترك معه فى الاشراف الاستاذ « ايدون بورز » استاذ « علم العقاب » المعروف والذى اشرف على اجراء البحث المشهور عن « تجربة فى الوقاية من الجناح » . وكنت قد بدات فى اثناء الدراسة الاكاديمية فى اجراء البحث المشار اليه . وكان قد وعدنى البروفسور موريس بانه بمجرد اتمام الرسالة على الوجه المرضى سيقوم اساتذة القسم ، كما هى العادة ، بمناقشتى فيه مناقشة غير علنية توا . ويعنى ذلك اننى سأناقش الرسالة ومن ثم احصل على درجة الدكتوراه قبل مرور عامين منذ حصولى على درجة الماجستير .

وكنت أعمل ليل نهار حتى يتحقق هذا الوعد واعود الى احضان اسرتى الصغيرة أحبائى واعزائى . وشاء حسن حظى ان دعانى البروفسور موريس الى مكتبه ذات صباح بمجرد اتمام الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى ٥٥-١٩٥٦ ، اى بمجرد اتمام الساعات المقررة فضلا عن اتمام الرسالة التى كانت بين يديه منذ اكثر من اسبوعين . وذهبت فى الموعد الذى تحدد ووجدت بعض اساتذة القسم الكبار . ولمحت على وجه

البروفسور موريس علامات عدم الارتياح . وظل فى مكانه ولم يتكلم كلمة واحدة . وترك للاساتذة الحاضرين الحديث الذى وجهوه الى وكان ملخصه انه لا يمكن للجامعة أن تمنحنى درجة الدكتوراه الا بعد مرور سنتين على الاقل منذ حصولى على درجة الماجستير . وهذا الشرط بالنسبة لى لم يتحقق ومن ثم فعلى ان اصبر حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ حتى يمكن تحقيق هذا الهدف . وقال كل استاذ كلمة فى الموضوع نفس الموضوع واكد أحدهم انه حصل على درجة الدكتوراه بعد مرور اكثر من خمس سنوات من حصوله على درجة الماجستير وقال آخر وهو يوجه الكلام الى انه من حقى ان استريح من عناء الدرس والدراسة وان الايام تجرى وتمر . وقال ثالث مثلا شعبيا باللغة الانجليزية معنــاه « اننى لا يصح ان اقضم اللقمة الكبيرة التى لا اســتطيع ان امضغها اذ قال سيادته Don't bite more than you can chew ». تكلموا جميعا ولم يقل البروفسور موريس شيئا . كان قد وعدنى ولكنه ازاء هذه « الهبة » من اساتذة القسم حاول ان يتركهم لكى يقنعونى بالصبر شهورا خمسة . وما كان لى الا ان اقتنع والا ان اصبر هذه الشهور الخمسة . ولكن كان موقف البروفسور موريس الصامت قدحز فى نفسى . ولم اكن له شيئا بغيضا ابدا ، بل على العكس التمست لهالاعذار كل الاعذار . ولم انسى له مواقفه الاخــرى الكريمة معى . وسأذكرها دائما بالشكر والعرفان بالجميل وهل يتطرق الى ذهنى نسيان موقفه معى فى صــيف عام ١٩٥٥ عندما لم استلم مبلغ الـ ١٥٠ دولارا الشــهرى من « ادارة التربية الدولية » التى كــانت تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات المتحدة . يومهــا

احسست بالدنيا تدور بى وأنا ادور بها ، وكادت الأرض من تحتى ان تميد . وكان دور البروفسور موريس بلسما شافيا . فعندما علم بما حدث طلبنى وطلب منى ان اعمل معه نظير النقود ، وربما اكثر ، التى كانت ادارة التربية الدولية تبعثها الى شهريا . قال جزاه الله خيرا اننى اما ان اختار لاعمل معه فى اوقات الفراغ فى مكتبه او ان اختار مساعدته فى المحاضرات التى كان يلقيها او ان اختار ان اعمل فى بيتى مايطلبه من انجازات . وشكرته من صميم فؤادى بكل الحب والصدق والاخلاص . وعند عودتى الى محلة نورفولك بيتى وجدت خطابا مرسلا الى من ادارة التربية الدولية ومرفق به الشيك كالمعتاد . وقد تضمن الخطاب ان المنحة الدراسية قد مدت عاما ثالثا . وكان المفاجأة سارة جدا لى . وسرعان ماتحدثت الى البروفسور موريس عن عودة المياه الى مجاريها . وبعد ان اطمأن قال لى ، وكان صادقا مافى ذلك من شك ، أن العرض الذى عرضه على مازال قائما ، ولكنى ابلغته بأن هذا العرض فى ضوء ماجد من ظروف اولى به طالب فى حاجة اليه . لايمكن لشخص مثلى الا ان يذكر هذا الموقف الكريم الذى وقفه معى البروفسور موريس . ولهذا فاننى لم اكن له فى الماضى الى الان وبعد الان الا الحب والاحترام . وقد التمست له الاعذار عندما اضطرته الظروف الى ان يواجهنى ببعض اساتذة القسم الذى يرأسه بشأن تاجيل حصولى على درجة الدكتوراه الى شهر مايو عام ١٩٥٦ وقلت لنفسى فى ذلك الحين ، وكثيرا ما أقول لنفسى ، وتقول نفسى لى ، ان اعقل الناس اعذرهم للناس .

وفى ضوء مرور فترة ثلاث سنوات اكاديمية فى جامعة بوستن تمكنت من استخلاص بعض الحقائق من الاساتذة

الذين تشرفت بالتلمذة على ايديهم . كانوا على وجه العموم اساتذة مجتهدين وان كان يبزهم بالضرورة البروفسور موريس والاستاذ ايدون بورز والدكتور هايد والدكتور ماياكادوا والبروفسور زالنجر والبروفسور براون والدكتور ماكول . هؤلاء كانوا اساتذة يعملون فيهيئة التدريس بالجامعة ويستثنى منهم الدكتور هايد الذي كان يعمل وكيلا للمستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن في ذلك الحين . وكان من الاساتذة الذين كانوا يعملون خارج الجامعة ، وكانوا في الغالب من الاساتذة الزائرين الذين لم يكن لهم موضوع معين يقومون بتدريسه وان كانوا يجيئون لالقاء بعض المحاضرات في بعض الموضوعات المقررة او القريبة منها ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، «البروفسور كلايد كلاكهوهن » و « البروفسور تالكوت بارسونز » . وكان وجود هذين الاستاذين في حرم جامعة بوستن يعتبر حدثا اجتماعيا لامعا لما كانا يتمتعان من شهرة علمية . وانا اذكر ان الاول قد شرح لنا كيف يقوم الانثروبولوجي بعمله في الميدان وبخاصة اذا كان يعمل مع فريق ، وكان العمل مع فريق في رأى كلاكهوهن امرا ضروريا . وضرب المثال بعد المثال من تجاربه العلمية التي إشترك فيها مع اخصائي نفسي واخصائي اجتماعي عندما كانوا يدرسون اسر احدى قبائل الهنود الاميريكيين . اما تالكوت بارسونز فانني اذكر الآن وانا اكتب هذه السطور اصراره في احدى محاضراته على ان « القانون » . علم . واخذ يدلل على ذلك بالامثلة الواقعية التي تمتلىء بها خزائن خبراته وتجاربه . ومنها ان حقائق القانون كلها هي من الواقع الاجتماعي وان نصوص القانون تعكس او يجب ان تعكس هذا الواقع الاجتماعي . وحتى اذا

وجدت الهوة بين النصوص والواقع ، وكثيرا مايحدث ذلك ، فان على المتخصص فى القانون ، كعلم ، أن يبادر الى تضييق هذه الهوة وذلك عن طريق البحث العلمى الاجتماعى الواقعى . اما أساتذة الجامعة فقد وجدت ان من بينهم من يخرج عن الموضوع دون مادداع او من كان يستغل استاذيته فيحاول ان يرهب الطالبات والطلبة الذين يستمعون لمحاضرته او يحــاول ان يتملق بعض هؤلاء الطالبات والطلبة . واذا ذكرت بعض هؤلاء فانني اذكر الاستثناء لا القاعدة . كان الدكتور « بارنز » الذى كان ، كما سبق ان أوضحت ، مسئولا عن تدريس موضوع « الحركات الاجتماعية المعاصرة » يرهبنا نحن الطالبات والطلبة وبخاصة فى المحاضرات الاولى . فقد كان علينا ان ندرس حركات مثل الفاشـية والماركسية والرأسمالية والصهيونية وغيرها . وكان عدد الطلبة لايعدو العشرين طالبا وقد وزع الحركات التى اشرف على تدريسها وكانت عشرا على ان يكون نصيب كل اثنين منا حـركة يقومان بدراستها ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان من نصيبى ومعى احدى الطالبات أن نقوم بدراسة الماركسية ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان الدكتور بارنز لا يكتفى بالعرض بل كان يطلب من باقى الحاضرين من الطالبات والطلبة أن يناقشوا ماتم عرضه ، ثم يترك لنفسه بعد أن تتم المناقشة التعليق على كل ماقيل . وانا اذكر لهذا الرجل موقفين لايتوقع أبدا أن يصدرا عن استاذ يحترم العلم ومن يقوم بتعليمهم . درست وزميلتى « الماركسـية » دراسة وافية ، وجاء الموعد لعرض الدراسة . وتركت لى زميلتى ان ابدأ الحديث ، وما ان بدأت الحديث

وبعد مرور ثلاث دقائق فقط وجدت الدكتــور بارنز يقاطعني قائلا في سخرية ان ماقلته أمر معروف للجميع وعندما حاولت الاحتجاج فمازال وقت العرض « وكان عشر دقائق » لم يستنفد ، صاح أمام الجميع قائلا انه هنا يسأل من المسئولين في الدولة عن كل طالبة وطالب ويبعث بتقرير عن مدى تصرفاتهم سواء كانت هـذه التصرفات في اثناء العرض او في المناقشة . وحاولت زميلتي ان تقول شيئا ولكنه قاطعها . وبدأ الحاضرون يلقون السؤال تلو السؤال ولكن بارنز كان المجيب ولم يترك لي ولا لزميلتي الاجابة . وانتهت فترة المحاضرة وخرجت من حجرة الدراسة وأنا لا ادري موضـــعا لقدمي . وعندما ذهبت الى « الكافيتريا » لاتناول فنجانا من القهوة وجدت بعض الزميلات والزملاء يلتفون حولي، وقد بدأوا يستنكرون مافعله بارنز ولكنني لم اعلـق بكلمة . فقد وعيت الدرس الذى كان قد ذكره لنا الزميل محمد محمد شلبي عندما كان يدرس في كليـة الآداب بجامعة كولومبيا بنيويورك : قسم الاجتماع للحصـول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع بعد حصوله على درجة الماجستير في شهر مايو عام ١٩٤٩ ، وطلب منـه استاذه ان يكون موضوع رسالته « اتجاهات المصريين المسلمين نحو اليهود » فأبى الزميل ذلك . فما كان من الاستاذ الا أن اضطره الى أن ينتقل الى كلية التربيـــة ليحصل على درجة الدكتوراه ان اراد . وقد فعل الزميل ذلك ، اى انه التحق فعلا بكلية التربية وحصل على درجة الدكتوراه في التربية . وقد اضـطره الاســتاذ الى هذا التغيير عندما التف حوله بعض الزميــلات والزملاء منددين بتعسف الاستاذ وضغطه المعنوى على الزميل دون مامبرر . فما كان من الزميل شلبي الا ان

اخرج مافى نفسه ومافى مكنونات مشاعره نحو الاستاذ ، فنقل زميلاته وزملاؤه كل ماقاله الى الاستاذ . ومن ثم كان اصرار الاستاذ على ان ينقل الزميل شلبى ، وكان وعيده المرذول انه لن يحصل علي درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من الجامعة مادام ، اى هذا الاستاذ ، حيا يرزق . وعيت الدرس فصمت ولم اتحدث الا فى امور لاتمت بصلة لما حدث . واذكر لنفس الرجل موقفا عندما جاء موعد عرض الحركة الصهيونية . يومها أخذت فى حقيبة كتبى بعض الوثائق عما حدث لفلسطين من شهر مايو عام ١٩٤٨ وقبل ذلك وبعد ذلك استعدادا لما قد يحدث من مفاجآت ، ويومها قلت لنفسي ان استمع ولا اناقش ، ويومها اصبح عدد من كان فى الفصل اكثر من اربعين شخصا . دعى ضيوف لا نعرف عنهم شيئا . كان منهم الزنوج وكان منهم البيض . كان منهم الشبان والشابات وكان منهم كبار السن . وتحدث الطالبان عن الصهيونية ، وبدأت المناقشة ، وناقش معظم الزميلات والزملاء ، ولكنى لم اناقش . وفوجئت بالرجل مشيرا الى وطالبا منى ان اسهم فى المناقشة . واذا كان للطالبين المسئولين عن عرض الموضوع عشر دقائق ليعرضا فيها كلاهما او احدهما ماعن لهما ان يعرضا ، فان من حق المناقش من الوقت دقيقتين . فبدأت اتحدث عن آثار الصهيونية فيما يتعلق بفلسطين وبمصير المليون لاجىء من الشيوخ والاطفال والنساء والرجال ، واكدت حديثى بما معى من وثائق ، وبدأت اشرح الآثار الاخرى وخاصة ماتعلق منها بالسلام والحرب ولكن الرجل قاطعنى لكي اصمت ولم يكن قد مر على حديثي سوى نصف دقيقة بالتمام والكمال . كنت اتوقع ذلك من بوزنز فقد سبق أن أحرجنى دون مامبرر ، وحاول

ان يرهبني وان يرهب الاخرين عندما ذكر من قال عنهم المسئولين في الدولة . وقد ذكرني ماحدث بمـــوقف واجهته عندما وصلت الى مدينة بوستن وقابلت نزيلات ونزلاء محلة نورفلك . جاءني أحدهم في حجرتي ولم يكن قد مر من الوقت على وصولي الى هذه المدينة اكثر من شهر ، وتحدث معي في اشياء كثيرة . وكان ضمن ماتحدث فيه « اسرائيل » وقال ضمن ماقال ، وبدا الاصرار على ماقال : « اسرائيل وجدت لتبقى » ! ويومها قلت لهذا الشخص ان لاينسى « الحروب الصليبية » وان يذكر دائما « صلاح الدين » فلن يعدم العـرب ان يجدوا في المستقبل القريب اكثر من صلاح الدين ، كنت متحمسا ومتفائلا ، ولكنه كان الامل ، في ضوء وقائع التاريخ ، هو الذي جعلني متحمسا ومتفائلا ولا ازال .
وفي يوم من الايام دعاني البروفسور موريس الى تناول الشاي مع آخرين في أحد مباني الجامعة ، اي بعيدا عن مباني كلية الاداب التي يعمل فيها وأدرس فيها . وفوجئت بالآخرين فقد كانوا رجالا ونساء لم اعرف منهم أحدا . وتركني البروفسور موريس أجلس في المقعد الذي اختاره . ولا أدري اذا كان قد تركني عن عمد أو ليترك لي الحرية في ان افعل ما اشاء . وترك من كان يجلس بجواره مقعده لآخر . ووجه الشخص الاخر الذي جلس سؤالا لي على مسمع من الحاضرين ومنهم البروفسور موريس . وكان وهو يوجه سؤاله يخرج من محفظة نقوده ورقة صغيرة مقطوعة من جريدة يومية . وقال لي الرجل اقرأ مافي هذه الورقة قل لنا رأيك في مضمونها . وقد كتب في هذه الورقة « ان زوجا مسلما ضرب زوجته المسلمة ، فلما اشتكت الزوجـة زوجها للمحكمة في الاردن ايدت المحكمة ما فعله الزوج » .

فقلت له أن للزوج تحت راية الديانة المسيحية ان يفعل ذلك ، فله أن يؤدب زوجته اذا كانت ناشزا ولم تكن مطيعة له . والكتاب المقدس قد جعل الرجل راسا للمرأة ومن حقه أن يؤدبها اذا لم ترع قدسية الحياة الزوجية ، او اذا أساءت التصرف بما يسيء الي سمعة الزوج وسمعتها . بيد أن التأديب ليس معناه ان يقسو الرجل علي زوجته أو يغدر بها او يضربها ضربا شديدا يحدث عاهة ، بل ينبغى أن يكون بهدف الاصلاح والتقويم لا بهدف الانتقام والايذاء والاضرار وكل ذلك ما يدعو اليه الاسلام . قلت كل ذلك على مسمع من الحاضرات والحاضرين . ولم أكن اظن ان من بينهم يهودا او صهاينة فالبروفسور موريس مسيحى الديانة ، وكنت اظن ان اعضاء الجمع الموجودين مسيحيون ايضا . واتضح لى ان الشخص الذى أبرز الورقة التى تتضمن حكم المحكمة الشرعية فى الاردن والتي قطعها خصيصا من جريدة يومية ووضعها فى محفظة نقوده كان يهوديا بل كان صهيونيا . وكان ردى عليه غير متوقع . لذلك جاءت مواضيع أخرى بدأ يتحدث الحاضرون فيها ونحن نتعاطى الشاى . ولكن الرجل ظل يلازمنى وتحدث الى على انفراد عن موضوع « السد العالى » ويبدو انه كان فى الدوائر السياسية الاميركية موضوع الساعة . وقد تحدث الرجل عن هذا الموضوع فى أوائل عام ١٩٥٦ ، ولم اكن أدرى عنه شيئا . وقال لى ضمن ماقال ان هذا السد لن يقام ابدا . واننى اذكر أننى رددت عليه ، وكنت عنيدا فى ردى ماقى ذلك من شك ، ومن أدراك أنه لن يقام ؟ ان الشعب المصرى قادر على المعجزات . ولن يكون السد العالى آخر معجزة يقوم هذا الشعب بانجازها . وانا اليوم ، وقت كتابة هذه السطور ؛

اعجب مما حدث بيني وبين هذا الرجل وبخاصة فيما يتعلق بموضوع السد العالي . لعله كان اعلم مني ببواطن الامور ولم اكن ادرى . انني لم اعرف اسمه ولم اعرف عمله في ذلك الحين وحتى الآن . وعلى غرار الدكتور بارنز كان الدكتور « كابوتس » ، بدا هذا الاستاذ حياته قسيسا . وهو من أصل مجرى . وكانت لى معه ومع زوجته المجرية الاصل ايضا علاقات ، فقد دعياني الى منزلهما مرارا وبخاصة في عطلة نهاية الاسبوع . وكان الدكتور كابوتس وهو يحاضر يرفع صوته وكأنه يلقى موعظة . وكان يبدأ حديثه في المحاضرة منافقا بقوله مثلا « ان ثقافتنا اليهودية المسيحية » « وكان يقصد ثقافة المجتمع الاميركى » يقولها وهو ينافق الطالبات والطلبة اليهود الذين كانوا يدرسون معنا . وفى محاضراته كان يدعو بعض كبار رجال الاعمال ليلقوا علينا حديثا فى ضوء خبراتهم العملية . وقد دعا أحدهم فى احدى المحاضرات . وبدأ رجل الاعمال الضيف يتحدث عن مصر وعن الفساد الذى يستشرى فيها ، فقاطعه كابوتس قائلا وهو يشير الى « ان هذا الشاب المهذب مصرى » . ولم يواصل الضيف حديثه عن مصر وغير مجرى حديثه. وكانت العادة انه بعد ان ينتهى المحدث الضيف من حديثه يسأله الحاضرون بعض الاسئلة وكان يجيب عن كل سؤال . اما ضيفنا رجل الاعمال فعندما سئل عن الاسباب التى جعلت من مصر موطنا للفساد فانه تنحى عن الاجابة واشار الى لكى اجيب انا . ولم اجب عن السؤال نفسه ولكنى ذكرت ما أعلمه عن مجتمع الولايات المتحدة من فساد وافساد ، ثم قلت أن الاستعمار الذى كان ولا يزال كابوسا على قلب مصر كان فى معظم الاحيان بل فى كل الاحيان أصل الفساد فى مصر ومصدر

الافساد . ولم يعقب على اجابتي احد . فما قلت الا
حقائق اول من يعلمها رجل الاعمال الضيف . ومع ذلك
فقد كانت زياراتي الى منزل الدكتور كايوتس وزوجته
تغييرا حقيقيا لي . كانا يأتيان الى محلة نورفلك في
سيارتهما واذهب معهما الى المنزل ويعودان بي الى
نورفلك بعد ان اكون قد قضيت نهار يوم السبت او
يوم الاحد معهما . كانا وحيدين فأولادهما قد تزوجوا
وتفرقوا في انحاء الولايات المتحدة . وكانا يعيشان في
جناح من قصر منيف يملكه زوج ابنتهما الوسطى لكي
يرعيا أطفالهما الصغار ويعيشان في كنف أسرة ابنتهما
التي يملك زوجها الغني هذا القصر المنيف ، وكنت اعيش
وقتي مع الاطفال ، فقد كانوا يذكرونني بأعز من عندي
ومن اعتز بهم : اولادي عندما كانوا لايزالون اطفالا :
احمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . وكان الدكتور
كايوتس وزوجته كريمين معي . وكان كرجل دين يود لو
انني اعتنقت الديانة المسيحية . قالها لي ذات مرة مبررا
انه « مسيحي ميثودي » وان ابنتــه وزوجها مــن
« الكويكرز » وانني اذكر أنني قلت له الا تعلم انني كمسلم
اومن بالسيد المسيح وأمه السيدة مريم العذراء . ان
الاسلام يقر كل الاديان السماوية لانه دين سماوي .
ولا يمكن الا ان اذكر ولن انسى ماقاله لي الدكتــور
كايوتس امام زوجته من ان محادثة تليفونية جاءته من
جهة عليا وكلف بمهمة سرية يؤديها في المجر ، وقال
ماقاله مفاخرا . فهو قد اختير من بين آلاف او اكثر لست
ادري ليقوم بأداء هذه المهمة وكان ذلك في شتاء عــام
١٩٥٥ ، اي قبل ان تحدث حوادث المجر في أثناء الاعتداء
الثلاثي على مصرنا الخالدة في شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ .
واذا كان القارىء يرى انني في روايتي عن الدكتــور

كابوتس الشكاك في تصرفاته وبخاصة عندما ادى ما قال عنها مهمة سرية كلف بها من جهة عليا . فربما كان الحق معي . فالتوقيت اقصد توقيت المهمة كان معقـولا ، والرجل مجري الاصل امريكي الجنسية وكان قد جاء الى الولايات المتحدة مهاجراً وهو يافع . اي ان اللغـة الهنغارية التى كان مازال يتقنها فضلاً عن سمات وجهه وأساليب تصرفاته تنم كلها على انه مجرى . وهو اذا كان قد ادى المهمة التي وكلت اليه وهدفها ان يثـير الشعب المجري على حكامه ، فانما فعل ذلك كما يبدو لى الآن وقبل الان وحيا من الدين الذى يعتنقه ولا اقـول وحيا من وطنيته كشخص امريكي الجنسـية . ان عقيدته تقف متعارضة مع عقيدة قادة الشعب المجرى الشيوعيين ماق ذلك من شك . واود هنا ان أقول شيئـــا عن البروفسور موريس ودعوته الى حفل الشاى الذى ذكرته من قبل والذى حدث فيه ماحدث . انني اتذكـر الآن وانا اكتب السطور الحالية ان البروفسور موريس لم يقصد احراجي قبل ذلك ابدا . ومن ثم فانني أشك فى أنه جاء بى خصيصا الى ذلك الحفل لكي يحرجني . ان هذا الرجل على الرغم من علمه الغزير لا يعرف الكثير عن السياسة أو عن رجال السياسة . انه يعيش حياته الاكاديمية حتى الثمالة . وتراه اذ يتحدث عن رجـال « الكرملين » وهو يقصد حكام روسيا الســوفيتية يشتبههم برجال عصابات « مدينة شيكاجو » الاميركية . تفكير سياسى ساذج لا يصدر عن شخص يعرف السياسة ويحاول ان يحلل مواقفها وآثارها واهدافها . أنه بهذا التفكير كنت اراه ومازلت افعل بجارى رجل الشـارع الاميركى الذى يترك لحكومته عادة ان تفكر له . انني لا ادافع عن البروفسور موريس اذ دعانى الى حفـل

الشاي وحدث تحت سمعه وبصره ماحدث لي . وانا لا انزه نفسي عن ان اكون متحيزا له لانني ومازلت احب الرجل . وهذا يذكرني بموقف آخر واجهته عندما جرت الانتخابات المحلية ولم يذهب الى صناديق الانتخابات سوى ۲۰٪ من الذين من حقهم ان ينتخبوا ، وعندما ابديت دهشتي من ذلك قال احد الاساتذة لا اذكر اسمه الآن ، ولماذا الدهشة ؟ ان الشوارع تكنس وتنظف والتيار الكهربائي لا يتوقف والمرافق تسير على مايرام فلماذا يذهب الناخبون وتتعطل الاعمال ويقل الانتاج مادام كل شيء يسير وفقا للنظام المعتاد ؟ ولما قلت له ان رجلا يدعى «كنيدى » ولم يكن من عائلة كيندى المعروفة قد اخذ اكثر الاصوات وهو مسجون لحكم صدر ضده . فوجدت هذا الاستاذ الذى لا اذكر اسمه الان يبتسم وبدت ابتسامته لي في ذلك الحين ابتسامة بلهاء . واستاذي بروفسور براون كان مديرا « لمعهد الدراسات الافريقية » التابع لجامعة بوستن . وكان هذا المعهد الاول من نوعه في الولايات المتحدة . وعندما كنت اتلقى دروس عن موضوع « افريقيا المعاصرة» او عن موضوع « مشاكل افريقيا المعاصرة » كان البروفسور براون يرى ان افريقيا هي « ما تحت الصحراء الكبرى » ولا يعتبر دول شمال افريقيا جزءا من القارة . وكان اذا ذكر دول شمال افريقيا يذكر ، بطريقة تعسفية ، انها ليست دولا عربية ولكن «للبربر» فيها شان سياسي واجتماعي كبير . وكان هذا الاستاذ الذى جاب افريقيا شبرا شبرا اذا تحدث عن حركة « الماو ماو » في كينيا مثلا يشوب حديثه السخرية . وكان الدارسون في حلقة البحث التي يشرف عليها البروفسور براون كلهم من الرجال . كانوا يتعاطون معنا

متباينة . فقد كان منهم القسيس والصحفي وطـالب الدراسات العليا والمشتغل بالسياسة وبخاصة ما تعلق منها بافريقيا « السوداء » . وكان لايذهب صحفى غير دارس فى المعهد الى أي بلد افريقي الا اذا مر على المعهد ليتزود من ملفاته و « اضابيره » المعلومات عن هذا البلد . لم تكن هذه المعلومات جغرافية فقط أو اقتصادية او سياسية فحسب ، بل كانت معلومات عن قادة البلد وزعمائه كذلك . لان هذه المعلومات كانت تتضمن سجلا حافلا عن كل واحد منهم يشتمل على مستوى ثقـافته ومستواه الاقتصادي وحالته الصحية ونزواته فضلا عن مدى سلطانه على شعب البلد وميوله السياسية وماضيه منذ ان ولد حتى اللحظة الراهنة . والملاحظ أن هذه الملفات والاضابير كانت كلها ضـمن محفوظات وزارة الخارجية الاميركية وكانت تعتبر محتوياتها فى ظروف معينة سرية جدا . ولما تغيرت الظروف تيسر للمعهد أن يحصل عليها كخلفية ثقافية للبلاد الافريقية التى تكون موضوعات دراساته ، فهى بالنسبة لدارسـيه تعتبر مراجع ، وهى بالنسبة لغير الدارسين المهتمين ببـلاد افريقيا تيسر لهم الاطلاع على أمور قد يكونون هم فى حاجة اليها . ومع البروفسور براون كان لى جولات . وكنت أومن فى ذلك الوقـت بالزعيم الـكينى هى فقط « ماتحت الصحراء الكبرى » كما كان يدعى .
وكنت أومن فى ذلك الوقـت بالزعيم الـكينى
« جوموكينياتا » الذى عرفت عنه وانا فى لنـدن ، وتصفحت فى ذلك الحين رسالته التى قدمها للجامعة . كنت أكن له الاحترام والتقدير . وعندما وجدت براون يسخر من « حركة ماوماو » الكينية التى أشـعل شرارتها كينياتا وزملاؤه أعترضت على السـخرية ،

واكدت له امام الحاضرين ان الذى يستدعى ازء هذه الحركة هو الاعجاب لا السخرية . وعندما برز فى أثناء حلقة البحث موضوع تحكم الاقلية في الاغلبية وبخاصة في جنوب افريقيا ، لم اتمالك الا ان اقول اننا لا نجد هذا النوع من التحكم الا فى السجون والمعتقلات . وكان معنا قسيسان من الكاثوليك يعملان في بلدين من البلاد الافريقية . وقد حاول احدهما عندما ذكر موضوع « التفرقة العنصرية » أن يؤكد أن الناس كلهم سواسية فدم الجميع ذو لون واحد ، ومن ثم فان هذه التفرقة غير ذات موضوع . انه كلام ذكره هذا القسيس الكريم فى اثناء فترة من فترات حلقة البحث التى تضمنا والتى كان يشرف عليها براون . ولكن العبرة عندى ، وهذا ماحاولت ان اقوله ، ليس فى القول النظرى ولكن فى الممارسة . وكانت من القضايا التى اثارها براون فى اثناء المناقشة انه وهو فى مدينة « الخرطوم » وكان ينزل فى احد فنادقها الذى وصفه وصفا غير لائق قابل بعض المسحيين من الاقباط المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، وذكر انه علم منهم ان الحكومة المصرية لتعمد ان تظهر نسبة عدد مسيحيي مصر ، فى التعداد العام ، اقل مما هى عليه فى الحقيقة . اى ان هذه النسبة ليست فى ذلك الحين نحو ٧٪ كما كان يسجلها التعداد العام المصرى « الرسمى » . بل هى أعلى من ذلك . كان ذلك فى اوائل عام ١٩٥٥ ، وكنت اسمع هذه المعلومات لاول مرة ، ولم استطع أن اكذب ذلك ولا ان اصدقه ، وظهر تحيز بروفسور براون عندما احضر احد المتخصصين الفرنسيين الى الحلقة كمحاضر زائر . ولما اعترضت على بعض ماقاله هذا الضيف من ان الدين الاسلامى يبيح للرجال فى شمال افريقيا

« تونس والمغرب والجزائر مثلا » ان يتزوجوا اكثر من اربع زوجات بل ربما عشرات من الزوجات ، كان موقف براون مني موقفا لا يمكن الا ان اصفه بأنه غير موضوعي.
حدث كل ذلك في خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الاكاديمي ١٩٥٤-١٩٥٥ عندما كنت احد الدارسين في « حلقة بحث في افريقيا المعاصرة » . وقد فوجيء البروفسور براون عندما وجدني سجلت نفسي لكي احضر « حلقة بحث في مشاكل افريقيا المعاصرة » في خلال الفصل الدراسي الاول من العام الاكاديمي ١٩٥٥-١٩٥٦ وانا لم افعل ذلك الا لانني أفدت فعلا من الحلقة الاولى، ولانني وجدت هذا البروفسور على الرغم مما قلته عنه استاذا فحلا في تخصصه وانني اولى من غيري لاكون احد تلاميذه استقي من فيض علمه ما استطيع . كان براون عالما حقا ، ولكنه كبشر كان متحيزا للغرب ضد ماهو غير غربي .

وانني اعتقد انه من الصواب ان اتحدث قليلا عن تجربتي في المستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن لدراسة مادة « العلاج الجماعي » تحت اشراف « الدكتور روبرت و . هايد » وكيل هذا المستشفى . كنت كما ذكرت من قبل واحدا من عشرة من طلبة الدارسات العليا بجامعة بوستن الذين وقع الاختيار عليهم لدراسة مادة العلاج الجماعي في خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وكان الطلبة المختارون من الذكور ومنهم سبعة من الاميركيين البيض وواحد امريكي زنجي وواحد اندونيسي ، وكل هؤلاء كانوا قساوسة من غير المذهب الكاثوليكي او المذهب الارثوذكسي ، ويضاف اليهم كاتب هذه السطور . وقد تضمنت الدراسة اوجها عديدة

من النشاط . منها التعرف على جهاز المستشفى العلمي : اعضائه ووظائفه ، والاشتراك فى أوجه نشاطه فى حرية وبطريقة تلقائية . ومنها عقد اجتماعات نهارية ومسائية . وكانت الاجتماعات النهارية يعقدها الطلاب وحدهم . وكان يحضر الدكتور هايد الاجتماعات المسائية باستمرار . وقد جرى التقليد فى السنين السابقة على ان يقوم طلبة مادة العلاج الجماعى باختيار مشروع بحث معين وكتابة تقرير عنه . وعلى الرغم من ان هذا كان تقليدا فقد تركت للطلبة حرية الاخذ به أو عدم الاخذ به . وعلى هذا فقد كان من الجائز أن لايخرج هذا البحث الى حيز الوجود . فقد أفهم الطلبة فى صراحة تامة انهم ، كجماعة ، احرار فى القيام او عدم القيام بهذا المشروع . كما تركت لهم الحرية فى اختيار اى موضوع للبحث فى حالة قيامهم به . وأعتقد الطلبة منذ البداية انه فى حالة اخذ قرار بعدم القيام بهذا المشروع فلا يترتب على هذا القرار ابداء الاسباب التى فى ضوئها رفضوا القيام به . ولكن اعضاء جماعة الطلبة بعد مناقشات طويلة وعنيفة وصلوا الى قرار بخصوص موضوع البحث . وكان الموضوع الذى اجمعوا على اختياره هو « محاولة تفسير الشعور بالعداوة » . وبعد الوصول الى هذا تحمس الاعضاء وارتفعت روحهم المعنوية ، وعلى الرغم من ان الوقت كان محددا تحديدا تعسفيا ، بمعنى أنه للقيام ببحث الموضوع المشار اليه وكتابة التقرير النهائى عنه ، يجب الانتهاء من كل ذلك فى خلال الفترة المحددة لدراسة مادة العلاج الجماعى . وقد تقدم الاعضاء فعلا فى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ بتقرير مكتوب عن الموضوع المختار . واذا كنت ادعى بأن معظم المواد التى درستها فى الجامعة منذ

اول فصل دراسى من العام الاكاديمى ١٩٥٣-١٩٥٤ حتى الانتهاء من دراستى وحصولى على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع تخصص علم الاجرام قد سبق وعرفت الكثير عنها من الدراسات الاكاديمية وغيرها من الدراسات التى حصلتها فى خلال الفترة من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ وانا فى مدينة لندن . فاننى مافى ذلك من شكمدين للاستاذ هايد الى خبرته الواسعة التى كان لايضن على وعلى زملائى بها فضلا عن المنهج الذى اتبعه معنا فى الاجتماعات المسائية . لقد نجح هذا الرجل فى الوصول الى اعماق كل واحد من الطلبة ويكشفها للجميع . لم يفعل شيئا مثيرا ولكنه كان يتبع منهجا يسر لكل واحد منا أن يكشف عن نفسه ويعريها لكى يعرفها الاخرون لكى يقوموا بدورهم بالكشف عن نفوسهم وتعريتها فتعم الفائدة الجميع . ان هذا الرجل الذى يسر لى ان احاول معرفة نفسى عن طريق معرفتى عن نفوس الاخرين وأن يعرف الاخرون بدورهم عن نفسى ، يسر لى ايضا ان اتحلل من مشاكل نفسية كانت تعيش فى أعماقى منذ طفولتى وعندما كنت صبيا ويافعا ثم شابا ورجلا ، وبهذا أمكننى فى ضوء هذه الخبرة ان احاول التعرف على نفوس الاخرين الذين تضطرنى الحياة ان اتعامل معهم سواء اكانوا من الكبار أم من غيرهم . من الاناث أم من الذكور ، ولست بهذا احاول ان اقلل مما بذله اساتذتى الاخرون معى وبخاصة البروفسور البرت موريس . فقد افدت منهم ما فى ذلك من شك . وكان أهم ما افدته منهم فى الواقع ان اتأكد من صحة ماكنت اعرفه من قبل . فانا كطالب علم كنت ، ومازلت ، فى شوق الى التعرف على وجهات

النظر الاخرى المباينة لانني كنت على استعداد لتغيير رأيي اذا تبين لي خطؤه . وبقدر شوقي الى تحقيق هذا الامر فانني لم اغير كثيرا مما ثبت في ذهني من معلومات وخبرات استطعت في فترة الثمانية عشر شهرا التي قضيتها في لندن ، المشار اليها ، ان اتمثلها . ان التعليم في جامعة بوستن يختلف اختلافا كبيرا عن التعليم في جامعة انجليزية او حتى مصرية . فالجامعة الامريكية كجامعة بوستن مثلا تحرص على ان تثبت في طالبهـا منهجا اكاديميا وتترك له الخيار في استيعاب او تمثل مايختار من موضوعات . وعلى العكس من ذلك فقد كنت اجد ان الجامعة الانجليزية ترى ان يكون مضمون المادة التي تدرس محفوظا في دماغ الطالب ويجرى في تلافيف هذا الدماغ مجرى الدم في عروقه . وفي جامعة بوستن وكما علمت في غيرها من الجامعات الامريكية كان يعطى للطالب اسئلة الامتحان لكي يجيب عنها وهو في منزله ثم يحضرها الى الاستاذ في حدود فترة معينة . ان الجامعة الامريكية ترى أن العلم في الكتب ويستطيع الطالب الذي يكتسب موهبة اكاديمية معينة ان يفيد من الكتب انى وجدت . فالعبرة ليست في حفظ الدروس ولكن في كيفية استخراج المعلومات من مصادرها والافادة منها . وانني اذكر عندما امتحنت في اللغة الفرنسية استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه التي تقضي بأن يمتحن الطالب في لغتين اجنبيتين ، ورأت الجامعة ان اللغة الانجليزية هي اللغة الاصلية واللغة العربية ، لغة امي ، هي اللغة الاجنبية الثانية — أبيح لي ان احضر القواميس معي في الامتحان . وكذلك عندما امتحنت في احدى المواد امتحانا تحريريا وكان من واجبي ان اجيب عن اربعة اسئلة ، فلما تبينت

انني اجبت عن ثلاثة فقط اخبرت استاذ المادة بذلك فترك لي حجرته بعد انتهاء موعد الامتحان لكي اجيب من السؤال الرابع المطلوب وطلب مني ان اضع ورقة اجابتي في مكان معين ثم اغلق باب حجرته من ورائي بعد الانتهاء من الاجابة عن السؤال الرابع المطلوب .

وكانت التجارب التي خضتها وانا في المستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن عديدة . لقد توجتها خبرتي مع الدكتور هايد كما سبق أن أوضحت . والعمل الجماعي مع الزملاء التسعة وقد كانوا من القساوسة كان مثمرا حقا . كانت الثقافات بيننا متباينة والاديان مختلفة ومع ذلك فقد عشنا زملاء احباء معظم الفترة التي قضيناها سويا في المستشفى . لقد احسست في الجزء الاول من هذه الفترة بنفور بعض هؤلاء الزملاء فقد كنت الوحيد الذي على وشك الحصول على درجة الدكتوراه فضلا عن التباين الثقافي الديني الذي ذكرته ولون جلدي الاسمر . كان القسيسان الزنجي والاندونيسي يشتركان معي في لون الجلد . ولكن سرعان ما التأم الجمع وتأكدت صلاحية العمل كفريق بيننا وبخاصة ونحن نجري البحث الذي أجريناه ، كجماعة ، عن موضوع الشعور بالعداوة . ومن الصدف الحسنة ان هذا البحث قد انتهى الى « ان الخطوة الاولى في سبيل التعبير عن الشعور بالعداوة تعبيرا سليما هي الاعتراف بوجود هذا الشعور . ويوفق الانسان منا في تحقيق هذه الخطوة اذا ما استطاع التعرف على الاسلوب او الاساليب التي عبر بها عن الشعور بالعداوة؛ ومن الواضح أن الانسان قد أصبح في الكثير من الاحيان ماهرا جدا في اخفاء الشعور بالعداوة عن الاخرين فضلا عن

اخفائه عن نفسه . وفى بعض الاحيان نجد انه من الضرورى محاوله ادراك اساليبنا الظاهرة المعبرة عن الشعور بالعداوة قبل ان نتأكد من وجود هذا الشعور فينا . ومع هذا فالاعتراف بوجود الشعور بالعداوة ليس بالامر السهل . ولكنه الخطوة الاولى فى سبيل تحقيق التعبير السليم عن شعورنا بالعداوة . والخطوة الثانية فى هذه العملية هى ان نحاول معرفة العوامل او مصادر الشعور بالعداوة فى نطاق انفسنا اولا ثم فى خارج هذا النطاق . فغالبا ماتكون انفسنا مصدر الشعور بالعداوة ضد الآخرين وربما يكون ذلك عن طريق عملية «التحويل» التى قد يكون مبعثها علاقة سلبية سابقة . والخطوة الثالثة والاخيرة هى محاولة بناء علاقة طيبة مع الشخص او الاشخاص الذين نشعر بالعداوة ضدهم . وخير وسيلة لبناء هذه العلاقة هى ان يذهب الشخص الى من يشعر بالعداوة ضده ليحلا المشاكل سويا . فهذه الوسيلة تحقق ثلاثة امور كلها توصل الى بناء علاقات طيبة هى :

ـ انها فى ذاتها اسلوب من اساليب التعبير عن الشعور بالعداوة وقد لا تدعو الحاجة الى التعبير عن الشعور بالعداوة باسلوب آخر .

ـ عندما يتحدث شخصان فى موضوع شعورهما بالعداوة المتبادل فانه يحاول كل منهما ان يذكر الاسباب التى دعت الى اثارة الشعور بالعداوة فى نفسه . فاذا امكن وصولهما الى التفاهم على هذا المستوى اللفظى فيكون تفاهما حقيقيا اذا عبرت الالفاظ عن شعورهما بالعداوة تعبيرا حقيقيا كذلك . وقد تحدث اخطاء فى بعض الاحيان ولكن ما ايسر اصلاح هذه الاخطاء

باستخدام الالفاظ كأسلوب للتعبير . ومهما يكن من الامر فان هذا الاسلوب ، استخدام الالفاظ مجرد الالفاظ خير الف مرة من استخدام أسلوب المعاملة الصامتة .

ان اتصال الناس بعضهم ببعض عن طريق استخدام الالفاظ واحد من الانواع العديدة للاتصال ، ولكنه ايسر اسلوب لاتصال الناس وهو أصلح اسلوب لحل مشاكل الشعور بالعداوة بينهم .

ـ عندما يتحدث شخصان في موضوع شعورهم بالعداوة المتبادل فانهما في الواقع يتحدثان عن موضوع مشترك يهمهما وحدهما . والعلاقات الانسانية تبنى عادة اذا تحقق للناس وجود اشياء مشتركة تهمهم جميعا . والشعور بالعداوة هو شعور عميق ، فاذا ماطرح للمناقشة مع شخص آخر ، وليكن هذا الشخص هو الشخص الموجه ضده هذا الشعور فانه تتولد رابطة مشتركة بينهما تساعد على بناء علاقة طيبة بينهما » .

والملاحظ أن التعبير السليم عن الشعور بالعداوة المذكور وان كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته ومحاولة اثبات فاعليته عن طريق التجربة ، فهو يتفق اجمالا من غير تفصيل مع مضمون الآية القرآنية الكريمة :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم » « ٣٤ ك فصلت : ٤١ » .

وكانت علاقاتنا بالمرضى ، وكانوا من النساء والرجال تتراوح بين العلاقات العادية والعلاقات المتوترة . كان كل واحد منا يحمل « مفتاح » يفتح جميع حجرات المستشفى ، وكان من حق كل واحد منا أن يجوب

المستشفى ليرى بنفسه ويواجه التجارب وحده . كنا نلبس الملابس العادية ، وكان المرضى يلبسون ايضا الملابس العادية . ولم يكن يعرف المرضى أن العشرة من الطلاب طلاب . وقدكان يخطىء المريض ويظن ان احدنا مريض مثله . وكنا نشترك معهم فى مشاهدة برامج التليفزيون ؛ كما كنا نشترك ايضا فى اللعب معهم كرة « تنس الطاولة » . وقد نذهب مع بعضهم الى الشاطىء وكان لا يعرف احد من المصطافين انهم مرضى . وكانوا دائما تحت اعيننا واشرافنا نعد حركاتهم وسكناتهم ونسجلها لكى نقدم مايحدث بيننا وبينهم الى المسئولين . وكنت لعوامل كثيرة محط أنظار بعض المرضى . وقد ذكرت بعض هذه العوامل من قبل . وكنت اتحدث معهم ويتحدثون معى او كانوا عادة يبدءون الحديث معى . وقد نجحت فى اخراج احد المرضى من صمته الطويل فتحدث معى وكان هذا فى راى الدكتور هايد والمسئولين خطوة الى الامام نحو شفاء هذا المريض . كان هذا المريض لا يتحدث مع اطبائه ولا مع زملائه من المرضى ولا مع احد من اعضاء أسرته عندما يزورونه . ولكنه تحدث معى وتحدثت معه . وكان هذا توفيقا من الله جل وعلا . وانا اذكر الآن نزيلة محلة نورفلك « جاى » التى تركت المحله فى مايو عام ١٩٥٤ . وكنت اعلم انها حاولت الانتحار مرة ومرة ، كانت تجلس أمام حجرة الدكتور هايد وتوقعت انها على موعد معه ، ولكنها عندما رأتنى فى المستشفى جرت ورائى وطلبت منى ، وهى تظن اننى مريض مثلها ، ان وجودى فى الولايات المتحدة وحدى ضار نفسيا بى ، وانه من الخير لى ان اعود الى بلدى الحبيب . وكانت هناك نزيلة اخرى من نزيلات محلة نورفلك التى التحقت بالمحلة فى خلال العام الدراسى

الاكاديمي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ . وكنت وبعض النزلاء قد لاحظنا انها لا تسلك السلوك العادى الذى تسلكه زميلاتها النزيلات . وكانت قد ذكرت أنها من ولاية «فيرمونت» احدى ولايات « انجلترا الجديدة » وهى نفس الولاية التى نشىء فيها الدكتور هايد الذى كنت اراه يوميا فى مستشفى بوستن السيكوباتى . واننى اذكر اننى رايت هذه الآنسة عند الدكتور هايد عندما كنت ادرس على يديه « العلاج الجماعى » . ولكننى نجحت فى ان اختفى لكى لاتراني ..

ولما انتهيت من أعمالى الاكاديمية : الدراسات وكتابة الرسالة ونجحت فى امتحان اللغة الفرنسية ، واجهت الفراغ فترة لا تقل عن خمسة شهور بالتمام والكمال . لم يكن فراغا مطلقا ولا كان وقتا ضائعا فقد كنت فى نورفلك اعمل مع جماعية الفيبرز ، وكنت فى الاوقات الاخرى اقرأ مايعن لى من قراءات ، وكنت أسـير فى الشوارع اقرأ صفحاتها من ظواهر وانماط سلوك وعلاقات اجتماعية . ومنذ العام الثانى لى فى نورفلك عـرفنى الجيران وعرفت الكثير من أحوالهم وانماط حياتهم التى يعيشونها . وقد تغير بعض النزيلات والنزلاء فى محـلة نورفلك ، ذهب « دى » ذو الاصل الايطالى كمـا ذهب « جورج » ذو الاصل السورى ، وذهبت « سـالى » و « ملدريد » المواطنتان الاميريكيتان ، ذهبت الاولى الى استراليا لتعمل ممرضة والثانية الى المانيا الغربيـة لتتزوج من شاب المانى الجنسية كان أحد نزلاء محلة نورفلك قبل ان آتى اليها، وتمت بينهما العـلاقات الانسانية ذات المشاعر العاطفية وتوج كل ذلك بالزواج. وذهبت « جاي » الاميريكية وكانت تعالج فى مستشفى بوستن السيكوباتى ومعها « سونيا » التى كانت طالبة

فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن ليعيشا سويا
اى لتعيش جاى تحت سمع وبصر واشراف سونيا . وجا
الى المحلة اخرون منهم « لافاى وميزى » وكانتا من
« هوائى » أحدى ولايات الولايات المتحدة ، ومنهم
« دوروثى » التى كنا نختصر اسمها ونناديها « بدوتى »
وكانت زنجية من جنوب الولايات المتحدة » « ولاية
الباما » و « بارى فريمان » وهو مواطن امريكى من
البيض . وبقى معنا جون جراى الزنجى ، كما بقى
الشاب الكندى « اين » و « هيلين » و « مارى »
و « جريس » المواطنات الامريكيات ، والتحق بموظفى
المحلة اخصائى اجتماعى امريكى الجنسية ومن اصل
يابانى راسمه « شيبا » . وتكونت جماعة من الشابات
الزنجيات وكن من معارف أو صديقات الشبان الزنوج
الذين كنت اشرف عليهم . وعهد الى « جريس » وهى
طالبة فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن الاشراف
على جماعة الشابات الزنجيات . وبعد مرور فترة من
الوقت اى فى شهر اكتوبر او شهر نوفمبر عام ١٩٥٤،
التحقت كنزيلة آنسة تدعى « بابارة بيل » ، وكان
الجمع فى المحلة يناديها باسم « ب . ب » على غرار
الاسم الذى تعرف به النجمة السينمائية الفرنسية
« برجيت باردو » ! وبقى معنا مستر « ديفيز » مديرا
للمحلة ومعه مستر « دن يونج » وكيلا له . وكان
يساعدهما شاب متزوج يعيش مع زوجته يدعى «ديفيد»
لا كموظف فى المحلة ولكن كنزيل متزوج . وكان يدرس
لكى يتخصص فى علم النفس التحليلى . وكان وزوجته
يتوقعان ضيفا جديدا عليهما . وعندما حدث ذلك
اضيفت الى النزلاء طفلة جديدة . ولاحظت اننى المسلم
الوحيد بين النزلاء وان ديفيد وزوجته وابنته الطفلة فضلا

عن الآنستين اللتين كانتا ضمن نزلاء العام السابق من اليهود . أما باقي النزلاء وموظفي المحلة ، فنيين واداريين وبوابي المحلة ، فقد كانوا من الكاثوليك ماعدا باري فريمان فقد كان ينتمي الى جماعة « الكويكرز » . وكان العمل فى محلة نورفلك يسير وفقا لبرنامج محدد ، وكان الجميع يعملون ، كل فى موقع عمله ، باخلاص وتفان . وكنا او بعضنا على مائدة العشاء فناكل سويا ما تطهره « مدام ستيلا سليفيا » طباخة المحلة وهى امريكية الجنسية من اصل بولاندى . وكان من يتناول طعام العشاء يدفع ثمن ماياكله وكان فى العادة ثمنا يستطيع كل واحد منا أن يدفعه . وقد كنت فى نظر الجميع شخصا يحب كل واحد من النزلاء أن يتحدث اليه ليعرف شيئا عن ثقافته وعن بلده مصرنا الخالدة وعن موضوعات اخرى . كنت فى نظرهم شخصا فريدا . فانا لست من البيض وانا لست من الزنوج وان كان لون جلدى اسمر . وكان حديثى باللغة الانجليزية حديثا يقرب من حديث الانجليز لا الاميركيين . ويرجع ذلك الى تاثير اساتذتى الانجليز الذين بدءوايعلموننى اللغة الانجليزية منذ دراستى الثانوية فى مدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم بعد ذلك فى المملكة المتحدة وفى المعهد البريطانى بالقاهرة لفترة سنوات . وعلى الرغم من جلدى الاسمر فقد كان بعض الاميركيين يظنوننى اسبانيا . وقد فعل ذلك « ترى نيومان » الذى كان يدرس « علم المنطق » فى لندن . وبمرور الوقت توطدت صداقتى ببعض نزلاء محلة نورفلك . كان يجمعنا المستوى الثقافى والنظرة نحو الحياة . وقد حدث فى تلك الفترة ، أى فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ان هب على المجتمع الاميركى زوابع « جوزيف مكارثى » الذى كان يظنه

بعض الناس من خارج الولايات المتحدة انه القـــائد الاميركي « دوجلاس ماك آرثر » الذى قاد القـوات الاميركية فى الشرق الاقصى فى الحرب العـــالمية الثانية ، والقوات المتحالفة المحتلة لليابان بعـد هـذه الحرب . اما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الاميركى عن ولاية « وسكونسن » وكان مـن اصل ايرلندى وكاثوليكى وينتمى الى الحزب الجمهورى، كان هو واتباعه فى تلك الفترة يتعقبـــون بالشبهـة والشائعة العديد من المثقفين ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية واثارة الفتن . وكانت جلسات محاكمة الاخيرين تعقـــد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا . وكـــانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلالها ملايين الاميركيين حول التليفزيونات متتبعين ما يدور فيها . وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على ان نفعل ذلك ونرى امامنا مايحدث وكاننا نرى فيلما سينمائيـا مخيفا . وقد تأكدت أن مكارثى واعوانه ومن كـــانوا وراءهم كانوا يبغون أن لايلفتوا نظر اعضاء المجتمـــع الاميركى الىمايهمهم من امور عن عمد بوساطة جـذب انتباههم الى ماكان يحدث فى هذه المحاكمات . ان مجتمع الولايات المتحدة كما كنت اراه ويراه غيرى من العلماء والمثقفين الاميركيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة . فقد كانت اكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع ، وكانت اكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع ايضا . وكانت من كل عشر آنسات أو سيدات اربع مريضات بمرض نفسى أو عقلى ، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنســية المثلية . وكان جناح الاحداث فى ذلك الحين يستشرى، فى أكثر منمليون حدث . كل هذه الحقائق وغيرها مثلها

قد عرفتها وعرفها فيرى فى ضوء نتائج بحوث اجتماعية علمية أجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين . صحيح ان مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الامريكى مستوى عال مافى ذلك من شك . وأن مستوى المعيشة فى مخيط الامريكيين مستوى عال مافى ذلك من شك ايضا . ولكن القارىء يعلم كما اعلم تماما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ومهما يكن من الامر فاننا نجدفى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة ظواهر تشابه « ظاهرة المكارثية » . أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة . والملاحظ ان مقومات هذه الظواهر كانت فى الاغلب الاعم متشابهة . فنجد انها تستند الى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وأن غباءها مستحكم لدرجة انها لا تستطيع نقد نفسها ذاتيا أو ان تكون فكرة أو تصورا عن ذاتها ، وهى تستند أيضا الى الاندفاع العصابى أما لتحقيق القوة او للاحتفاظ بها ، وهى تستند كذلك الى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة اخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف او النزوع الى الحصول الى المغانم غير المشروعة ، فضلا عما تقوم به من أنواع الحقد وتعمد الاذى والرذيلة . كانت هذه المقومات ، كلها ، تتحدث عن نفسها امامنا ، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الامريكى ، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على شاشة التليفزيون . وقد شهدها قطعا أعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا من أعضاء « مذهب الكويكرز » وأعضاء مذهب البابتستس « المعمدون البروتستانتيون » ، وماحدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت « الساحرات » وعذبن فى مدينة سالم « بولاية ماساتشوست » لمدة ستة شهور . وفى خلال

اعوام ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ عندما ظهرت الحـركة المضـاده للمذهب الكاثوليكى . ولم اكن ادهش كثيرا عندما كنت ارى تابعا من اتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت اراها كما كان يراها الملايين غيرى على شـاشة التليفزيون . كنت ارى فى هذا التابع ظلام الجهل الذى يعشش فى دماغه ، وكنت ارى فيه الشعور بالنقص واضحا ، اما رغبته فى تحطيم من كان افضل واعظم منه فلم تكن تخفى على احد . وكنت ارى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليهاليظهر قدرته على أظهـار كل ماهو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته . وكانت تنتهى المحكمة واذكر اننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا . وكان لايتكلم منا أحد . ثم نتفرق واحدا وراء الآخر . لم يكن يتحدث معى عن ما رأينـاه وسمعناه احد ولم اكن انا أيضا اتحدث مع احد . حتى مع من كان يجمعنى واياهم المستوى الثقافى والنظـرة نحو الحياة . لم يكن يجرؤ واحد منهم ان يقـول لى شيئا أو يعلق على مارآه وسمعه بشىء . ولعل ذلك ان يرجع الى اننى كونت فى حجرة المطبخ فى السـاعة الواحدة صباحا فى يوم من ايام هذه الفترة وكان معى « اين » الشاب الكندى . كنا نلتمس طعاما نسكت به « العصافير » التى كانت تزقزق فى بطن كل منا . واذا بالنزيل الزنجى « جون جراى » يأتى الى حيث كنا . كان فى الخارج وفى اثناء دخوله من باب المحلة ناداه احد رجال الشرطة من الزنوج . وقال لنا جون انه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون ؟ فنفى جون انه سمع شيئا غير عادى أو راى فعلا استثنائيا . كـان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجـه وكـانت يداه ترتعشان . ولم نعلق بشىء ولكننا عرفنا اننا اى نزلاء

المحلة تحت المراقبة . ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له ان يعيش حياة الاغترب ى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى آن واحد . ان المسالة ، كما كنت اقول لنفسى ، ليست جبنا او خوفا او خشية ، ولكن المسالة اهم من ذلك واعظم وهى ان احرص على حياتى ان تهدم بلا مبرر . اننى كنت اقتفي مثال « اسبارتاكوس » العبد الثائر ، الذى ثار على روما والدولة الرومانيةفىعنفوانها . كان اسبارتاكوس حريصا على ان يبقى حيا لكى يبدأ مهمته العظيمة ولكى يتمها بنجاح . وكان ينصح زملاءه بأن يحرصوا ما استطاعوا على صحتهم لكى يبقوا احياء لكى يؤدوا ماعليهم من واجبات نحو انفسهم ونحو زملائهم ونحو المستقبل ، اقصد مستقبل الانسان لكى تتحقق انسانيته فعلا وحقا . وقد سمعت وقرأت عن مؤتمر « باندونج » الذى عقد فى شهر ابريل عام ١٩٥٥ ، وضم فى ذلك الحين تسعة وعشرين دولة من آسيا وافريقيا ، ممثلة فى رؤسائها ، وبحثت فيه موضوع مناهضة «الاستعمار» والتعاون الاقتصادى والثقافى فيمابينها . وكان الرئيس « جمال عبد الناصر » ومعه الزعيم الهندى « نهرو » والزعيم اليوغسلافى « تيتو » أول من اعدوا لهذا المؤتمر وشجعوا عليه توطئة لخلق « حركة عدم الانحياز » لتحقيق هذه الاهداف العظيمة . وقد عرفت ان الدولة المضيفة كانت « اندونيسيا » وان مدينة باندونج تقع فى جزيرة « جاوة » وهى واحدة من جزائر اندونيسيا العديدة . وكانت هذه المعلومات عندىجديدة ولكنها مهمة للغاية . وحاولت ان اتتبعها فى الجرائد وفى الاذاعات . وما انعلمت بأن احد أعضاء مجلس النواب الاميركى الذى ذهب مع من ذهبوا لحضور هذا المؤتمر ، قد أعد زيارات الى مدن الولايات المتحدة ليلقى فيها

محاضرات عن مؤتمر باندونج وان من بين هذه المدن مدينة بوستن ، وانه قد تحدد موعد حضوره فى مدينة بوستن في خلال شهر يوليو عام ١٩٥٥ ـ ما ان علمت بذلك الا وسارعت الي حجز مقعد لى فى الصالة التى ستلقى فيها المحاضرة في نظير مبلغ معين لا اذكره الان . وعشت مترقبا الموعد حتى جاء ، وذهبت فوجدت القاعة غاصة بالمواطنين الاميريكيين من الزنوج . ولم يكن من بينهم من غير الزنوج سوي عدد قليل جدا . وعلمت وانا فى القاعة ان المحاضر زنجي . وتمنيت ان استمع الي معلومات تشبع حب الاستطلاع لدى . فهاهو رجل شاهد عيان سيتحدث الينا عما راي وعما سمع فى مؤتمر باندونج الذى يعتبر كما كنت اعتقد فى ذلك الحين انه علامة تاريخية سيكون لها آثار وآثار فى سبيل تقدم البشرية .

ولكن ماذا قال المحاضر ؟ كان محاضرا لبقا مافى ذلك من شك ، تتدفق الكلمات من فيه بلهجته الزنجية الراقية سلسة عذبة . بدأ حديثه بأن وصف الفندق الذى نزل فيه . وصف طوابقه والصالات التى توجد فيه . ثم وصف الحجرة التي نزل فيها من حيث الاثاث الذى كان فيها ونوعه . ثم اذا به يتحدث عن الطعام الذى كان يتناوله : طعام الافطار وطعام الغداء وطعام العشاء . وعندما ذكر الاسعار التى تدفع نظير كل وجبة وجدت القاعة تضج والحاضرين يصفقون وهم مندهشون من رخص الاسعار . ثم بدأ المحاضر بذكر بالتفصيل ما رآه فى شوارع مدينة باندونج من الناس والبيوت من حيث ارتفاع طبقاتها ونظافتها . وكان فى كل ما قاله « الخطيب المفوه الذى يعى مايقول والغرض مما يقول» .

وقد رايت بعض الحاضرين عند ذكر أصناف الطعام قد سال لعابهم . واستمر هذا الخطيب المفوه يبدى ويعيد

ويكرر ماكان يقوله محاولا ان يستغرق من الوقت اطوله. وختم حديثه ، وكان التصفيق حادا ، عندما ذكر ان الملونين من الناس فى العالم هم اضعاف البيض ، وان النصر سيكون حتما حليفهم . لم يقل شيئا عن المؤتمر ولا عن الخطب التى القيت فيه ولا عن التوصيات شيئا. ان ماذكره كان استثارة للغرائز اكثر مما كان ملهما للتفكير المستنير . وقد حزنت لاننى وجدت مثل هذا القائد الزنجي الذي تخلي عن واجباته نحو ذويه واهله نظير دراهم معدودات يجمعها من هنا ومن هناك وستزيد حتما عن تكاليف ذهابه الى مؤتمر باندونج اذا كان قد صرف فعلا من حسابه سنتا واحدا . فمثل هذا الرجل يرسل خصيصا من جهة من الجهات المسئولة عن تخطيط السياسة فى الولايات المتحدة والنفقات تكون بالضرورة على حسابها . واثار هذا الحزن ذكرياتي عن زملائه المحاضرين الذين التى بهم عندما كنت عضوا من اعضاء برنامج التوجيه الذى كنت قد حضرته فى احدى ضواحي مدينة نيويورك من قبل . وقلت لنفسي ان الشر لن يكون مطلقا ، والخير موجود حتما . وان الانتهازيين ليسوا وحدهم في مجتمع الولايات المتحدة ، وان الاشراف أصحاب الرسالات والمبادىء موجودون بالضرورة ايضا فى هذا المجتمع . ولم يكن هذا الكلام : مضمون حديثي الى نفسي ، مجرد عزاء لي ، ولكني قلته وانا واثق مما اقول .

• وفوجئت كما فوجىء الملايين من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة بالاذاعات تبث في خلال شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ ، وكأنها تنعق ، خبر الاتفاق على عقد صفقة لشراء اسلحة سوفيتية وقعه جمال عبد الناصر . وقد ذكرت تفاصيل هذه الصفقة فى الاذاعات وفي الصحف

اليومية والمجلات الاسبوعية . وأنا اذكــر الآن بعض ماقرأت وسمعت عن هذا الموضوع من انه في خلال عقد مؤتمر باندونج في شهر أبريل عام ١٩٥٥ تحــدث عبد الناصر مع رئيس وزراء الصين الذي كان في ذلك الوقت « شواين لاى » بشأن شراء مايلزم الجيش المصري من سلاح من الصين . ولكن شواين لاى أبدي عدم قدرة بلاده على توفير هذا السلاح ، ووعد بالعمل على الاتصال بالسوفيت في هذا الخصوص . وجاءت موافقة الاتحاد السوفيتي على عقد صفقة شراء الاسلحة المطلوبة في خلال شهر يونية عام ١٩٥٥ . وأوفدت مصــر بعثة عسكرية الى « تشيكوسلوفاكيا » لهذا الغرض في خلال شــهر اغسطس عام ١٩٥٥ . وبدا لى ان عقد صــفقة شراء الاسلحة السوفيتية كان ضربة للحكومة الاميريكية وبخاصة لوزير خارجيتها « مستر فوستر دالاس » . والدليل عندي ان الاذاعات وكل وســائل الاتصال الاميريكية لم يقف نعيقها فترة من الزمان . وأحسست ، وكان هذا الاحساس من دواعي اغتباطي وفرحي ، ان هذه الحكومة قد جن جنونها مما حدث ، على الرغم من لجوء الحكومة المصرية المرة تلو المرة الى حكومة الولايات المتحدة لشراء مايحتاجه الجيش المصري من اسلحة واصرار الحــكومة الاخيرة على عدم موافقتها على بيع سلاح لمصر . وكنت حريصا على ان يكون اغتباطي وفرحي لنفسي ، فلم اذعه او أتحدث عنه لاحد . وكنت اعتبر ان ماحدث هــو احدى حسنات الحكومة المصرية على الرغم من السيئات العديدة التى اقترفتها وبخاصة ماتعلق منهــا بســيادة الحياة الديمقراطية واحترام الانسان المصري واعطائه الفرصة وهو على وشك التحرر من الاستغلال الاجنبي في ان لايستغل من بنيه وذويه .

واتني اذكر ، وقد جاء الشتاء ، وانافي مدينة بوستن ، وبدأ العام الدراسي الاكاديمي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ اقصد وبدأ الفصل الدراسي الاول منه ، ان الشعب الاميركي قد فوجيء في اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ بما قامت به السيدة الحائكة الزنجية « مسز روزا باريس » التي كانت تعمل في معرض « مونتجومري بولاية الاباما » ، واصبح ماقامت به هذه السيدة الزنجية تاريخا . كانت مسز روزا باركس بعد يوم شاق في عملها في طريقها الى « محطة الاوتوبيس » . وعندما ركبت وقفت في القسم المخصص للزنوج وجلست في اول المقاعد التالية للقسم المخصص للبيض . وكان « الاوتوبيس » مزدحما فأمرها سائق الاتوبيس هي وثلاثة آخرين من الزنوج باخلاء مقاعدهم حتى يجلس مكانهم بعض الواقفين من البيض . واخلى الثلاثة الآخرون اماكنهم ، أما مسز باركس فقد رفضت . ولما كان مافعلته هذه السيدة الزنجية في ضوء القانون يعد جريمة فقد قبض عليها وسيقت الى قسم الشرطة مشيعة ببعض ضحكات الركاب البيض ولعناتهم . وانقضى الحادث في دقائق . ولكن من هذا الحادث الذي كان يبدو صغيرا انبثق مايشبه بالثورة في محيط زنوج الولايات المتحدة . كان موقف مسز باركس يعتبر انفجارا دوى في ارجاء الدولة ، وقد ابلغتني « دوتي » النزيلة الزنجية في محلة نورفالك انها تعرف هذه السيدة ، وأنها سيدة طيبة « وفي حالها » ، وهي أي دوتي دهشت كثيرا لما حدث منها . والواقع أن دوتي لم تكن وحدها التي كانت تحاول اكتشاف السبب الذي حدا بمسز باركس الى اتخاذ هذا الموقف ، فقد علمنا ان سلطات مونتجومري كانت تصر على أن « اتحاد تقدم الملونين » هو الذي دفعها الى ذلك والمتطرفون قالوا انها

عملية « شيوعية » . ولكن الحقيقة كما بدت لي أن مسز باركس انما عبرت عن روح العصر .لقد كانت واحدة من الزنوج الذين فاض بهم الكيل . وكان القبض عليها بمثابة الشرارة التي اشعلت نيران الحماس في قلوب بعض السيدات الزنجيات فكون لجنة منهن التي اتصلت بالقسس وغيرهم من القادة الزنوج المدنيين ، وطالبت هذه اللجنة بمقاطعة الزنوج للاوتوبيسات وقد كانوا يكونون ٧٥٪ من ركاب الاتوبيسات . واخذ « قس » شاب على عاتقه مسئولية توزيع المطبوعات التى تدعو الى المقاطعة . وكان هذا القس هو « الدكتور مارتن لوثر كنج » . كانت هذه الحوادث تجرى بسرعة مذهلة ، وكنا انا ومن حولي في محلة نورفلك أو حتى في الجامعة نترقبها اولا بأول ولم تكن ندرى ما الذى سيكون مصيرها، وان كنا ندرى ان ماحدث كله لم تكن ثورة ضد البيض بقدر ما كانت ثورة ضد قيادات الزنوج واهدافهم . وبخاصة امثال المحاضرين الزنوج الذين القوا محاضراتهم في برنامج التوجيه الذى أعد لبعض الدراسات والدارسين الذين كانوا يزمعون الدراسة في جامعات الولايات المتحدة عندما حضرت اليها في النصف الثاني من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، او من امثال المحاضر الذى ذهب الى مؤتمر باندونج ليحاضر عندما عاد عن أحوال المعيشة في باندونج وعن الوان الطعام التى كان يتناولها وأسعارها الرخيصة التى كان يدفعها في كل وجبة ، ولم يمس شيئا جوهريا عن ذلك المؤتمر . وفى اثناء هذه الفترة التي بدأتها مسز باركس وما اعقبها من حوادث كنت اتذكر ماحدث لي شخصيا عندما احسست بالحاجة الى شراء « اسبرين » في يوم كان حارا وطقسه رطبا . اذكر انني ذهبت الى احد المحلات التجارية المنتشرة في احدى

محطات الاوتوبيس التي تقع في حي روكسبري ، لكي اشتري « الاسبرين » . والملاحظ أن جميع محطات الاوتوبيس كانت مملوءة بالمحال التجارية التي يجد فيها المرء منا مايحتاج اليه ، وبخاصة اذا كان مايحتاج اليه من الحاجات العادية كالسجاير وعلب الشيكولاته والجرائد والاسبرين وغيرها . ولما سألت البائعة عن الثمن الذي كان علي أن ادفعه نظير الاسبرين المطلوب ، وكانت المرة الاولى التي أشتري فيها هذا الصنف ، فاذا بها تنظر الي بامتعاض ظانة انني اتجاهل معرفة الثمن . واذا بها تندفع في غضب وتقول لي « الا تعرف الثمن ايهـا النجر ؟ » لم تقل « ايها النجرو » امعانا في اظهار غضبها مني وازدرائها . فلما قلت لها انني لست « نجرو او نجر » انما انا مصرى اطلب العلم في جامعة بوستن لم يرقها كلامي وذلك لان جلدي الاسمر كان دليلا على صدق ماقالت . ولم يكن رد هذه البائعة على احتجاجي الا ان قالت لي « ادفع كذا ولا تزعجني » ، ودفعت ماطلبت . ولكنى ذهبت الى حال سبيلي وانا أعذر زنوج الولايات المتحدة ومن في حكمهم ، فقد عشت موقفا من المواقف التي يعيش الواحد منهم المئات منها في كل يوم . وتذكرت الرجل الزنجي العجوز الذي استضافتني امرأته في يوم من الايام لاتناول طعام الغداء عندما قال لي وهـو ينصحني « ياولدي لاتثق ابدا في الرجل الابيض » . ومما حز في قلبي انه كان يقف بجوارى احد الزنوج الشبان عندما كان الحوار يجرى بيني وبين بائعة الاسبرين ، فاذا بي اراه وقد رأى قسمات وجهي وقد تغيرت بعد المفاجاة التي سببها حديث البائعة لي ، يضحك ملء فمه . كان الموقف كما كان يبدو لي دراميا دعاه الى الضحك بصوت عال . ولم ادر في ذلك الحين وحتى

الآن اذا كان ضحكه سخرية منى او من اجل ماحدث لى . ولكني وانا اترك المكان قلت لنفسى صحيح أن شر البلية مايضحك :

وانا اذكر ترحيبى الشديد عندما دعيت الى «الكنيسة الخلاصية » او « كنيسة الخلاصيين » ، تلك الكنيسة البروتستانية التى يؤمن اعضاؤها ويعتقدون فى ان جميع الناس سينعمون آخر الامر بالخلاص . دعيت لا الى الصلاة ولكن لكى اشترك متطوعا فى الاشراف على دار حضانة أعدت للاطفال الذين يحضرون مع ذويهم الذين يحرصون على الصلاة فى هذه الكنيسة كل يوم احد . كان مبنى دار الحضانة ملحقا بالكنيسة وكان الآباء والامهات المصلون الذين يحضرون معهم اطفالهم يسلمونهم لدار الحضانة حتى تنتهى مراسيم الصلاة . وكان يشرف على هذه الدار سيدة مؤهلة حاصلة على درجة الماجستير فى علم النفس ، وقد دعيت لكى أساعدها فى الاشراف على اطفال الدار . وقد لبيت الدعوة لكى اعيش احدى التجارب فى الاشراف على الانسان عندما يكون طفلا ، كان الاطفال فى معظمهم من أعضاء مجتمع الولايات المتحدة وكان امامهم اللعب اشكالا والوانا وأحجاما . وكان يترك لكل طفل ان يمارس ماشاء له ان يفعل . وكانت التعليمات الموجهة الى ان لا اتدخل ضد رغبة اى طفل . وما على الا ان اراقبه وأسجل مايقوم به من افعال او مايصدر عنه من انماط سلوكية . كانت تجربة رائعة لى وكنت ارغب رغبة اكيدة فى ان اواصل قيامى بها لولا الامتحانات والاستعداد لتحضير البحث الذى ستضمه الرسالة التى كنت ساقدمها للحصول على درجة الدكتوراه . ولم يمنع اشرافى على دار الحضانة ، اقصد الاشتراك فى هذا الاشراف انني كنت اسمع الموعظة التى

تلقى في الكنيسة بعد الصلاة . كان مضمون أحدى هذه المواعظ لدهشتي الكبيرة دعوة للتبرع الى « الصين الشيوعية » حيث قد جرفت فياضانات بعض الانهار بعض الاماكن واغرقت من اغرقت ودمرت مادمرت ، وان من حق الصين ان نتبرع لها حتى تستطيع ان تواجه هذه الكوارث . والتبرعات قد تكون نقدية كما قد تكون عينية . وعندما نظرت الي سقف الكنيسة وجدت هذا السقف مزين بمثلثات كتبت على كل مثلث عقيدة من العقائد التي يعتنقها بنو الانسان على وجه الارض على اختلاف الوانهم وجنسياتهم ومكاناتهم الاجتماعية . وكان للديانة الاسلامية مثلث في سقف الكنيسة الذي يظلل المصلين ويؤدون ماعن لهم من صلوات تحته . وقد علمت فيما بعد السبب الذي كان من وراء دعوتي للاشتراك فى الاشراف على دار الحضانة متطوعا . كان السبب الاول وربما كان الاخير لانني أجنبي ، ووجودي بين الاطفال يعودهم على التعامل مع الاجانب فيما بعد عندما يشبون عن الطوق . وربما كانت هناك اسباب اخرى لم يذكرها لي احد ولم استطع ان احدسها.

ومن التجارب التي خضتها في مجتمع الولايات المتحدة في خلال تلك الفترة معاملتي للطلبة الاجانب الذين كانوا يدرسون في الجامعة ومعاملتهم لي . كنا نجد أنفسنا دون ماسابق ترتيب نجتمع بعضنا ببعض في زاوية من زوايا « حرم الجامعة » او في « الكافيتريا » . اننا نعرف بعضنا بمجرد أن يرى احدنا الآخر . فلوننا مختلف وسمات وجوهنا متباينة وحتى اجسامنا من حيث الطول والقصر تكشف عن كوننا طلبة اجانب اذا كنا في حرم الجامعة او في الكافيتريا او مجرد اجانب اذا كنا نسير في الشارع او نركب الاوتوبيس . وكنت

اعرف طلبة من الهنود ومن الباكستانيين ومن سوريا ومن نيجيريا ومن السودان . وكنت اسعد بوجودي معهم في أوقات فراغي واعتقد انهم ايضـــا كانوا يســــعدون بصحبتي . ولاحظت في احدى المرات انني اذا كنت مجتمعا مع بعض الطلبة من الهنود لا ينضم الينـا احد الطلاب من الهنود . واذا كنت اجتمع مع هـذا الطـالب لا يجتمع معنا غيره من الطلبة الهنود . وكنت اعلم ان الطالب الهندي كان يعمل قاضيا في بلده وانه جــاء ليستكمل دراساته العليا . وعندما حاولت ان اعـرف لماذا لا نجتمع جميعا نتجاذب الاحاديث ونتبادل الخبرات في المجتمع الذي نعيش فيه في ذلك الحين . قال لي طالب من الهنود وكان يعتنق العقيـدة الهندوسية انه وزملاءه لا يمكن أن يجتمعوا بالطالب الهندي « القاضي » لانه لا يعتنق عقيدتنا وليس من طبقتنا فهو من طبقة المنبوذين في بلده . وذكرت لهمحتجا بأنني وانتم معي والجميع من حولنا يعيشون في مجتمع مختلف من حيث القيم والعادات والتقاليد . وان هذا الطالب اولاوقبل كل شيء آدمي مثلنا ، فضلا عن انه يمارس مهنة شريفة في بلده ، وهو الآن ، اى في ذلك الحين ، يؤدي دورا شريفا انا أؤديه وكلنا تؤديه هو دور الطالب . وذهبت احتجاجاتي كلها وكل ماحاولت ان اذكره لانصاف هذا الطالب « المنبوذ » ادراج الرياح . وامتنع الطلبة الهنود الذين كانوا يعتنقون العقيدة الهندوسية عن مقـــابلتي والاجتماع بي ، وتركتهم يفعلون ذلك وانا غير آسف . وفي ضوء خبرتي الماضية تذكرت الرواية التي كتبها « مالك راج اناند » وكان عنوانها « المنبوذ : طبعة عام ١٩٤٧ » . وانني اذكر انني كنت اقرؤها والغضب يملأ على كياني والحزن على الانسان المقهور يعتصر فؤادي .

انني اذكر بطل هذه الرواية جيدا . كان اسمه «باخا» ، وكان يعمل « كناسا » ، وكان يعتبر ومن كانوا من طبقته انهم مجرد « قذارة » ولكنه ، كان كما كانوا ، في ضوء الاعمال التي كانوا يقومون بها ، في حقيقة الامر ، ينظفون قذارة « الاخرين » اكانت لدي هذه الخبرة وهـذه المبادىء او المثل العليـا ، ومع ذلك فانني احسست عندما قابلت الطالب الهندي المنبوذ بعد ذلك لاول مرة احساسا غريبا لا يمت بالمبادىء والمثل العليا التي كنت ، ومازلت ، اتشدق بها عن الانسان وكرامة الانسان ، بصلة ماهذا الاحساس الذي شعرت به عندما قابلت هـذا الطالب المقهور ياربي ؟ هل كنت اخدع نفسي ياترى ؟ انني لم اكن ادري ، وحتى الان ، وعلى الرغم من مواصلة معاملتي لهذا الطالب معاملة كلها الحب والاحترام حتى افترقنا، تفسير ما ساورني من احساس عندما قابلته بعد ان قيل لي عنه انه من المنبوذين في المجتمـع الهندي . واذ اصف هذا الاحساس الآن فانني اقول انه كان احساسا ظالما . ولكن من حسن الحظ انه لم يستمر سوى لحظات ، ولكنني مارسته . ولماذا حدث ذلك ياربي ؟ ولعل ماحدث لي كان من قبيل ما حـدث عندما قابلت القسيس صديق مواطني الذي كان ضيفي وكان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، فما ان عرف هذا القسيس صديق مواطني هذا « انني مسلم » رفض ان يصافحني بعد أن مـددت يدي لمصافحته . انه مد يده لي فعلا استعدادا لمصـافحتي ولكنه سحبها ورفض ان يسلم على لمجرد انني كما قال له مواطني ، دون مادداع ، « انني مسلم » . ولعل ذلك مثل ماكان يحدث في محيط جماعة الطالبات والطلبـة الجامعيين في جامعات مدينة بوسطن ، الذين كـانوا

يتخذون محلة نورفلك مقرا لهم في صيف كل عام . وذلك ليقوموا بعمليات تنظيف الشقق التي يسكن فيها فقراء « حي روكسبري » ، بعد ان يتفقوا مع اصحابها في خلال فصل الشتاء . وكان اصحاب هذه الشقق من البيض الفقراء ومن الزنوج المطحونين . وكان طالبات وطلبة جامعات بوستن هؤلاء من الاسر التي تستطيع ان تدفع مصاريف الجامعة العالية فضلا عن المصاريف الاخرى التي تتطلبها المعيشة الرغدة لبناتها وابنائها . كان هؤلاء الطالبات والطلبة من طبقة غير الطبقة ، ويحاولون ان ينزلوا الى الطبقات الدنيا ليحتكوا ثقافيا باعضائها فيفيدوا . وفي نظير ذلك او في سبيل تحقيق ذلك يلتمسون القيام بأداء خدمة مثل تنظيف الشقق عن طريق تبييضها أو نقشها او اعادة تبييضها أو نقشها . وكنت ترى اعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم « السلم الخشبي » أو في ايديهم الفرشاة أو « جردل البوية » ويسيرون في الشارع باصرار ودون ماوجل أو خشية من احد . وكنت أرى ذلك مع من يرون ، وكنت ارى اعمق من ذلك في كل عضو من اعضاء الجماعة ، كنت ارى الحماس «العاقل»، وكنت ارى الزهو احيانا ، وكنت ارى التواضع او ماكان يبدو لي انه تواضع . ولانني كنت احد نزلاء محلة نورفلك ، ولان وقت الفراغ عندي في خلال فترة الصيف اطول منه في فصل آخر ، فقد كان المسئول على أعضاء الجماعة يوجه الدعوة الى لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية . لم تكن هذه الدعوة توجه الى يوميا بالطبع . فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها ولم اكن عضوا فيها . وكانت الجماعة تعيش في محلة نورفلك في فترة الصيف حيث لا عمل فيها او في

الجامعة . أن اعضاءها فى حقيقة الامر كانوا يقيمون فى المحلة اقامة فعلية لفترة لا تقل عن شهر . وفى الاجتماع الذى كنت أحضره ، اجد ان كل عضو يدلى من ورقة بشيء يشبه التقرير عما مر به من تجارب وما اكتسب من خبرات . وكان من بين اعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل « ولاية الباما » و « ولاية جورجيا » . وفى احد الاجتماعات ادلى احدهم وكان من احدى العائلات البيض الثرية تقريره اليومى وكان مع آين يسهم فى تنظيف احدى الشقق لاسرة زنجية . كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة جامعة « هارفارد » فى منطقة « كامبردج » التى لا يفصلها عن جامعة بوستن الا كوبرى صغير . وبدت على وجه الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا . وقال ضمن ماقال انه لا يطيق رؤية احد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له ان يقوم بتنظيف شقة اسرة زنجية او ان يسهم فى هذا التنظيف . انه ، وكان شابا ذكيا ، لايرى بعقله ضرورة للتقزز والاشمئزاز والازدراء من هذا العمل ، ولكن مشاعره تأبى عليه ان يواصل مابدأ . كان الموقف حرجا وبخاصة وكنت حاضرا وكان رئيس الجماعة او المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة الى جلسة مقبلة ، وسرعان ما قام بعض الاعضاء ليعدوا لكل من الحاضرين وانا منهم كوبا من الشاى ومعه نوع من « الكعك » الذى يسمونه فى الولايات المتحدة « دونتس » . والذى لاحظت ان الاسرة التى ولدت لها طفلة حديثا توزع على الضيوف المهنئين هذا النوع من الكعك ، اما الاسرة التى ولد لها طفل ذكر حديثا فقد كانت توزع على الضيوف المهنئين « سيجارا » ! ومن هنا تبدأ التفرقة بين الذكر والانثى

حتى فى مجتمع الولايات المتحدة . اننى لاأذكر ماحدث أمامى من هذا الطالب الذى ولد فى ولاية جورجيا ونشىء فى ظل مناخ ثقافتها حيث يعيش الزنوج حياة لا آدمية ، وحيث ينظر اليهم وكأنهم اقرب الى الحيوانات منهم الى بنى الانسان ، وحيث يلاقون كل ما يتصور أو لا يتصور من الوان القهر — لكى أبرر الاحساس الغريب الذى ساورني عندما قابلت الشاب الهندى بعد ان علمت انه من طبقة المنبوذين فى بلده . اننى لم انشىء مناخ يؤكد كرامة الانسان وتكريمه وانه « لا فضل لعربى على اعجمي الا بالتقوى ». فلماذا أحسست بما احسست هذه هى المسألة . لعل ذلك ان يكون بسبب ما قرات عن المنبوذين فى المجتمع الهندى . ولعل ذلك ان يحدث عندما لا يجحد الذى يعمل فى مهنة كمهنة « الحانوتى » صديقا يزوره وهو مريض او حتى يزوره وهو سليم ولكنه يحتفل بزواجه أو بزواج أحد أقربائه الاقربين ، ومهمايكن من الامر فاننى قد تأكدت من أن تصرفات الانسان منا لايمكن أن تكون مطلقة . فهى قد تكون تصرفات الاشرار الجبابرة الذين لا يرون الا اللذة فى التدمير والدمار . ومهما يكن من الأمر « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى لا انعى على مجتمع الولايات المتحدة التفرقة فيه بين الذكر والانثى . اننى لا ادعو الى المساواة المطلقة بين الذكر والانثى ، اى اننى اذا دعوت الى المساواة بينهما فانا لا اقصدر ابدا التطابق بينهما بل اننى اقصد ان تكون المساواة بينهما مساواة فى الفرص . اى ان يتيح المجتمع أى مجتمع للانثى مثل الذكر فرص التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والفرص فى

قوة العمل والعمل السياسي والقيادة .. الخ ومهما يكن من الامر فلعل ماحدث من احساس غريب ازاء الشاب الهندي « المنبوذ » كان رد فعل للمفاجأة التي واجهتها عندما اخبرني الطالب الذي يعتنق العقيدة الهندوسية عنه انه من طبقة المنبوذين ، وان رد الفعل هذا كان ، في ضوء ماأعتنق من مبادىء اكتسبتها من تنشئتي الاجتماعية في ظل ثقافة المجتمع المصري الخالد ، احتجاجا عنيفا على ماسمعت بلغ من عنفه ان وصل الى اعماقي فكان هذا الاحساس الغريب .

واستمرت زياراتي لمس ويليامز في المؤسسة التي تشرف عليها احيانا ، أو في مصيف « روك بورت » عندما كانت تدعوني في خلال فصل الصيف اذا كان وقتي يسمح بذلك احيانا اخرى . وكما قابلت الدكتور موريس ساندرز عندها في مصيف روك بورت في صيف عام ١٩٥٤ ، فانني في المؤسسة قابلت المواطن « حليم الضبع » وهو موسيقار او اصبح كما تشهد صحف الولايات المتحدة ومنها « كريستان سينس مونيتور » موسيقارا يؤلف الموسيقى وله مريدوه الذين يحبون موسيقاه ذات الطابع الخاص . قابلت المواطن حليم وعلمت منه انه جاء الى الولايات المتحدة كخريج كلية الزراعة ولكنه كان يعشق الموسيقى وبخاصة العزف على آلة « البيانو » ، فاذا به يترك البعثة التي جاء من اجلها الى الولايات المتحدة ويدرس الموسيقى . كان مازال في اول السلم . وانا اذكر انني عندما قابلته لاول مرة كان يعزف وحده امام جمهور ليس كبيرا موسيقى من تأليفه ، وكان يستعمل مع آلة البيانو « الطبلة » التي نعرفها في مصر حق المعرفة ، ونراها في الافراح وفي المناسبات السعيدة بين أيدي البنات المصريات يعزفن

عليها لحنا راقصا يحفز البنات الاخريات وحتى النساء الى الرقص . وكانت آلة الطبلة هذه آلة لايعرفهـا فى الغالب عامة شعب الولايات المتحدة . فكان وجودها مع حليم وهو يعزف عليها باتقان مدعاة للاعجاب . انتهى المواطن حليم من عزفه واستحسن بعض الحاضرين ماعزف وكان ماعزف عند البعض الاخر شيئا ينم على الغرابة . وكنت اجلس بين الحاضرين وانا مشفق كل الاشـفاق متمنيا لمواطنى النجاح والتوفيق . وكـانت تجلس بجوارى سيدة شابة ابلغتنى انها زوجة حليم وانهمـا قد انجبا ابنة اطلق عليها اسم « شادية » تيمنا بالمغنية المصرية المعروفة « شادية » . وقد تزاورت مع مواطنى حليم . كنت اذهب اليه عندما ازور مسر وليامز وكان يزورنى فى المحلة وكنا نقضى فى كل مرة وقتا سعيدا . وقد يسرت مس وليامز له مكانا لكى يسكن فيه على ان تقوم زوجته « مارى » وهذا اسمها بالخدمة فى المؤسسة التى تشرف عليها لفترة ساعات محددة فى كل اسبوع. وكانت مارى تعمل كل مافى وسعها لكى تيسر لمـواطنى حليم الضبع « مشروع الموسيقار » فى ذلك الحين . المناخ الثقافى الصحى لكى يتفرغ لموسيقاه . كانت هذه الزوجة تؤمن ايمانا عميقـا بموهبة زوجها . وكانت ترفض اقتراح عودة حليم الى بلده لكى يشق طريقـه فيه . كانت ترى انه سيقابل بالعقبات الكؤود مما يبدد طاقته فيما لم تخلق له . ان هذه الطاقة طاقة حليم ، كما كانت تقول زوجته ، طاقة ثمينة ويجب أن تستنفد فى دراسة الموسيقى وتاليف الموسيقى والتفـــرغ للموسيقى . وقد ابلغتنى مارى كيف قابلت حليم لاول مرة . كانت قد تسلقت تلا من التلال التى توجـد فى الولايات المتحدة . وكانت وحدها . ثم صـلت لله .

وتمنت ان من يأتي بعدها يكون شابا ، وان يكون هذا الشاب من نصيبها كزوج المستقبل . واتى حليم فعلا متسلقا التل بعدها . وتعارفا . وكان من نصيبها ان يكون زوجها وأبا لابنتها شادية التى عندما رأيتها لاول مرة كانت طفلة تحملها عربة يد ولم يكن قد بلغ عمرها اكثر من عدة شهور . وانا لا اعلم منذ عودتى الى مصرنا الخالدة عن حليم الضبع الموسيقار ولا عن زوجته مارى ولا عن ابنته شادية او غيرها من ابناء او بنات شيئا . ولكنى مازلت اذكر الساعات الحلوة المثمرة التى كنا نقضيها فى اوقات فراغنا . وقد علمت ان حليم عاد الى مصرنا الخالدة ليجمع بعض الاغانى الشعبية المصرية من بلاد النوبة قبل الانتهاء من بناء السد العالى ، وغيرها . ثم غادر البلد الطيب ، ولم أحظ بمقابلته ، بما حمل من كنوز الى حيث ولدت زوجته مارى وابنته شادية ..

ومنذ ان قابلت الدكتور موريس ساندرز عند مس وليامز فى مصيف بورت فى عام ١٩٥٣ ، وهو لم يقطع زياراته لى فى محلة نورفلك . كان يأتى الى ليزورنى ويتحدث معى مرة فى كل اسبوع او مرة فى كل اسبوعين . كان يحاول ان يعرف عنى الشىء الكثير . وكنت تراه يقلب فى الكتب التى اقتنيها . وكنت اشترى هذه الكتب كلما مررت بمكتبة تبيع الكتب . انها زادى العلمى والثقافى . وان لم تكن المصدر الوحيد لهذا الزاد . كان يأتينى على حين غرة ودون سابق ميعاد ؛ ويتصادف وجود اطفال الاسر التى تعيش معى فى المحلة عندى ، كانوا يأتون الى لكى ، كما كانوا يتصورون ، « يضحكوا على ذقنى » فيأخذوا بعض الحلوى والفاكهة التى عندى وقد يطلبون نقودا . وكنت البى رغباتهم فهم عندى لا يضيعون وقتى بل على العكس كانوا يزودوننى

باسمى العواطف التى كانت تتغذى روحى عليها فاجدنى بعد أن يذهبوا غانمين أنشط لاستذكر دروسى او ابدأ صفحة جديدة فى البحث الذى أقوم باجرائه . واذا جاء دكتور موريس وكان الاطفال عندى فانهم كانوا يصابون بخيبة امل كبيرة ويرفضون باباء كل مداعباته التى كان يحاول ان يجتذبهم بها اليه . وذات مرة وجدت أحدهم وكانت « المسطرة » التى استعملها على مكتبى يأخذها ويمسكها بيديه ويصوبها نحو دكتور موريس وكأنها « بندقية » وانه يقصد أن يقتله . واذا كان من حظى ومن حظه يأتى وأنا وحيد فان الفرصة تكون متاحة للحديث . تحدثنا عن بيروت المدينة التى كان يعمل فيها ، وتحدثت عن ذهابى الى مدينة بيروت لاول مـــرة فى عام ١٩٤٩ لاحضر « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ، وتحدثت عن مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر وكيف نشأت ، وكان ضمن من تحدثت عنهم « الدكتور ويندل كليلاند » الذى أسهم فى انشاء « الجمعيــــة المصرية للدراسات الاجتماعية » . وكان الدكتور موريس يتحدث عن « القضية الفلسطينية » وكان يؤكد ايمانه بحق العرب ويشيد بمن عرفهم من قادتهم . ويحاول دائما أن يبدى التعاطف نحو قضيتهم . وكان يأتينى باخبار عن أناس شاهدونى وأنا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية الدول العربية » التى كنت أحد اعضائها ممثلا للجمعية المصرية للدراسات الاجتمـاعية . أو يأتينى بتحيـات دكتور ويندل كليلاند الذى قال عنه انه يعمل الان اى فى ذلك الحين فى وزارة الخارجية الامريكية ! وفى يوم من الايام ذكرلى عن « الدكتور حليم مترى » الذى كان يعمل معنا فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحـكمة الاحداث لفترة قصيرة من الوقت ثم هاجر الى الولايات

المتحدة . وقال عن الدكتور حليم انه يود أن يراني واعطاني رقم تليفون منزله واكد لي على الوقت الذى أجده في المنزل اذا كانت لى رغبة فى التحدث اليه والاتفاق معه على موعد . ومن أحاديث الدكتور موريس ومن الاخبار التى كان يأتي بها عنى علمت علم اليقين انني تحت مراقبته . اى انه كان يحاول ان يتأكد من صدق المعلومات التى كنت ادلى بها اليه عن نفسي وعن مهنتي وخبراتي ومن اعرف من الناس . ووجدته ذات مرة وهو يزورنى فى حجرتى فى محلة نورفلك يقفز كالملسوع عندما رأى كتابا كنت قد اشتريته لتوى ويتضمن « دراسة حالة » بعض شيوعى مجتمع الولايات المتحدة، وانتهى مؤلف الكتاب الى بعض النتائج منها ان هؤلاء الاشخاص أما ان يكونوا مرضي عقليا أو مرضى نفسيا ، وانهم فى ضوء دراسة كل منهم عاشوا فى أثناء مراحل طفولتهم حياة خالية من الحب واقربه الى التعاسة منها الى السعادة . اي ان مؤلف الكتاب يحاول باسم العلم او باسم الدراسة العلمية أن يشجب « المذهب الشيوعي» عن طريق بعض قادته الاميركيين . ومع ذلك فان الدكتور موريس بدا منزعجا لان مكتبتى تضم هذا الكتاب وطلب منى ان اسمح له باستعارته لكى يقراه ، واننى أذكر اننى أجبته الى طلبه . واذ ابحث عن هذا الكتاب فى مكتبتى منذ عودتى من الولايات المتحدة فلا اجده وتذكرت اخيرا ان الدكتور موريس لم يرده منذ ان استعاره منى . ومع ذلك فان هذا الرجل كان من العوامل الهامة لكى أعرف الكثير عن المجتمع الاميركى وبخاصة عن اعضائه الذين يفخرون بأنهم « يانكيون » اى الذين يرون انفسهم من الصفوة المختارة فى هذا المجتمع . وتراهم ، والمجتمع الاميركى فى تغير مستمر،

يدعون بأنهم هم اصل الحضارة الاميركية وان الثقافات الفرعية مازالت تدين لثقافتهم الاولى بالشيء الكثير . فالفردية مازالت سائدة في المجتمع الاميركي . وفضلا عن ذلك فان حب المبادرة وعشق النجاح المادى وروح المغامرة ، كلها ، من سمات هذا المجتمع . وقد تضاف الى هذه السمات كذلك سمات التدين والمثالية والمساواة والاستقلال فى ابداء الراى والديمقراطية سواء كانت سياسية او اقتصادية « ومن قيم الاخيرة ان المستهلك ملك مثلا » . وكان موريس ساندرز يدعونى الى القاء المحاضرات ، وهو يباهى نفسه ويباهى الاخرين ، فى الجمعيات المنتشرة فى روك بورك حيث يعيش معظم ايام السنة . وكان يفاخر بى كأحد الدارسين الذين على وشك الحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، واذكر بهذا الصدد ان احدى الفتيات المعوقات ، وكانت من اسرة ثرية جدا ، ولا تجد الا اوقات الفراغ تملأ عليها حياتها . لا صديق ولا حبيب ولا زوج . فاستغلت هذه الاوقات لكى تتعلم الرسم ، وكانت لديها الموهبة فعلا ، فانتهت الى الاعداد لقيام معرض لها ، ولم يكن المعرض الاول ، تتضمن لوحاته وجوه اشخاص متباينين ، ذكورا واناثا ، فاختارنى الدكتور موريس لاكون واحدا من هؤلاء . واذكر ان هذا المعرض قد أقيم فعلا وحضر جميع من قاموا بدور « الموديل » من الذكور والاناث وغيرهم من الضيوف وكان يوما حافلا بدأ الناس الذين قاموا بدور الموديل وغيرهم ينظرون الى الصورة والى الاصل ويعجبون أو يبدون وكأنهم يعجبون . فالفتاة كانت لا اصابع لها ، واقدامها لا تستطيع الوقوف عليها ومع ذلك فقد كانت مثالا للشجاعة والاصرار . ولعل ظروفها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية قد يسرت لها ان

تقوم بما كانت تقوم به وان تشغل أوقات فراغها بعمليات الخلق الفنية وتذوق كل ماهو جميل . وقد جلست أمام هذه الفتاة بضعة ايام ، ولكنني كنت اجلس فى كل يوم بضع ساعات فقط حيث اجد الخدم والحشم من حولى يحاولون ان يغرقوني بالالوان العديدة من المأكولات والمشروبات التى تدل لا على الكرم بقدر ماتدل على الثراء الفاحش . فالاواني التى كانت تقدم فيها هذه المأكولات والمشروبات لا تقدر بثمن او لا يستطيع شخص مثلى أن يقدرها بثمن . وكان موقع المكان الذى كنت اجلس فيه قطعة حية من الجمال بألوانه المختلفة . كان كل شيء جميلا: الحديقة ومافيها من ورود وثمار والارائك والكراسي والنظافة التى تلمسها فى الحوائط وعلى الارض وقطع الاثاث الفنية التى تزين كل ركن فى الحجرة فضلا عن الحديث والكلاسيكى من الصور التى تزدان بها الحوائط . اجل كان كل شيء جميلا وقد تعمد أصحاب القصر ان يجعلوا المكان كذلك لكى يجتذب انظار الزائرين فلا يرون فتاتهم المعوقة الا وهى فى هذه البيئة الخاصة فتجتذبهم الاشياء الجميلة التى فيها اكثر مما تجتذبهم ماكان تعانى الفتاة من عاهات وتشوهات . وفى الحقيقة ان كل ذلك بالاضافة الى المهارة التي كانت تبديها وهى تمارس عمليات الرسم والشجاعة والاصرار التى كانت تعكسها قسمات وجهها الدميم ، وغيرها ، كانت تجعلنى وانا جالس امامها لا أرى الا جمالا محببا سواء اكان هذا الجمال ماديا أم معنويا .

وقد تحادثت تليفونيا مع الدكتور حليم مترى وتواعدنا لاقابله ويقابلنى . فقد كان هذا الرجل انسانا كريما . كان اول من لبي لفحص امي عندما مرضت مرضها الاخير . فكان له على حق كبير . وكان لا يرفض

اداء خدمة طبية لأحد وبخاصة للفقراء وذوى الحاجة فكنت تراه في عيادته في ميدان الجيزة وكأنهـــا مستر صف خيري . وقد كان شخصا مثقفا حقا ويتقن اللغات كما كان يتقن اداء مهنته كطبيب . كان يعمل معنا كعضو من اعضاء اسرة مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وعندما صمم على الهجرة الى الولايات المتحدة ليدرس علم النفس التحليلى ولكى يؤهل ليصبح طبيبا نفسيا ، ودعناه وكان حبنا واحترامنا له يسبقاننا . ذهبت مع الزميلات والزملاء الى المحطة لنقول له الى اللقاء والقطار يسير به الى مدينـــة بورسعيد حيث يأخذ السفينة التى كانت ستقله الى مصيره . وكانت لحظات ، وبالها من لحظات . كنــا نحن الاخصائيين الاجتماعيين ومعنا الســيدة الزا ثابت قد احسسنا وكأننا فقدناه الى الابد . وتقابلنــا فى الموعد وكان سعيدا باللقاء وكنت باللقاء ايضا سعيدا . وجلسنا ساعة او بعض الساعة نتحدث عن الماضى وعن الحاضر . كان قد حقق امنيته واصبح طبيبا نفســيا ناجحا في أحد المستشفيات . وقبل أن نفترق تحدثت معه عن المواطن حليم الضبع وزوجته مارى وابنتهمــا شادية ، فرحب بمقابلتهم فى مسكنهم ، وتم اللقاء فى مسكن حليم الضبع بعد موافقته هو وزوجته . وكانت جلستنا طويلة واحاديثنا اطول . تحدثنا عن مصـــرنا الخالدة وعن الفنون بألوانها وعلى راسها فن الموســيقى الذى يمارسه حليم الضبع . وكنت وهو من حين الى حين نتذكر الماضى ، الاماكن والاشخاص . وقد بدا لى انه تغـــير بعض الشيء فى الوقت الذى ابدى نفس الملاحظة عنى ، فقد لاحظ ان شعر رأسى بدأ يتساقط . وداعبنى فى هذا الشأن مداعبة أسعدتنى كما اسعدت

المضيف وزوجته . ثم حان الحين لكي ننصرف ولكن الدكتور حليم متري اصر على دعوتنا على تناول عشاء . وعلى الرغم من سنه الذى جاوز الخمسين فقد كان لم يتزوج ، ومن ثم كان تناول العشاء في احد المطاعم المعروفة . وذهبنا حليم الضبع وماري وانا ووجدناه ينتظرنا في الموعد والمكان المحددين . وكانت ليلة سعيدة حقا . كان الطعام شهيا فعلا وكانت الاحاديث اشهى . وتفرقنا ولم ار الدكتور حليم مترى الا بعد ان انتهيت من مهمتي وتحدد موعد عودتى الى القاهرة ، وكنت وحدي ، وابلغنى رسالة شفوية للسيدة اختمه عندما اعود . ولكنى كنت ارى المواطن حليم الضبع وماري وشادية في خلال الفترة التى كنت مازلت انتظر في خلالها تحديد موعد مناقشة الرسالة التي قدمتها وفاء لمطالب الحصول على درجة الدكتوراه .

وعندما حان موعد مناقشة هذه الرسالة فى أول شهر مايو عام ١٩٥٦ كانت سعادتي مابعدها ولا قبلها سعادة . فقد مرت الايام التى كنت انتظر فيها هذا الموعد ثقالا وخفيفة . وكان بعضهاحلوا وكان بعضها مرا . وحتى فى أثناء الايام الحلوة التى مرت بى فقد كنت اشعر دائما بأننى احد اعضاء احدى اقليات مجتمع الولايات المتحدة . وقد عانيت المرض مرارا وتكرارا . وكنت احيانا اشعر بالمرض واعرف نوعه . وكان للصيدلى امريكى الجنسية اليونانى المولد الفضل الاكبر فى تخفيف آلامي . وقد كنت مريضا بعد انهيت مهمتي ولم اكن ادرى بمرضى حتى اكتشفه الاستاذ الدكتور « جان دوس جالى » عندما عدت الى القاهرة . ويبدو ان انقاذى من الاستجابة للنزوات الانسانية لم يكن مبعثه المرض وحده بقدر ماكان مبعثه استغراقى الشديد وعملى المتواصل من أجل تحقيق المهمة التى من اجلها جئت الى الولايات

المتحدة فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ . وكم آلمنى هذا الاستغراق الشديد وهذا العمل المتواصـل ، وكم عانيت منهمـا نفسيا . وقد اصبحت فى نظر من حولى « هزيلا » وكشبح مهناى الحزن الدفين . ومهما يكن من الامر فان الاستغراق الشديد والعمل المتواصل كانا من عوامل خروجى من ازماتى النفسية ، كما كانا فى الوقت نفســه من عوامل الامراض التى المت بى . اقصد الامراض الجسمية التى كان من بينها « مرض التهاب الكلية اليمنى ومرض التهاب المرارة « اللذين بسببهما او بسبب احدهما أصبت بمـــرض ارتفـاع ضـــغط الدم » . وانا اذ احاول ان اشخص ما الم بى ، مـن حيث لا ادرى ، وانا اكتب هذه السطور ، فان هـذه المحاولة هى مجرد اجتهاد . وذلك لاننى فى ضوء تعاليم الطبيب خضعت لاجراء عملية جراحية فى « كليتىاليمنى» ولكن كان مرض « ضغط الدم » مازال قائما وكنت من اجل ذلك اتعاطى الادوية المستمرة لفترة طويلة ، ولمـا خضعت مرة اخرى لاجراء عملية « استئصال المرارة »، لم يصف الطبيب دواء لضغط الدم ، وان كان قدوصف ادوية اخرى تتعلق باستئصال المرارة . ولم اكن اشعر فحسب باننى احد اعضاء احدى اقليات مجتمع الولايات المتحدة ، ولكنى كنت اشعر اننى تحت المراقبة . كانت مس وليامز تكاد ان تطاردنى ب « عزايمها » ودعواتها ، وكان الدكتور كاوتس وزوجته المجريين الاصل الامريكيين الجنسية يطاردانى فعلا لكى احضر اسبوعيا الى منزلهما واقضى النهار بطوله معهما ، وكان الدكتـــور موريس ساندرز لايفتىء ان يحضر الى فى محلة نورفلك فى كل حين دون ماسابق انذار وكان يحاول ان يرسل الرسائل الى مدينة بيروت او الى مدينة واشنجطن والى غيرهما ليتاكد من « هويتى » ولكن يعرف عنى ماشاء ان يحاول

ان يعرف . انني في البداية كنت اشكر الجميع لاهتمامهم بي ، ولكنني تأكدت بمرور الوقت ان هذا الاهتمام لم يكن « لسواد عيني » . وانني عندما كنت احس بالاغتراب وانني موجود وغير موجود في آن واحد اسعد بصحبة هؤلاء الناس ، ولكن سرعان ما كنت افيق لنفسي واحاسبها على كل كلمة اقولها . وعندما تحدد موعد مناقشة الرسالة أصر الدكتور موريس ساندرز على أن يصحبني الى حيث يناقشني اعضاء هيئة التدريس في قسم الاجتماع والانثروبولوجيا الذى كان يراسه البروفسور البرت موريس . وناقشني الاساتذة لمدة ساعتين مناقشة غير علنية . وقد كان الفضل للبروفسور موريس عندما التأم جمع الاساتذة وكنت جالسا في احدى الحجرات وحدى وقال لى بان لااخشى احدا لانني كما ذكر الوحيد الذى يعرف مضمون الرسالة من الالف الى الياء . وأنتهت المناقشة على خير مايرام . وهنأني الاساتذة وشكرت كل واحدمنهم شكرا مخلصا . وآن الاوان لكي أعود الى محلة نورفلك أقصد الى بلادى ، وخرجت الى الشارع فوجدت الدكتور موريس ساندرز منتظرا وسألني عما حدث وما أن ذكرت له بعض ماحدث ونتيجة ماحدث اذا به يقترح على ان يدعوني الى احد المطاعم التى تقدم ألوانا من الطعام على الطريقة الفرنسية احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . وقد لبيت هذه الدعوة شاكرا حامدا . وعدت الى محلة نورفلك واستقبلني الزملاء استقبالا طيبا واصروا ان يحيوا احتفالا على شرفي بالمناسبة . فحددت لهم موعدا متأخرا حتى اقوم بحجز مكان لى على السفينة التى كانت ستقلني الى بلادى . وبعد ان اتممت الاجراءات الضرورية ومنها انه لا توجد على لحكومة الولايات المتحدة ضرائب مستحقة ، سارعت الى حجز مكان لى في

السفينة التي كانت ستقلع من مدينة نيويورك » في يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وأقام الزميلات والزملاء في يوم ٣ من شهرمايو عام ١٩٥٦ احتفالا على شرفي بمناسبة حصولي على درجة الدكتوراه . وقد شكرت لهم جميعا وبخاصة الذين تفضلوا بالإعداد والاشتراك . وقال كل منهم كلمة بالمناسبة ولكني ، كما كانوا وكان غيرهم يرونني ، كنت هزيلا وكان الحزن العميق العميق يبدو واضحا في بريق عيني . لم اكن حزينا لفراقهم ولكن لما لاقيت ، كما استطيع الآن ان افسر هذا الحزن الدفين العميق من الوان العناء في ضوء التجارب التي خضتها منذ ان مات ابي في مساء يوم السبت ١٨ من شهر يناير عام ١٩٣٠ ولا يعني هنا التفسير انني اغمط حقوق هؤلاء الزميلات والزملاء على واحتضانهم لي وشغفهم بمحادثتي من حين الى حين واصرارهم على ان اكون بينهم في رحلاتهم وفي حفلاتهم في المناسبات ، ثم اخيرا وليس آخرا خطاباتهم التي ارسلوها لي بعد عودتي الى القاهرة وكانت تتضمن مايدل على العلاقات الطيبة الكريمة التي كادت أن تتوطد بيننا . ولن انسى « البرقية » التي انتظرتني عندما اعطاها لي الشخص المسئول وانا في طريقي الى حجرتي في السفينة في يوم السابع من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولا اخفي على القارىء الشعور بالذنب الذي كان ينتابني كلما تذكرت معاني التعبيرات التي قالها زملائي وزميلاتي في الحفلة في الاحتفال الذي اقاموه على شرفي ، أو ذكروها في خطاباتهم التي لم تنقطع لامد طويل ، وذلك لانني لم احزن ابدا لفراقهم .. ولعل ذلك ان يرجع الى انني كنت اعيش في ظل مناخ ثقافي اجتماعي لم يكن يتفق في كثير من الامور مع مبادئي وقيمي وما اقدسه من اهداف . وعزائي الوحيد انني مازلت على اتصال باستاذي

البروفسور البرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه ، اتصال الحب والاحترام واعترافي بالجميل . شأني شأن كل مصري لتغلغل فى كيانه النفسى قيمة « المجاملة » التى تعنى « المعاملة بالجميل » ولا تعنى أبدا المجاملة على حساب سلب حق الاخرين . ومهما كانت وجهة نظرى نحو مجتمع الولايات المتحدة الذى عشت فيه مايقرب من ٣٤ شهرا ، فاننى مافى ذلك من شك قد افدت كثيرا سواء كان مصدر افادتى المصادر الاكاديمية او غيرها . وكما ذكرت من قبل فان المصادر الاكاديمية وان زادتنى معرفة وخبرات فقد اكدت معرفتى وخبراتى السابقة وبخاصة ماكنت قد اكتسبتها فى خلال الفترة التى عشتها فى مدينة لندن للمرة الثانية ، اى فى خلال شهر فبراير عام ١٩٥١ الى شهر يوليو عام ١٩٥٢ . اى انها اكدت هذه المعرفة والخبرات التى اكتسبتها فى خلال ١٨ شهرا فى مدينة لندن وأن عارضتها جذريا فى بعض الاحيان .

وانني اذكر اننى ذهبت توا الى المحلة بعد ان انتهيت من مناقشة الرسالة لكى ارتب كتبى واضعها فى صناديق مصنوعة من الصاج . كان عدد هذه الكتب حوالى خمسمائة كتاب وربما اكثر من ذلك . وقد حرصت على ان اشحنها الى مدينة نيويورك فى اليوم التالى لحجز مكان لى فى السفينة التى كانت ستقلع من هذه المدينة فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكان هذا اليوم يوم ٢ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولم يكن يعلم أحد بميعاد الحجز . وتم شحن الكتب نهارا فى يوم ٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ ، وحرصت على ان لا أخبر احدا بذلك . وما ان انتهى الاحتفال مساء نفس ذلك اليوم حتى ذهبت الى حجرتى لكى ارتب ملابسى فى ثلاث حقائب ، منها حقيبتان كبيرتان واخرى صغيرة يمكن

ان احملها بيدى . وفى يوم ٤ من شهر مايو عام ١٩٥٦ استاجرت « تاكسيا » الى المحطة ومنها الى مدينة نيويورك التى وصلت اليها فى ظهر نفس اليوم ، وكنت قد حرصت على ان اكتب خطابا لكل النزيلات والنزلاء و « مستر ديفيز » و « مستر دن يونج » و « مستر شيبا » اليابانى الاصل والاميركى الجنسية . وكانت الخطابات كلها متشابهة وتتضمن الشكر الجزيل والتمنيات الطيبة لكل واحد منهم . ولم اسلم مفتاح ابواب المحلة لاحد ولكنى وضعته فى المكان المعد لمستر دن يونج لاستقبال الخطابات التى كانت ترد اليه . ويبدو اننى ذكرت موعد اقلاع السفينة الى « مس وليامز » التى اصرت على ان ابقى لحضور الاحتفال بيوم التخرج الذى تقيمه الجامعة سنويا . وكان هذا آخر ما كنت افكر فيه او اقبله . وكفانى ماقاسيت من عناء يوم الاحتفال بيوم حصولى على درجة الماجستير .. ولم تكن اعصابى لتتحمل عناء اكثر . ان كيانى كله فى ذلك الحين كان متجها نحو مصرنا الخالدة . نحو مدينة القاهرة الحبيبة حيث تعيش زوجتى وفى ظل حنانها يعيش ابنائى : احمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . اننى كما تركت كل شىء وراء ظهرى عندما اقلعت الطائرة فى طريقها الى نيويورك ، تركت ايضا كل شىء وراء ظهرى عندما كنت اغادر مدينة بوستن الى مدينة نيويورك حتى اركب السفينة التى كانت ستقلنى ووجهة نظرها البحر الابيض المتوسط حيث تطل عليه عروسه الخالدة «مدينة الاسكندرية » . لقد الحت على مس وليامز الحاحا شديدا لكى ابقى الى يوم الاحتفال بيوم التخرج ووعدتنى بشراء هدية لى هى « روب » جديد يصبح ملكا لى بعد ان اؤدى مراسيم الاحتفال ! ويبدو اننى ذكرت لها موعد اقلاع الباخرة عندما كانت تحدثنى تليفونيا فى يوم

٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ لكى التخلص من الحاحها المتكرر فى حديثها التليفونى الذى استغرق وقتا طويلا ، وكان ان ذكرت هذا الموعد بدورها للدكتور موريس ساندرز الذى وجدته امامى على ظهر السفينة فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ قبل ان تقلع من مدينة نيويورك ببضع ساعات . وما ان وصلت الى هذه المدينة تذكرت زميلى محمد شلبى الذى كان يعمل فى هيئة الامم المتحدة ويحاول فى الوقت نفسه أن يحصل على درجة الدكتوراه ولكننى لم اكن اعرف عنوان مسكنه وحدست أن يكون بالضرورة فى هذا المسكن تليفون . وكنت مازلت فى محطة السكة الحديد وحولى الحقائب التى اصطحبتها معى . وذهبت الى « كابينات » التليفونات العمومية الموجودة عادة فى محطات السكة الحديد فى الولايات المتحدة وحاولت ان اجد رقم تليفون الزميل شلبى من « دفتر » التليفون . ولكنى لم اجد دفترا واحدا بل دفاتر عديدة وتذكرت لتوى أن مدينة نيويورك ليست مدينة القاهرة . وعندما عثرت على رقم التليفون تنفست الصعداء ، ولكنى فى اثناء محاولتى الاتصال كانت دقات قلبى ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، تدق بعنف وبسرعة . فقد خشيت ان لا اجد الزميل شلبى فى منزله فى الساعة التى كنت احاول الاتصال به تليفونيا . اننى احسست فعلا وحقا فى تلك اللحظات بأننى مجرد قطرة فى محيط ، فالنقود التى كنت احملها لم تكن مبلغا كبيرا وانا اجهل المدينة ولا اعرف الى اى فندق تكون اسعار استئجار حجراته تتفق ومامعى من نقود . وكانت حاجتى الى الاتصال بزميلى لكى يرشدنى الى هذا الفندق . ولكن من حسن حظى كان موجودا ورد على واستراحت نفسى فقد كان كريما لانه مالبث ان دعانى لزيارته فى منزله بعد

ان اعلمني بارقام الاوتوبيسات التى كان يجب على ان اركبها لاصل الى اقرب محطة الى منزله . وعندما تركت الاوتوبيس وجدته ينتظرنى وكانت فرحتي لاتقدر فقد غاب عن ناظرى سنوات . وابلغنى اننى سابيت الليلة فى منزله حتى يتصل ببعض المواطنين المصريين الذين يوجدون فى مدينة نيويورك حيث يجدوا لى مكانا مناسبا لانزل فيه ليلتين فقط : ليلة السادس وليلة السابع من شهرمايو عام ١٩٥٦ . ونمت مع الزميل شلبي في سريره وكنا بعد ان تناولنا طعام العشاء قد تحدثنا طويلا عن كل شيء اشتركنا فيه فى الماضى منذ عام ١٩٣٧ أو مانود ان نفعله في مستقبل الايام . وطال بنا الحديث حتى وجدنا الحاجة الماسة الى النوم تطاردنا وقبل ان نستغرق فى النوم تحدثنا ولكن كان الحديث حديث الشخص المتعب . واستيقظنا فى الصباح فاذا بالزميل صباح الدين على والزميل عدلى سرجيوس ومعهما المهندس على رافت بجيئون . وكان استقبالنا لهم واستقبالهم لنا حارا حقا . فلم اكن قد رايت زميل الدراسة صباح منذ فترة طويلة جدا . وكانوا الثلاثة يدرسون للحصول على الدرجات العليا الماجستير ثم الدكتوراه . وقد نجح فيما بعد كل من الزميل شلبى والمهندس على رافت فى الحصول على درجة الدكتوراه فى حين ان الزميل صباح والزميل عدلى اكتفيا بالحصول على درجة الماجستير . وعشت ايام ٥ و ٦ و ٧ مع الاخوة والزملاء لم يتركونى فى اليومين الاولين الا عند النوم . وقد لاحظ من كان يعرفنى منهم كم كنت هزيلا فى ذلك الحين . وانا كنت فى الواقع مريضا ولكنى لم اكن ادرى . كانت الفترة القصيرة جدا التى مكثتها فى مدينة نيويورك فى تلك الايام فترة استجمام لى . وعلمت

الكثير من الاخبار عن بلدنا الخالدة وقد نصحني الزميل صباح انني عندما اضع قدمي على ارض الكنانة المقدسة اذهب لتوي الى « سراى قصر القبة » لاسجل اسمي « في دفتر التشريفات » ، وان اقابل بالضرورة الصائغ مجدى حسنين حتى ابدأ حياتي مطمئنا على مستقبلي وعلى مستقبل اسرتي الصغيرة ولكني لم افعل ذلك .
وقد رافقوني جميعا الى السفينة في صباح يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . واصروا على التقاط صورا جماعية على ظهر السفينة قبل ان يبرحوها مودعين ، وما ان ذهبوا الى حال سبيلهم اذا بالدكتور موريس ساندرز يظهر امامي . وقد جاءني مودعا كما قال . ولكنني فوجئت بحضوره . ولم تدر آثار المفاجأة كثيراً، فقد قدمني الى سيدة امريكية ذاهبة معنا ولم اعرف منه ولا منها الى اين كانت ذاهبة . وكان يصحبها زوجها الذي لم اره طوال الرحلة . ولم اعرف بدأ ماالذي قاله الدكتور ساندرز لها عني وقد احسست انها سيدة من الطبقة العالية في مجتمع الولايات المتحدة . وانا غير آسف لانني لا اذكر اسمها الان اى وقت كتابة هذه السطور . واخيرا ترك المودعون الباقون السفينة وكان من بينهم الدكتور ساندرز بالطبع . وبقيت وحدى أحاول بصعوبة كبيرة ان انسى مامضى وان انظر الى الامام .
وكانت السيدة الامريكية تأتيني من حين لآخر فقد كان شكلي معروفا وتتحدث الى حديثا رقيقا . كانت سيدة تبدو مثقفة ثقافة دبلوماسية . وكانت على الرغم من التجاعيد التي كانت تحاول ان تخفيها « بالمكياج » تبدو في صحة جيدة . لم تتحدث في شيء غير عادي . وكانت فترات حديثنا قصيرة . وكنت اتعمد ذلك لانني كنت اعيش في دنياى . كنت اتذكر الكتب التي

احضرتها معى وكيف اننى فرحت فرحا شديدا عندما وجدتها قد وصلت الى السفينة باسمى فى الوقت المناسب ، اى قبل ان تغادر الميناء . كنت اعيش فى ثنايا هذه الكتب . واحاول ان اعدها فى ذاكرتى وان اعيد عدها مرارا وتكرارا . كانت كتبا اكاديمية تتضمن المراجع التى اضطررت الى شرائها عندما كنت ادرس موضوعات الدراسة . وعلى الرغم من ان بعضها كان من الناحية الاكاديمية يتضمن المغالطات وربما الخطأ فاننى كنت اعتز بها . ولم انس ابدا الا اننى كنت اتذكر كتب استاذى « البروفسور البرت موريس » فى علم الاجرام وكتاب « ايدون بورز » عن (تجربة فى الوقاية من الجناح) وكتب « كلاكهوهن » وكتب « تالكوت بارسنز » وكتب كل من « ولسن وكولب » و « روث بنديكت » و « مارجريت ميد » و « جرث وميلز » و « كوين وكاربنتر » و « سدرلاند » و « تافت » و « لينتون » و « جيلين » و « مالينوسكى » . وكل هذه الكتب وغيرها كانت مقررة . ومن غير هذه الكتب التى كانت مقررة ايضا كتب « دوركاييم » وخصوصا كتابه المعروف عن « ظاهرة الانتحار » الذى قد قراته باللغتين الانجليزية والفرنسية (لغته الاصلية) ، وكتب « فيلفريدوباريتو » و « روبرت ا . بارك » و « وليام ف . أوجبرن » ، وكانت اهم كتب الاول كتاب « العقل والمجتمع طبعة عام ١٩٣٥ » واهم كتب الثانى كتاب « السلالة والثقافة طبعة عام ١٩٥٠ » وكتاب « المجتمعات الانسانية طبعة عام ١٩٥٢ » واهم كتب الثالث كتاب « التغير الاجتماعى طبعة عام ١٩٥٠ » . وفضلا عن هذه الكتب كنت اتذكر كتاب « الزنجى فى امريكا طبعة عام ١٩٤٨ » لمؤلفه « ارنولد روز » ، وكتاب « الاطفال المحتاجون طبعة

عام ١٩٤٨ » الذى الفته « ميليتا سلميد يربرج » وكتاب (الشباب المتمرد طبعة ١٩٥٥) لمؤلفه « آوجست ايخهورن » وكتاب « وليد القرن طبعة ١٩٥٥ » تأليف « بن هيخت » وكتاب « الامن والشرق الاوسط » وتذكرت كيف اشتريت الكتاب الاخير . كنت مارا أمام احد الحوانيت التى يبيع اصحابها الكتب ، فوجدت اطلانا ضخما من هذا الكتاب ، وقد لفت نظرى عنوانه ، ووجدته عندما تصفحت صفحاته عبارة عن « عريضة » امضى عليها العديد من رجال الكنائس فى مجتمع الولايات المتحدة وغيرهم . وكان عدد هؤلاء الغير قليلا . وتتضمن العريضة التى وجهت الى رئيس الولايات المتحدة الدعوة ضد تسليح الدول العربية . وقد تضمن الكتاب ١٦٩ صفحة : ١٤ منها كتب عليها نص العريضة والباقى عبارة عن حيثيات مملوءة بالمعلومات الخاطئة والآراء الحاقدة التى ان دلت على شىء فانما تدل على التحيز الواضح ضد القضية العربية . ولا يوجد فى هذا الكتاب تاريخ ، ولكننى اذكر اننى اشتريته فى خلال عام ١٩٥٥ وهو من سلسلة « كتب بالنتين » . وكنت وانا على ظهر السفينة وهى تسير عبر المحيط الاطلنطى اتذكر بعض الكتب الاخرى ومنها كتاب « اللاسامية عدو الانسان طبعة عام ١٩٤٦ » وقد قام بتأليفه « جيمس باركر » وكتاب « تاريخ الحرب العالمية الثانية طبعة عام ١٩٤٦ » تأليف « فرانسيس ت . ميلر » بمساعدة ٢٠ . من الخبراء ، وكتاب « قبيلة الانجاس العراة : صائدو الجماجم الآدمية فى بلاد أسام فى وقت السلم وفى وقت الحرب طبعة ١٤٩٦ » تأليف « الدكتور كريستوف فون فوهرر هيميندورف » استاذ علم الانثروبولوجيا وكتاب (التوترات التى تسبب الحروب طبعة ١٩٥٠) تحرير

« هادلى كانتريل » وكتاب « نار فى الرماد طبعة ١٩٥٣ » تأليف « ثيودور هـ . هوايت » وكتاب « حقائق من الارقام طبعة ١٩٥٤ » تأليف « م . ج . مورونى » وكتاب « جذور الثقافة الاميريكية طبعة ١٩٤٢ » تحرير « كونستانس رورك » وكتاب (فن رؤية الفن طبعة ١٩٥١) تأليف « ميبتو مارانجونى » . وبالاضافة الى هذه الكتب كنت اتذكر روايات « همنجواى » و«ثيودور درايزر » و « جون شتينباك » و « آرثر ميللر » . وفضلا عن هذه الروايات كنت اتذكر رواية « المصرى » تأليف « ميكا والتارى » و (من هنا الى الابد طبعة ١٩٥٤) تأليف « جيمس جونز » و « الشياطين والعقاقير والاطباء طبعة ١٩٥٢ » تأليف « هوارد هـ . هاجارد » و (غابة السبورة طبعة ١٩٥٥) تأليف « ايفان هنتر » . وقد مصرت هذه الرواية فيما بعد وحولت الى مسرحية عرضت فى مصر باسم « مسرحية مدرسة المشاغبين » !! ورواية « ايفانهو طبعة ١٩٥٤ » تأليف « وولتر سكوت» ورواية « اللون المحلى طبعة ١٩٥٥ » تأليف « جون اندرو رايس » ورواية « الحائط طبعة ١٩٥٣ » تأليف « جون هيرسى » . كنت فى معظم الاوقات أعيش وحدى وانا على ظهر السفينة ، وكنت أتعمد ذلك . وكنت قد تذكرت هذه الكتب والروايات وغيرها كثير . وقد صاغت هذه المؤلفات بعض أفكارى وفتحت أمامى بعض الآفاق مافى ذلك من شك . وكنت سعيداً بالحصول عليها وعلى غيرها والمذكرات التى كنت أكتبها وانا فى المحاضرات . وبعض النسخ من رسالتى الماجستير والدكتوراه كنت اتذكرها كذلك فقد كانت تمثل عندى قطعة منى او مرحلة من حياتى . ولم تمر عشرة ايام وانا فى عرض المحيط حتى تذكرت زنوج الولايات المتحدة

وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن احضان ذويهم الحانية الى القارة الامريكية . كان الانجليز من اهم تجار « العبيد » . كانوا يبزون الاسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولانديين في هذه التجارة اللاانسانية . وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون ان زنوج افريقيا خير معين لهم في القيام بالاعمال الشاقة في مزارعهم الشاسعة . وتذكرت وانا وحيد في احد اركان السفينة كيف كان الانجليز يقومون بهذه التجارة . تذكرت « تجارة المثلث » حيث كانت تخرج المراكب من ميناء « ليفربول » أو ميناء « برستل » وهى فارغة ، ويقودها القراصنة من التجار الانجليز الذين كانوا يسولون لأنفسهم تجارة البشر ، وتسير المراكب الى ان تصل الى مرساها عند ساحل افريقيا المطل على المحيط الاطلنطى . كانوا يحملون معهم الزجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والاسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة لكى يستبدلوا بها عبيداً من الذين كانوا يجمعون بعد ان يصطادهم الذئاب من التجار ثم يحشدونهم في اماكن تقع على مايعرف الآن بـ « ساحل غينيا » .
وتمثل هذه العمليات الضلع الاول من مثلث هذه التجارة اللعينة . ثم يحشد ماتم استبداله من العبيد في المراكب لكى يعبروا المحيط مرة ثانية في طريقهم الى المستعمرات الامريكية . وتصورت جشع التجار والرغبة في الربح الكبير الذى كان في أعماق أعماق نفوسهم ، تصورت ذلك وانا اعبر المحيط الى بلادى وربما عندما كنت في نفس المكان الذى كانت تعبره المراكب المملوءة من البضائع الآدمية الى احدى المستعمرات في القارة الامريكية . وبتحقيق هذا الهدف يكون قد استكمل

الضلع الثانى من تجارة المثلث . ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التى انتجتها المستعمرات الاميركية ومن أهمها « عسل السكر » نظير مابقى من العبيد حسب اعمارهم ونوعهم وماتبقى لهم من عافية وصحة ، فى نفس المراكب التى كانت تقلع لتذهب من حيث اتت اى الى ميناء ليفربول أو ميناء برستل . كنت اعيش فى هذه الدراما الانسانية المرعبة ساعات وساعات وكنت اتصور انني كنت واحدا من هؤلاء العبيد واحاول ان اتخيل التجربة او التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر . كنت اشعر بأن شعر رأسي يكاد ان يقف فزعا ورعبا واشمئزازا . وقد تملكتنى فى ذات يوم وانا على السفينة افكار سوداء عن الانسان وكيف يكون وحشا كاسرا نظير الربح الزائل حتما مهما طال به الزمان . وسرعان ماتذكرت ابناء وطنى الذين كانوا مقهورين فترة طويلة جدا من الزمان . ومع كل ماعانوا وقاسوا بقوا حتى الآن يحافظون على الارض الطيبة . وهاهم اليوم يحاولون أن يرغموا ، وهم مصرون ، الانجليز المعاصرين احفاد القراصنة وتجار العبيد ليكونوا آخر المستعمرين لهذه الارض الطيبة . ودعوت الله فى سرى ان يحقق هذا الامل الكبير . وعلى الرغم من انني كنت احاول ان انسى بعض مامضى فى اثناء وجودى فى مجتمع الولايات المتحدة ، فاننى تذكرت فجأة « الشجرة » التى كنت اشاهدها من نافذة حجرتى على مدار فصول السنة . كنت أسعد بالقاء تحية الصباح لها بنظراتى . فقد كانت انيسي الوحيد . ومالبثت أن تذكرت ماحدث لها عندما قام « اعصار » وخلعها فى شتاء ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ خلعا . لقد اتلف هذا الاعصار العنيف اشياء كثيرة ودمرها ، ومنها مبنى احدى

الكنائس المجاورة ، ولكنني تذكرت وانا في عرض المحيط الاطلنطي ، والسفينة التي كانت تقلني تسير قدما نحو مصرنا الخالدة ، كم حز في نفسي ماحدث « لشجرتي » . انني وانا اكتب هذه السطور لا اباهي برقة عواطفي ولا احاول ان اقلق القارىء بمشاعري الذاتية ولكنني احاول جاهدا ان اكون صادقا مع نفسي ومع قارئي . لقد كان تدمير الشجرة التي كنت اراها يوميا لحظة ان افتح عيني صباح كل يوم طوال ثلاثين شهرا او ربما اكثر من ذلك ، تدميرا لبعض ماكنت اعتز به واتعزى في ضوء الظروف التي كنت اعيشها في خلال تلك الفترة ومابعدها . وسرعان ماتركت هذه الحقائق السوداء التي تضمنتها مرحلة من حياتي ، وبادرت احتضن ذكرياتي عن بعض كتبي التي تقبع في قاع السفينة التي اعيش ، في غضون شهر مايو عام ١٩٥٦ - عليها مرحلة اخرى من حياتي . كنت وانا في « مدينة لندن » اتوق لكي ابتاع « الموسوعة البريطانية » المعروفة، ولكن النقود لم تكن تكفي . وكنت امني نفسي بأن افعل ذلك يوما ما . فأنا ارى ان الموسوعة تتضمن افكار الصفوة من علماء الانسان ومشاهير الزمان الذين صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق عمل نافع او الذين صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق الدمار واظهروا بجلاء صورا عديدة من انانية الانسان . كنت اتصور الموسوعة وهي بمجلداتها قابعة على « الرف » في حركة دائبة . فقد كنت كلما مررت عليها في مكتبة الجامعة اسمع همهمات ومالبثت ان تصبح همسات ثم صيحات . وكان يخيل الي ان المفكرين الذين دونت افكارهم على صفحاتها قد انتصر بعضهم لبعض او اخذ بعضهم بتلابيب بعض . واذ اصارح القارىء فقد كانت امنيتي

ان يكون لي موسوعة تزودني بالافكار واقرأ من خلال سطورها الخبرات على اختلافها سواء اكانت تتعلق بالانسان ام كانت هذه الخبرات تتعلق بالنبات او الحيوان او بالارض او بالفضاء . وهاندا وانا فى عرض المحيط الاطلنطى على السفينة بعد ان سارت سيرا متواصلا خمسة عشر يوما اتذكر بالفرحة واللهفة أن من بين كتبي « الموسوعة العالمية المستوى » الاميريكية التى اشرف على تحريرها « البروفسور جوزيف لافان مورس » وتحتوى على ٢٥ مجلدا بالتمام والكمال . وقد كانت طبعة هذه الموسوعة التى تزدان بها كتبى هى الطبعة الاخيرة في ذلك الحين ، وهى طبعة عام ١٩٥٥ ، ثم ما لبثت افكارى ان تداعت وتذكرت كتاب « فلسفة كان طبعة عام ١٩٣٥ » الذى ترجمه « س . ك أوجدن» عن النسخة الاصلية التى الفها « هـ . فيهينجر »وكتاب (الموسيقى للجماهير طبعة عام ١٩٤٧) لمؤلفه « سيدنى هاريسون » وكتاب « عادات واعراف المصريين المحدثين طبعة عام ١٩٥٤ » لمؤلفه « أدوارد وليام لين » وكتاب (الاسهامات البريطانية فى الدراسات العربية طبعة المجلس البريطانى لمؤلفه « برنارد لويس » وكتابى « الياتكيون والاله طبعة عام ١٩٥٣ » و « سجلات تاريخ الشعراء طبعة عام ١٩٣٥ » تأليف « شارد بورث سميث » . وقد ذكرت من قبل عن مقابلتى للمؤلف فى « مصيف روك بورت » وكان معنا « الدكتور موريس ساندرز » وكنا نحن الثلاثة فى ضيافة احدى السيدات الاميركيات الثريات . وسرعان ماوجدت نفسى امام فيلم سينمائى يحكى سيناريو هذا اللقاء . كان هذا المؤلف هو المتحدث الاعلى صوتا فى هذا اللقاء . وكان ، على الرغم من انه من حيث السلالة كان مزيجا امريكيا

انجليزيا كما ذكر في كتابه « اليانكيون والاله » وانه كان يعتبر نفسه وهو يزهو ويفتخر « يانكيا » ، يتحدث لا بفمه فقط بل بكل اعضاء جسمه . وقد تحدث هذا الكاتب احاديث شتى اذكر منها عن « مذبحـــة الزنوج المسيحيين » كما كان يسميها . فعلى الرغم من ان هؤلاء الزنوج قد اتخذوا من الدين المسيحى وجاء وحماية فان هذا لم يمنع من ذبحهم في احدى الفترات التاريخية في احدى ولايات « انجلترا الجـــديدة » . وتنوعت احاديث شارد بورز سميث وتشتت ولكن موضوع هذه الاحاديث المفضل كان عن « البيوريتانز » « اى المتطهرين » الذين كانوا منذ هروبهم من انجلترا ووصولهـــم الى « انجلترا الجديدة » في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر يطالبون بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة . كان يراهم سميث أنهـــم كانوا ومازالوا عقل « انجلترا الجديدة الكبرى » الذى اصبح يسود على عناصر المناخ الثقافى الاجتماعى لمساحة من ارض الولايات المتحدة تضم حوالى ٦٥ مليونا مـــن السكان ، اى من ساحل انجلترا الجديدة « الاولى » الى ساحل المحيط الباسيفيكى . وسرعان ماضقت ذرعا بهذه الاحاديث وتركتها لانظـــر الى الامام الى مصـــرنا الخالدة . وتذكرت توا « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » التى اسعدنى الحظ وشاركت فى تأسيسها فى عام ١٩٤٧ وساءلت نفسى وانا على ظهر الســـفينة وهى تسابق الريح ويحاول أن يسبقها الريح ماذا فعل الله بهذه الجمعية ؟ وكنت اعلم ان السيدة الزا ثابت « المدبرة » فى أوروبا تقضى بعض الوقت مع ذويها فى سويسرا ، الواقع اننى اذ اذكر الجمعية فلابد ان اذكر السيدة الزا فهى الروح المحركة لها فى ضوء نشاطهـــا

الدائب وارادتها الفولاذية . ولست وحدى الذى يفعل ذلك فكل من يذكر جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق لابد أن يذكر السيدة الزا . وساءلت نفسى مرة اخرى ماذا فعل الله بهذه الجمعية فى غياب السيدة الزا ؟ وكنت متفائلا وامنى النفس بأنه عند عودتى الى القاهرة الحبيبة استأنف نشاطى فى هذه الجمعية . وتذكرت كيف جاءت فكرة تأسيسها وكيف نفذت هذه الفكرة ، والخطوات التى سارت فيها الجمعية من أجل تحقيق رسالتها التى تبلورت بمرور الزمن ، أى بعد مرور حوالى تسعة أعوام على تأسيسها . وتفاءلت على الرغم من المعاناة التى كنت أشعر بها فى ذلك الحين ، معاناة الوحدة ومواجهة المستقبل المجهول . كنت أشعر على الرغم من نور المعرفة التى استقيتها فى بلاد العم سام اننى فى ظلام دامس . وهاأنذا اتذكر الجمعية فينبثق بصيص من النور يبدد هذا الظلام الدامس . اننى إذا عدت سالما سأستأنف جهادى المحبب فى سبيل تكوين بنات مصرنا الخالدة وابنائها من سكان حى بولاق . وكنت اقول لنفسى ان هذا اذا تحقق فاننى سأكون قد حققت واحدا من الهدفين اللذين كرست لهما حياتى . أما الهدف الثانى فقد كان كما يعلم القارىء البحث عن حقيقة او حقائق المجتمع المصرى المعاصر . وكنت اقول لنفسى اننى وقد تأهلت علميا وعمليا من اجل تحقيق هذين الهدفين فلا معاناة بعد اليوم . وحتى اذا صادفت هذه المعاناة فى المستقبل القريب او البعيد فاننى فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة لابد أن ارتفع بنفسى فوق امواجها العاتية او حتى غير العاتية . اننى كنت وقد قربنا من « ميناء نابلى » اعيش فى خضم هذه الامنيات المشرقة وذلك على الرغم من اننى كنت أعلم

علم اليقين بانه لامكان لى فى وزارة من الوزارات او فى مصلحة من المصالح الحكومية . فقد فعلها عباس عمار الوزير او الذى كان وزيرا لوزارة الشئون الاجتماعية ورفتنى من وظيفتى الحكومية بحجة اننى اخذت اجازة بدون اذن لمدة اكثر من خمسة عشر يوما . اى على الرغم من اننى عندما اعود الى القاهرة الحبيبة لن اجد لى منصبا . وقلت لنفسى « الارزاق على الله » وانه « لن يعدم الاسد أن يجد فريسته انى ذهب » . عبارة قالها « جمال الدين الافغانى » عندما اضطر لكى يترك مصرنا الخالدة منفيا وابى ان يتفضل عليه احد بشىء قبل ان يبرح البلاد . تمثلتها وانا اعلم علم اليقين اننى احد تلاميذ تلاميذ تلاميذ جمال الدين الافغانى . ولكن نحن شباب مصر فى ذلك الحين كان لنا من امثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الله النديم والشهيد محمد عبيد وغيرهم ، واكثرهم لم نرهم فى حياتهم ، قدوة حسنة . وقبل أن نصل الى ميناء نابلى وكانت السفينة قد سارت فى المحيط الاطلنطى عشرين يوما وواحدا ، اخترقت السفينة بوغاز « جبل طارق » . ولم تكن المرة الاولى التى مرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز . فقد مررنا ونحن ، الركاب وانا ، ذاهبون فى عام ١٩٤٨ الى المملكة المتحدة ، ومرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز مرة ثانية ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا فى عام ١٩٥١ الى المملكة المتحدة ايضا . وهذه هى المرة الثالثة التى تمر السفينة الاتية من مدينة نيويورك ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا الى البحر الابيض المتوسط ليذهب كل منا الى حال سبيله . وكان حال سبيلى مدينة الاسكندرية عروس هذا البحر . وفجاة تذكرت فى ضوء

خبراتى المتجددة تاريخ الاندلس منذ ان فتحها العرب المسلمون فى عام ٧١٠ ميلادية . تذكرت الامجاد وتذكرت المحن ، اقصد امجاد هؤلاء العرب المسلمين ومحنهم . وتذكرت انه لم يأت عام ١٤٩١ ميلادية حتى كان نزيف المحن الذى سببته جراح اعداء الدويلات العربية فى الاندلس قد بلغ بهذه الدويلات نهاية المطاف . لقد دام حكم العرب المسلمين فى الاندلس نحواً من ثمانية قرون . الاندلس هذه ، كانت قد اصبحت مهجراً لعديد من القبائل العربية ، وكانت قد شهدت حركة « تعريب » نموذجية وعملاقة ، وكانت قد تحولت الى مايشبه الجامعة الفكرية والمنارة العلمية التى تتلمذت عليها قوى اوروبا الجديدة ، كما ذكرت سابقا ، التى قادت عصر البعث والاحياء . وقد تم هذا الانتصار وقد تذكرت ذلك وانا استعرض هذه الامور فى ذهنى ، مع الاسف الشديد ، لحساب غلاة الرجعيين فى الكنيسة المسيحية ، وكانت بحور الدم الانسانى التى جرت بدافع اعاصير الحقد الاسود والجهالة وسوء التقدير ، وكانت اداة سفك الدماء الزكية محاكم التفتيش التى اغرقت ظلما وعدوانا ليس فقط كل العرب الاندلسيين بل كذلك حضارتهم الانسانية فى الاندلس . وفى ضوء تلك الظروف العاتية لم يستمر تطور أنوار العلوم على اختلافها بل على العكس يذكر التاريخ ان آثار « العلامة ابن خلدون » ، مثلا ، كانت معلومة فى الاندلس فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن من المؤكد انه لم ينتقل شيئا من ابن خلدون عن طريق الاندلس ، ويرجع ذلك على حد قول ، كما اذكر الان « البروفسور ناتانيل سميث » الى احراق الكتب العربية عند اجلاء العرب عن الاندلس فى عام ١٤٩١ ميلادية . اذ من

المعلوم ان « الكاردينال كسيمنس — Can Fessor —
« الملكة ايزابيلا » كان قد امر باحراق الكتب العربية عام ١٤٩٩ ميلادية ، عندما بدأ حملته الشرسة لابادة كل ماهو عربي فضلا عن ابادة كل من هو مسلم سواء كان من سلالة عربية او كان من سلالة اسبانية . تذكرت كل ذلك واكثر . وكان وقع ماتذكرته أليما . وكانت دهشتي عظيمة عندما لاحظت انني تذكرت في المرة الثالثة عندما مرت السفينة التي كنت اركبها ببوغاز جبل طارق . طبعا انني كنت اذكر في كل مرة « طارق ابن زياد » قائد العرب ، كما كنت اذكر كلمته المشهورة. ولكن التفاصيل فيما يتعلق بمحنة العرب في الاندلس ووقع هذه التفاصيل في نفسي وآثارها التاريخية والثقافية الاجتماعية والسياسية لم اكن اعيرها التفاتا . وبدا لي ان اهتمامي بهذه الامور في المرة الثالثة كان دليلا على مستوى النضج الفكري الذي وصلت اليه . او لعل ذلك كان يرجع الى التجارب التي مررت بها وانا في الولايات المتحدة وبخاصة ماتعلق منها من موقف حكومتها وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي على رأس حكومات الغرب الاوروبية وبعض الحكومات الاخرى التي كانت تمد يدها الى حكومة الولايات المتحدة وهي تستجدي عن طريق « مشروع مارشال » أو « مشروع النقطة الرابعة » . وكان هذا الموقف ، الذي ارجو ان لا يخفى على القارىء ، موقف الذي كان يرى بحق أو بغير حق انه اولى بأن يرث المستعمرات أو ما يشبه المستعمرات التي كانت تحت نير دول أوروبا ، وان يكون كلمته في هذا العالم هي العليا .

وبينما كنت في خضم هذه الذكريات اخوضها ، فوجئت بالسيدة الامريكية العجوز المتصابية ، زوجة

الرجل الذى قيل عنه انه يصحبها والذى لم اره طوال هذه الفترة ولم اعرف شيئا عنه الا أنه رجل يحيط به الغموض ، وقد جاءت الى وهى تحمل « كارتا » لايوجد فيه سوى أسم زوجها وقالت لى ان هذا الكارت من زوجها وهو جواز مرور الى السفارة الاميركية بالقاهرة اذا رغبت في ان اذهب اليها طالبا شيئا ما انا فى حاجة اليه . وقد اخذت منها الكارت ونظرت اليها نظرة عاجلة وشكرتها ، وذهبت وكأن المحيط قد بلعها فلم ارها بعد ذلك ابدا . ولما كنت قد تركت الولايات المتحـــدة فى حالة نفسية وعقلية ووجدانية لم اكن احسد عليها ، فقد مزقت الكارت قطعا صغيرة ورميتها فى البحر الابيض المتوسط . وانا حتى اللحظة الحالية لا اذكر ما الذى كان مكتوبا على هذا الكارت . ولا اذكر اسم الزوج الغامض ولا اذكر ان كانت مكتوبا عليه هويته او اى شىء آخر . ان كل ما اذكره ان حجم الكارت كان حجما غير عادى . فلم يكن مثل حجم الـــكروت العادية التى يحملها من كان مثلى . ولست نادما على مافعلت ، بل على العكس كنت وانا أمزق الكارت وكأننى كنت امزق الخداع والنفاق والقوة العنيفة اللاانسانية والافكار السوداء التى تجد مكانا فى المناخ الثقـــافى الاجتماعى فتفرق بين الانسان واخيه الانسان وتجعل من الانسان سيدا احيانا ومن الانسان عبدا احيانا أخرى ، ومع ذلك يحس الانسان منا ان هذه السيدة وزوجها ومن على شاكلتهما يرون انهم احسن الناس واعظمهم . تراهم يرون ثقافتهم انها احسن الثقافات وانها فى كل لحظة موضع اعجابهم وافتخارهم . وهم اذ يدعون الى الحرية والديمقراطية او الى المساواة فانك تحس احساسا صادقا ان هذه الدعوة مزيفة وان القيم التى من ورائها

قيم هشة تنفر منها قيمنا المصرية التي مهمـــا كانت الظروف فهي تحرص على كرامة الانسان بصرف النظر عن لونه او عقيدته . واذا كنا نحن المصريين نحرص على الاصالة فان امثال هذه السيدة وزوجها الغامض الذى عاش معنا على السفينة ولم يره احد ، وكأنه الخفـاش الذي لا يظهر الا في الظلام ، يحرصون على كبر الحجم والفخامة والفردية وكرامة المال والاغنياء . فالمال بكل صوره ومهما كان مصدره علامة عندهم على النجاح في الحياة . واذا كنا نحن المصريين نرى ان « أستاذ الجامعة » رجل ناجح فهو يعتبر عندهم رجلا فاشلا اذا ماقورن برجل الاعمال عندهم او حتى اذا قورن بسائق «اللوري» الذى يحصل عادة على دخل مالي أكبر من الدخل المالي الذى يحصل عليه استاذ الجامعة عندهم . وفجـــأة تذكرت ماقيل لي عن احد الفنادق فى « ولاية فيرمونت » احدى ولايات انجلترا الجـــديدة الذى كتب على بابه بالخط الواضح « ممنوع دخول الكلاب واليهود » . تذكرت هذه الواقعة وانا والدبن على السفينة على بعد مسيرة ليلة واحدة من ميناء نابلى . وتداعت ذكـريـاتي عن خبرتي عن هؤلاء اليهود . وهي خبرة بالضــرورة محددة سواء أكانت خبرة نظــرية أم خبرة واقعية . وتداعى هذه الذكريات جاء كنتيجة مبـاشرة لتسلمي كارت زوج السيدة الاميركية التي حرص دكتور موريس ساندرز ان يقدمني لها او يقدمها لى ، وانا لا اذكر ايهما الآن اى وقت كتابة هذه السطور ، عندما فاجـــأني بحضوره على سطح السفينة لوداعي قبل ان تقلع ، وانا اغادر مجتمع الولايات المتحدة نحو بلادى ، بوقت قليل . كان الكارت ومايحمل من مغزى السبيل الى ان اتذكر مساوىء مجتمع الولايات المتحدة العديدة . وكـــان

السبيل ايضا الى تذكر ماحصل ليهود هذا المجتمع من نفوذ في ميادين المال والصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما وبعض الكليات ومنها كليات الخدمة الاجتماعية مثلا . تذكرت واقعة دعوة البروفسور موريس لى الى تناول الشاى مع بعض الاشخاص الذين بدا لى ، بعد ان حدث ماحدث وذكرته قبل ذلك ، ان نصف عددهم وربما اكثر من ذلك كانوا من اليهود والصهاينة ، وتذكرت ماذكره لى البروفسور موريس من ان رجال المال من هؤلاء اليهود في مدينة بوستن لكى يزيدوا من «الكوتا» بالنسبة للطلبة اليهود واساتذة الجامعة مثلا كانوا يتبرعون سنويا للجامعة بالمال الكثير الذى قد تبلغ قيمته مليون دولار . وكانوا يتبرعون للجامعة بتكاليف بناء معبد لليهود فى حرم الجامعة اسوة بالكنائس الموجودة بالحرم وربما بما يزيد على هذه التكاليف . وتذكرت هؤلاء اليهود الصهاينة فى فصول الدراسة بالجامعة وفىمحيط الطلبة على الرغم من قلة عددهم نسبيا . تذكرت الاساتذة الذين كانوا يتعمدون نفاقهم والتقرب منهم . وتذكرت ماكان فى رأيى أفدح عندما دفعنى حب الإستطلاع أفتح الحجاب الذى كانت أمى تحرص على ان البسه فوق ملابسي الداخلية وثرت على ذلك عندما ذهبت الى المدرسة الابتدائية وبدأ التلاميذ بقيادة مدرس الالعاب الرياضية بالمدرسة اول فصل للالعاب الرياضية وخجلت من ان يرانى التلاميذ بعد خلع ثيابى وانا البسه فصممت على خلعه الى الابد . وبعد مرور الايام وعندما كبرت فتحت هذا الحجاب لارى مافيه ، وقد دهشت لاننى رأيت « نجمة داود » مرسومة فى ثناياه مرتين . وقد رسمت هذه النجمة على الغلاف الموضوع فيه الحجاب مرتين ايضا . وقد ذكرنى ماقرأت عن ذلك فى كتاب « منبع

اصول الحكمة للبونى » الذى يشتمل على اربع وسائل مهمة فى اصول العلوم والحكمة ! تأليف « الامام ابى العباس احمد بن على البونى » المتوفى سنة ٦٢٢ هـ « ١٢٢٥ م » ، ومن هذه الرسائل شرح ما يسميه « الجلجلواتية الكبرى » ولها طريقتان : الصغرى والكبرى . وقد تضمنت الطريقة الكبرى ٣٦٦ بيتا من الشعر . ويعتبر البونى هذه القصيدة دعوة مباركة وبها يتصرف الطالب فى كل مايرومه من خير وشر وخواصها لا تحصى وتصاريفها لا تستقصى وهى تبدأ بخمسة ابيات من الشعر كنت مازلت احفظ نصها وهى :

بدأت ببسم الله ربى ومالكى
مطالع اسرارى بسرى أعلنت
فأسماؤها العظمى بها الروح تهتدى
الى سر أسرار بباطنها انطوت
وصليت ياربى على اشرف الورى
محمد المبعوث للخلق عممت
وافضل مخلوق وخاتم رسلها
بسيفك قد زاح الضلالة والفلت
صلاة وتسليما عليه وآله
وصحب وكل التابعين ومن حوت

وتنتهى بخمسة ابيات من الشعر كنت أيضا مازلت احفظ نصها وهى :

فيا قارىء الاسم المعظم قدره
عليك بتقوى الله تنجو من الفلت
بها العهد والميثاق والوعد والوفا
وبالمسك والكافور والند ختمت
وابيات شين وشين تشفعت
بها الاسرار عظام تجمعت

وبعد فصــــل الله ربي دائمــــا
على المصطفى ما طار طير وغــردت
وآل وأصــحاب كــرام أئمــة
بهم زالت الاكدار عنــا وزحزحت

وكان البوني في كتابه هذا يشرح ابيات قصيدة الطريقة الكبرى المشار اليها ويبين آثارها كعقيــدة تتلى بعد حفظها او بعد تلاوتها ، وكان يرى حفظها اولى وانفع . ومن هذه الاثار ، وهذا ماكنت قد تذكرته قبل ان نصل الى نابلي بساعات ، انك اذا اردت ان تطــرد الجن من بني آدم فاطلق بخور اللبان الذكر والجنـاوي ونوى الخرنوب واقرا القصيدة سبع مرات فان الجن يرحلون من تلك البقعة ولا يعودون اليها ابدا . واذا أردت تسليط الجن على غريب فاكتب مثمن « حجـاب » على قطعة من الحرير الاحمر واكتب حوله توكيلا للخـدام بما تريد فعله للغريم مع اسمه واسم امه واقرأ القصيدة ثلاث مرات ثم اجعلها في مكان ضيق مظلم فانهم يتبعونه بالاذى حتى يموت فاتق الله تعالى ! كنت اقــرأ هذه الكتب وانا اعلم انها لاتساوي الحبر الذي كتبت به ولكن كان حب الاستطلاع يتملكني ، ولم اكن اعلم شيئا كثيرا او قليلا عن « النجوم » التي كانت تملأ الاحجبة المنشورة في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب المماثلة . وقــد تذكرت بهذه المناسبة احد عشر بيتا من القصيدة تعتبر سر « قسم البرهتيه » وهو القسم المعول عليه من قديم الزمان ، وكان القدماء يسمونه بالعهد القديم والميثاق العظيم والسر المصون والكنز المخزون والعهد الاكــبر والكبريت الاحمر . تكلم به الحكماء الاول ثم « السيد سليمان بن داود » عليهما السلام ثم « آصف برخيائم الحكيم قلفيربوس » ثم من تتلمذ له الى يومنا هذا ! وهو

قسم عظيم لا يتخلف عنه ملك ولا يعصيه جنى ولا عفريت ولا مارد ولا شيطان وكل طالب لم يكن عنده هذا القسم او لم يكن له علم به فعلمه اجذم . كنت أتذكر هذا كله وانا في ضوء عقيدتي لا اصدقه . ولكن حب الاستطلاع كان لدي قويا فما أن وقع في يدي كتاب البوني الا وجدتني أكاد احفظ مافي كل صفحة فيه . وكان هذا الكتاب ضمن مكتبة جدي لابي « الشيخ احمد عويس » الذي انتهى الى ابن عمي محمود شقيق أبي « عبد المنعم » . فأخذت أطالع مافي الكتاب وكنت مازلت في المدرسة الثانوية ونجحت في حفظ القصيدة المشار اليها « ٣٦٦ بيتا » عن ظهر قلب . وهأنذا اتذكر بعض ابياتها وبعض آثارها وبخاصة ماتعلق بالاحد عشر بيتا التي كانت تعتبر سر « قسم البرهتيه » التي كانت تتضمن اربعة وعشرين اسما منها اسم « غياهاكيدهولا » الذي كما يقول البوني في كتابه ان من خواصه ان من كتبه مائة مرة مع قوله تعالى « والق مافي يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » (٢٠ ك طه : ٦٩) ، وقوله « قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين » (١٠ ك يونس : ٨١) حروفا مفرقة حول « وفق » معين مرسوم فيه ثلاث من نجمات داود ، فاذا حمل الشخص هذا الوفق وكان مسحورا بطل عنه السحر ومن اراد الوصول التام الى ماوصل اليه السادة الاخيار فليختل تماما بشروط الخلوة ويكثر من ذكر اسم « غياهاكيد هولا » فانه يحصل مايريد ! وانا الآن اذ اكتب هذه السطور بعد مرور اكثر من خمسة وعشرين عاما لم اكن ادرك مدى تغلغل هذه الافكار التي لايقرها الدين الخالص ولا العلم في ضوء منهجه والمعرفة التي

تصل الى الانسان عن طريق تطبيق هذا المنهج . ولم اكن ادرك السموم التى كانت تتغلغل فى نفوس قارئى مثل كتاب البونى دعك ممن كانوا ولا يزالون يؤمنـون بما فيها . صحيح انني فى ضوء تربيتى الدينية الصحيحة على يد استاذى صاحب الفضيلة الشيخ محمود خطاب قد تطهرت او كدت ان اتطهر من هذه الترهات ، ومع ذلك فقد كان هناك مايوحي من تصرفات هذا الاستاذ الكبير وبعض اتباعه من المشايخ بأن قراءة « الاوراد » وان تغير مضمونها كانت مسألة حتمية على المـريدين ان يقوموا بها . ومهما يكن من الامر فاننى الان وليس قبل ذلك أرى ان « التحدى » الثقافى اليهودى بين شعوب قراء اللغة العربية والمسلمين منهم بخاصة قد بدأ منذ عهد قديم جدا ، وان هذا التحدى كان يهدف الى ان يسدل الغشاوة تلو الغشاوة على عقول هؤلاء ومن يلوذون بهم او يحترمونهم ويطلبون منهم العون . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى اذ ذكرت موضوع تغلغل هذه الافكار التي لا يقرها الدين الخالص ولا العلم ، فاننى أقصـد بالعلم هنا « العلم العصرى » وليس كما يدعى الدجالون من أمثال البوني بأن مايسطرونه هو علم ايضا يسمونه « علم السميا » والمعروف ان لفظ السميا أصله « شيم » وهو لفظ عبراني « معناه اسم الله تعالى » . وكان ركاب السفينة على مشارف ميناء « نابولى » فذهب من ذهب منهم يستطلعون ، وبقيت وحدى لا ابرح مكانى فتذكرت الفترة التى قضيتها فى « كوم امبو » ، وتذكرت مقابلتى للدكتور « هيرمان مانهايم » فى لندن وماحدث فيها ونتيجتها ووجدت نفسى ابتسم ساخرا . وقفز الى ذهنى ماقرأت عن العالم « البرت انشتين » فى كتاب « فؤاد صروف » عن (اساطين العلم الحديث طبعة عـام

١٩٣٦ » الذى كان مقتنعا بوجوب خدمة « القضية اليهودية » وانتهى به الامر وهو العالم العالمى العبقرى الى ان تصبح « النزعة اليهودية » فى نظره حقيقة حية . ولعل انشتين وغيره من عباقرة اليهود في فروع المعرفة المختلفة : في الموسيقى وفي الفنون التشكيلية وفى العلوم الطبيعية والكميائية والعلوم الانسانية وغيرها وغيرها ان يلتمس لهم العذر فى ان ينحازوا وهم اليهود الى قضيتهم . وانا فى حدود خبراتى المحدودة لا يمكن الا ان اتذكر الافلام التى اظهرت وحشية « هتلر »واتباعه فى حرق اليهود بالجملة نساء ورجالا وشبابا واطفالا . والمجازر التى لاقوها فى خلال التاريخ لا تعد ولاتحصى . ولعل « قصة الحائط طبعة عام ١٩٥٣ » الذى الفها « جون هيرسى » ان تؤرخ بعض ماعاناه يهود « وارسو » الذين كانوا يعيشون فى « حارتهم » فى مدينة « وارسو » ببولاندا في اثناء الحرب العالمية الثانية . لقد سجل جون هيرسى فى هذه القصة الشجاعة ودفء المحبة فضلا عن الروح التى لا تقهر التى تحلى بها اهل « حارة اليهود » هؤلاء وهم يتحدون الموت وجها لوجه . إن اليهود كشعب قد عانوا مافى ذلك من شك ، وعبقريوهم قد ساعدوا الانسان لكي يتسلط على الطبيعة وعلى المجتمع مافي ذلك من شك أيضا . ولايمكن الا ان اذكر « الدكتور زالنجر » احد اساتذة « قسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا » فى كلية الاداب بجامعة بوستن وهو يشرح لنا عن مآثر كل من « دوركيم » و « ماركس » و « فرويد » فى ميدان العلوم الانسانية ومحاولاتهم لفهم ليس فقط الظواهر الانسانية او المواقف الاجتماعية ولكن ايضا انماط السلوك البشرى . كان يقارن كل واحد

نغيره ويظهر النقص في ماحاولوا ان يصيغوا من نظرياتهم كما كان يظهر بوضوح وجلاء الاسهامات الرائعة التي اداها كل واحد منهم في هذه الميادين . ان زالنجر كان يهوديا وان العلماء الذين كان يقارن بعضهم ببعض كانوا من اليهود ايضا . وكان استاذا امينا . ولعله ، وهذا من حقه ، اراد أن يفاخر ببني عقيدته أو جنسه . ومع ذلك فكنت تراه منصفا عادلا . ذكرت ذلك وانا آكاد اري ميناء نابلي راي العين ، ولكن زالنجر ذكرني باحد الاساتذة الزائرين وكان هندي الجنسية ويحاضر في كلية اللاهوت بجامعة بوستن .وكان هذا الاستاذ الهندي على عكس زالنجر ، فقد علم بانني مصري مسلم وطلب مني الحضور الى احدي حلقات البحث التي يشرف عليها ، وكانت تتناول موضوع « القرآن الكريم » وانا شخص لاادعى ولم ادع ولن ادعى انني اعلم اكثر من الذين على شاكلتي من القرآن الكريم . كنت ارى في نفسي وانا لا اتواضع باء العارفين . فلم تكن علوم القرآن من علوم التفسر والفقه واسباب النزول أو حتى التلاوة والحفظ وغير ذلك من اختصاصاتي . ولكني مررت في اثناء رحلتي العمرية بفترة كنت أحاول ان اتعمق قليلا في هذه العلوم لكي اكون على بينة من امرها ولكي اعرف الغث منها والثمين ، كانت أهدافي التي حاولت أن احققها ، ولاازال ان أعرف الدين الاسلامي الخالص . وما ابعدني من تحقيق هذه الاهداف وما اصعب هذا التحقيق . وذهبت إلى حلقة البحث في الموعد المحدد وكان الكتاب الذي بين يدى الاستاذ المشرف هو « معنى القرآن المجيد طبعة عام ١٩٥٣ » ترجمة تفسيرية ل « محمد مار ماديوك بيكثول » . كان هذا الكتاب باللغة الانجليزية ، وكنت قد بادرت بشرائه عندما عرض للبيع . وكان الكتاب

يحتوي فضلا عن الترجمة التفسيرية على سجل بالسور وهل هي مكية او مدنية ورقم الصفحة التي تشير اليها في متن الكتاب ، وكان يحتوي هذا الكتاب ايضا على فهرس عام بالموضوعات الهامة التي تناولها « القرآن الكريم » وارقام السور وآياتها التي تدل عليها . ومن هذه الموضوعات نجد الطفولة والزواج والطلاق والعبادات وما يتعلق بموضوعات التشريع بعـــامة وغيرها مـــن الموضوعات التي تهم الباحث . وعندما ذهبت الى حلقة البحث لم اكن اعرف ماذا يراد مني ومن ثم فانني لم احضر معي هذا الكتاب او غيره من الكتب التي تهتم بالدين الاسلامي ، واعتمدت على ذاكرتي وخبرتي اذا ما وجه الى سؤال ما وانا بين الطلبة الذين كانوا يجلسون حول الاستاذ المشرف . وسألني الاستاذ عن موضـــوع حقوق المرأة في الاسلام كما تنص عليها آيات القـــرآن الكريم . وكان هذا الموضوع مدونا في الكتاب الذي بين يديه بالفهرس العام . ولما كنت لم اسعد بتجربة حفظ القرآن كله باللغة العربية وانما حفظت منه بعض الاجزاء ، التي لا اجرؤ على ترجمة آية من آياتهـــا الى اللغـــة الانجليزية ، فانني طلبت من الاستاذ المشرف ان يعطيني الكتاب الذي في يده لاطلع على الفهرس لكي اقرأ على الحاضرين كل الايات المتعلقة بموضوع الســـؤال . ولدهشتي وجدت أن سجل السور والفهرس العـــام بالموضوعات الهامة التي تناولها القرآن الكريم قد أزيلا من الكتاب . واستفسرت عن سبب ازالتهما فلم ينطـق الاستاذ بكلمة ، وذكرت له وللطلبة ان كتـــابي الذي اشتريته به هذا السجل وهذا الفهرس وانه بغيرهمـــا لا يستطيع احد التعرف على الاجابة باللغة الانجليزية التي ترغبون في الحصول عليها واقترحت تأجيل هـــذه

الاجابة الى موعد آخر يحدده الاستاذ المشرف لكى احضر معى كتابى « السليم » فوعد الأستاذ بأن يجيب هـذا الاقتراح ولكنه لم يفعل . وهنا كان الفرق عندى بين زالنجر « اليهودى » وبين الاستاذ المسـيحى الزائر « الهندى » الذى كان يحاول تشويه الحقائق عن عمد وذلك باعاقة الباحث عن الوصول الى هذه الحقائق كما هى . وكان ماحدث وما كان يحدث مما ذكرت من قبل دروسا أفدت منها الكثير . وتأكد لى انه اذا كان العلماء فى ميادين العلوم المادية على اختـلاف عقـائدهم وايديولوجياتهم يتفقون ، فان العلماء فى ميادين العلوم الانسانية ينتظرهم وقت طويل لكى يتفقوا . وهذا لا يعنى ابدا ان نسلب حق هؤلاء العلماء فى أن يتباينوا ؛ ولكن المحك فى التباين لابد أن يكون فى ضوء تطبيق المنهج العلمى والافادة من ادواته فى جمع الحقائق على أسس سليمة . أن العالم المتخصص فى العلوم الانسانية قد يختار موضوع بحثه فى ضوء ايديولوجية معينـة وعندما يفسر نتائج هذا البحث قد يفسرها فى ضـوء ايديولوجية معينة ، ومع ذلك فان العبرة فى الافادة مما وصل اليه من تفسير . ويقصد بالافادة هنا الوصول الى التغيير المرجو . والعالم اذا كان متخصصا فى العلوم المادية او اذا كان متخصصا فى العلوم الانسانية عليه أن يتبع آداب المهنة فيكون حريصا كل الحرص على الوصول الى الحقيقة ويكون أيضا حريصا كل الحرص على ايصالها الى الآخرين ، وان يكون امينا عندما يرجع الى مراجع من سبقوه وعند عرضه لما وصل اليه من نتائج .

ووصلت السفينة الى ميناء نابلى وكان الوقت فى الصباح فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكان على ان ابيت فى احد الفنادق ليلة واحدة

لكي ادرك سفينة اخري في صباح اليوم التالي اي في يوم ٢٨ من شهر مايو عــام ١٩٥٦ لتنقلني ومن معي ووجهتها ميناء الاسكندرية لنصل اليها في يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ان المرحلة العلمية التي تركت من اجلها بلدي واسرتي الصغيرة في يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، والتي توجت بتحقيق الآمــال ، اصبحت علي وشك الانتهاء . وتركت افكاري وتداعيها وعشت في الحاضر لكي امارس النظر الي ظواهر مجتمع مدينة نابلي والمواقف الاجتماعية لاعضائه او بعض اعضائه والعلاقات الاجتماعية التي تبدو امامي سواء كنت في الشارع او في الفندق وسواء كانت تمسني من قريب او تمسني من بعيد او لا تمسني . وفي خلال الثلاثة ايام التي سارت السفينة من ميناء نابلي الي ميناء الاسكندرية لم يكن اهم افكاري سوي ماكان يدور حول مصرنا الخالدة وما كان يدور حول اسرتي الصغيرة . وكنت اعلم من الصحافة واجهزة الاعلام الاخرى في الولايات المتحدة ، ثم بعد ذلك في اثناء الرحلة على السفينة من ميناء نيويورك وهي في طريقها الي ميناء نابلي ان الامر في مصرنا الخالدة قد اصبح على الرغم من الخلافات بين اعضاء مجلس الثورة في يد حديدية هي يد « جمال عبد الناصر » الذي اصبح يسخر منه « انطوني ايدن » رئيس وزراء انجلترا في ذلك الحين ويهاجمه في خطبه وكلماته ويصفه بـ « الدكتاتور الصغير » الذي يعمل على هدم المصالح البريطانية في منطقة الشرق الاوسط . وتذكرت توا ان الحكومة المصرية قد اعلنت ونحن في عرض المحيط اعترافها بالصين الشيوعية . كان ذلك في منتصف شهر مايو عام ١٩٥٦ ، ويومها سعدت بالخبر وتأكدت ان تصرفات

الحكومة المصرية قد اصبحت حرة سواء كانت هذه التصرفات خارجية او داخلية . ولكنى لم اكن على يقين كامل او حتى ناقص من رضاء الشعب المصرى الخالد عما كان يجرى من أمور داخلية ، وان كان يقينى قد بدا يقوى من حيث حرية حركة الحكومة المصرية فى سياستها الخارجية . فاحتكار توريد الاسلحة من الغرب قد اصبح فى خبر كان ، ومهاجمة حلف بغداد واستمرار مقاومته اصبحا من صميم هذه السياسة . وهاهو ذا اعتراف الحكومة المصرية بالصين الشيوعية قد اصبح حقيقة واقعية . والسد العالى لم اسمع عنه كثيرا فى ذلك الحين ، وان كنت اعرف ان المشكلة التى كانت تقف فى سبيل تحققه هى مشكلة المشاكل ، اقصد مشكلة التمويل التى اصبحت هى المعركة فضلا عن التنافس بين الشرق والغرب . ولم اكن اعرف شيئا عن حجم الاستثمارات المطلوبة لهذا المشروع ، ولم اكن اعرف ايضا ان كان من الممكن ان تعتمد مصر ذاتيا ليكون هذا التمويل من النقد المحلى والاجنبى . كانت معلوماتى عن ظروف مصرنا الخالدة الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ضئيلة ، وذلك لان مصادر هذه المعلومات كانت ضئيلة ايضا . وان كنت أعلم شيئا فاننى علمت وانا فى بوستن عن طريق خطاب ارسله لى صديق من القاهرة ان معظم الاشخاص الذين كنت اتعامل معهم وعلى راسهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى آخر وزارة شكلها حزب الوفد قبل قيام الجيش بحركته فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، قد تواروا عن الانظار ولم يكن لهم نصيب فى الاسهام فى تدبير الامور . وقد علمت أيضا أن الحكومة المصرية قد وضعت مشروعا لدستور جديد سيقوم

الشعب المصرى بالاستفتاء عليه وعلى رئاسة جمال عبد الناصر للجمهورية فى يوم ٢٥ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ ، اى بعد ان اكون قد عدت الى بلادى . وقد ذكر كاتب الخطاب المرسل من القاهرة الى بهذا الشأن انه قد نص ولاول مرة على « ان مصر دولة عربية وهى جزء من الامة العربية . وان دين الدولة الاسلام » . وقد احسست عندما قرات هذا النص بخيبة امل كبيرة. فانا فى ضوء دراساتى فى « معهد الدراسات الافريقية» بجامعة بوستن تأكدت من ان مصر اقرب الىافريقيا من العرب . وان النص كان يجب ان يكون « ان مصر دولة افريقية » وكنت اقول ان المستقبل هو مستقبل افريقيا التى كانوا يقولون عنها ولا يزال البعض يقول عنها « افريقيا السوداء » . وكنت اقول أن المصالح الحيوية لمصر المستقبل هى مصالح افريقيا المستقبل ، وحاجة مصر الى افريقيا مثل حاجة افريقيا الى مصر . وعلاقتنا بالعرب فى ضوء الخبرات التى تمخضت عنها التجارب منذ انشاء « الجامعة العربية » فى عام ١٩٤٥ تكفى لكى تقرر أن تكون علاقات اقتصادية وسياسية فحسب . وكنت ارى فى ذلك الحين ان اللغة والدين لا يكفيان لتكون مصر عربية وجزءا من الامة العربية . فهناك التاريخ وهناك السمات الثقافية ومصادرهما وهناك قدم المجتمعات واستمرارها . واذا كنت اقول ان مصر دولة افريقية فانا مع التاريخ ولست ضده ، واذا كنت لم اقل ان مصر جزء من « قومية افريقية » فانا على صواب . كنت اقول كل ذلك لنفسى فلم يكن معى احد اتبادل الراى معه . وهاانذا فى طريقى الى مصر الطيبة ارجو وامنى النفس بالمجد الاثيل لها ورفعة السلطان لشعبها. فالشعب قد عانى من الحكام الاجانب منذ عام ٥٢٥ ق.م

اى منذ ان غزاها « قمبيز » الفارسى وحتى اعلنت الجمهورية واصبح « الرئيس محمد نجيب » اول رئيس جمهورية مصرى لها فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ وكانت تدور أفكار أخرى حول أسرتى الصغيرة . حول زوجتى التى عانت معى ومنى ماعانت وصبرت ماصبرت وابتسمت خلسة عندما تذكرت « لمبة الجاز » التى كنت استذكر دروسى فى ضوئها حتى تيسر لى الانتقال الى شقة يكون التيار الكهربائى من الشروط التى كان يجب ان تتوفر فيها . كم عانت زوجتى من هذه « اللمبة » الى ان انتقلنا الى المسكن الجديد فى خلال شهر يونيو عام ١٩٤٠ عندما انتقلت للمرة الثانية الى مؤسسة الزقاف الملكى . لقد عانت كثيرا ، فمرة قد يكون « شريط » اللمبة قد يحتاج الى « المقص » لكى تكون حافته مستقيمة لانه اذا كانت معوجة كان الضوء الذى تشعه اللمبة مشتتا فلا يوفر الراحة عندما كنت اقرأ او اكتب ، ومرة قد تكون كمية « البترول » غير كافية ، ومرة قد تكون المرآة المركبة خصيصا فى اللمبة لكى تعكس الضوء فتضاعفه غير نظيفة النظافة المطلوبة ، ومرة قد تكون الزجاجة التى تركب عادة فى قطعة مستديرة تصنع من النحاس الرقيق وتسمى « العدة » فى حاجة الى اعادة مسحها لكى يخرج الضوء من اللمبة صافيا . وكانت ابتسامتى المختلسة دلالة واضحة على مدى خجلى من نفسى اذ كنت وهى السيدة التى كانت ترعى أمى الحبيبة وخمسة اطفال انقدها نقدا مرا وانا غافل ولا أرى فى ضوء التفسير الخاطىء لكل مايدور حول المرأة المصرية من تراث ثقافى الا حقوقى كرب الاسرة . لم اكن التمس لزوجتى الاعذار على الرغم من عمق تدينى فى ذلك الحين . انى طبعا كنت اؤدى كل واجباتى نحوها

ونحو باقي اعضاء اسرتي في حدود قدراتي ، ولكنني كنت اتعامل معها كما كان رجال اسرتي الممتدة « اسرة التوجيه » يتعاملون مع زوجاتهم واناث الاسرة على وجه العموم . وكانت ابتسامتي المختلسه تظهر بوضوح ان « التدين » اذا صح يجب ان يكون سلوكا وان يكون على اساس الدين الخالص . ان المسألة ليست مجرد آراء بل يجب ان تكون اتجاهات . اي ان تديني لايفيد كثيرا اذا كان يعتمد لاظهاره على آرائي ولم يكن جزءا من شخصيتي التي اذ تواجه المواقف الاجتماعية العديدة تسلك أنماط السلوك التي تقرها تعاليم الدين الخالص . وكانت ابتسامتي المختلسة نقطة مضيئة في حياتي المقبلة، فقد عاهدت نفسي على ان تكون معاملتي لزوجتي في المستقبل نموذجا كريما للمواطن الصالح الذى يعمل بما يعلم ، والذى يرى ان العلم النظرى والتطبيقي كل عضوى لا يتجزا . فقد راعني ماوجدت او قل ماكتشفت في ذلك الوقت المبكر من « ازدواجية ثقافية » تسود في المجتمع المصرى ، بل ايضافي المجتمعات الانسانية الاخرى على تباين ثقافاتها وظروفهـــا الاجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية . ولكني كنت متأكدا مــن ان عوامل هذه الظاهرة اقصد ظاهرة الازدواجية الثقافيــة تتباين عوامها من مجتمع لآخر تباين بمصـــادرها في المجتمعات الانسانية وتباين تاريخ هذه المجتمعات مــن حيث الطول والقصر ومن حيث الحادثات التي مــرت بها وما أن وصلت الى هذه النتائج اذا بى اهتز وجلا وخشية . كان القلق على مصير ابنائي يملأ على كياني . وكنت اتساءل عما اذا كانوا سيشعرون بما انا فيه من عذاب هذا القلق . لقد اصبح احمد الآن في سن الثانية والعشرين من عمره فماذا كان يدور بخلده نحوي ياترى ؟

الآن وقد اتممت مهمتي مكللا بالنجاح فهل هذا يرضيه ياترى ؟ الم يكن يرى أن الثمن الذى دفعه من شبابه ومن آلامه وقلقه وانماط معاناته الاخرى ثمنا باهظا ياترى ؟ انه لم يكن يدري ابدا انني كنت مدفوعا بقوى لم اكن اراها لكي افعل مافعلت . انه كان قدري . ولقد دفعت انا ايضا الثمن اضعافا. ولكن هل كان يعلم احمد العزيز ذلك ياترى ؟ وكنت أسائل نفسي عما املت عليه مشاعره وعواطفه نحو النوع الآخر ؟ خل خفق قلبه بحب احدي الانسات ؟ وكنت أرى ان هذا حقه ، او ان ظروفه الجامعية والدور الذى كان يقوم به بوصفه الاب الاصغر او الزوج الاصغر قد حالت دون ان يرى نفسه فى مرآة قلوب العذراى من « اهل الحتة » او حتى من غيرهن ؟ وماذا عن سيره فى دراسته الجامعية . انه الآن فى « كلية الهندسة » فهل كان يسير فى دراسته سيرا عاديا؟ واذا لم يكن ذلك كذلك فمن كان المسئول عن ذلك ؟ هل كان هو المسئول او كنت انا المسئول ؟ ان والدى مات وكنت لما ابلغ سن السابعة عشرة من عمري . ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن وانا اواجه أمواج الحياة بحلوها ومرها وتواجهني امواج الحياة بحلوها ومرها ، وكنت وحدى . فهل أعتبرني العزيز احمد مثالا يحتذى او راى فى تصرفاتى غير ذلك ؟ انه لا يعرف ابدا كم احبه وكم احترمه . ولكن هذا امر خارج عن الموضوع الذى كان يشغلنى ويقلقنى واهتز من اجله وجلا وخشية . كنت وانا فى مدينة بوستن لا أدع شيئا مايشغلنى عما كنت بصدده . كنت اعزى نفسى فاقول لها ان الزمان قد جندنى لاؤدى واجبا . كنت اقول لها اننى وقد اصبحت احد الجنود فى معركة الدراسات العليا فهذا قدري . الم تكن اهدافى سامية سمو اهداف

التحصيل العلمي ؟ الم تكن هذه الاهداف خيرا مــن اهداف المعارك الحربية التى يقتل فيها الملايين من البشر باسم الوطنية تارة والحرية تارة أخرى وغيرها مــن المبادىء والمثل العليا التى كان يتشدق بها ولا يزالون تجار الحروب الذين كانوا يناصرون زعيما ضد آخـر ؟ اما معركتى فقد كانت من اجل ان اعمل عملا صالحا . وكنت فى ذلك الحين وحتى الآن اى حتى كتابة هـذه السطور صادقا مع نفسى ولم اكن اتوقع ان اكون واهما ابدا . فهل كان العزيز احمد وامه واخوته يرون ماكنت ارى او كانوا يرون اننى باسم اهداف معركتى اننى كنت شخصا انانيا لايرى فى مرآة الحياة الا ذاته ، او كانوا يرون اننى انتقم لنفسى فقد احسست عندما مات أبى انه خذلنى ، فقد مات وكنت يافعا لا ادرى عن الحياة الا النذر القليل ، وقد مات وتركنى وحيدا لا اخا لى ولا اختا ؟ وماذا عن العزيزة الغالية « آمال » لقد اصبح عمرها تسعةعشر عاما بل يزيد على ذلك ؟ يالهف نكسى عليك ايها العزيزة آمال . كم كنت اود ان اكون بجوارك وانت فى هذه السن الفضة ؟ اتحدث أليك وتتحدثين الى ونتبادل الضحكات والنكات واعرف عنك مكنـونات قلبك وتعرفين عنى مكنونات قلبى . وكنت اتساءل ماذا كان موقفها من العزيز احمد وماذا كان موقف العـزيز احمد منها ؟ هل كانا يتعاملان معاملة الحب والاحترام وتبادل النصائح والمشورة ؟ هل كانا يتخاصمان ولـكل منهما دواعيه او بلا داع ؟ لم اكن ادرى شيئا من ذلك وان كان قلبى عندما كنت أفكر وأحاول ان أستطلع الغيب يدق دقا عنيفا عنيفا . اين أمى التى كـانت للجميع البلسم الشافى ؟ اين امى التى كانت ، وقـد حرمت من الابنة ، ترى في آمال لا ابنة لى بل كـانت

تراها اختا لي وابنة لها وتعاملها وكأنها كذلك . كانت امي تبتغي ان تكون آمال ابنتها التي تأمنها على اسرارها فالابنة عندنا نحن المصريين « حبيبة امها » لقد ذهبت امي وتركت آمال وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ! آنسة صغيرة رقيقة كانت تعيش احلامها في المستقبل القريب والبعيد وكانت ترى ان لها حقوقا فهي تحرص على هذه الحقوق وتكاد ان تنسى ان عليها ايضا واجبات . وكنت ارى ان من حقها ان تنسى هذه الواجبات لانها عاشت في حضن امي من غير ان يطلب منها اداء واجبات واني لها ان تؤدي واجبات وهي في هذه السن وتعيش في هذا المناخ الذي يشع لها الحب العميق من ذلك المصدر الذي لم ينضب الحب فيه ابدا ، قلب امي ؟ وكنت وانا على السفينة والاسكندرية عروس البحر الابيض المتوسط على مقربة نصف يوم اتذكر « العزيز سمير » والعزيزة « تيسير » و « العزيز مسعد » اتذكرهم وانا اشعر بالذنب نحوهم فقد كان سمير العزيز في السابعةعشرة من عمره او اقل من ذلك بقليل وكانت تيسير في الخامسة عشرة من عمرها اما العزيز مسعد فقد بلغ سن الثالثة عشرة . كنت اشعر بالذنب لانني كنت متأكدا من انهم كانوا عبئا كبيرا على زوجتي العزيزة وعلى احمد العزيز . كانوا في مسيس الحاجة الى الرعاية وبخاصة وقد كانوا في المراحل الاولى من الدراسة . واذا كنت اعلم بأن العزيز احمد كان يدرس في الجامعة وان العزيزة آمال كانت تستعد لامتحان « شهادة الثانوية العامة » فانني كنت اعلم ايضا ان الاعزاء سمير وتيسير ومسعد يستعدون لامتحان شهادة « الاعدادية » ان الثلاثة على الرغم من تباين الاعمار يستعدون لامتحان معين . وكان التفكير في هذا الموقف

وحده يجعلني اتصبب ، على الرغم من هـواء البحـر المنعش ، عرقا . وكان الامل املى أن تـكلل مساعى الجميع بالنجاح وعندما اعود اليهم احاول ان أواجـه النتائج . وكنت اقول لنفسي بصوت خافت أحيـانا وبصوت مسموع احيانا اخرى ان المهم هو ان ينجحوا ولاحاول بعد ذلك ان اواجه النتائج . المهم ان ننجحوا جميعا . وكنت الوم نفسي واتهمها بالجنون اذ تركت هؤلاء الابناء وحدهم الى مصيرهم وكانوا مازالوا في عمر الزهور . ماذا كان قد حدث اذا لم اكن قد تركتهم وحدهم وسافرت لفترة حوالى اربعة وثلاثين شهراً .؟ وكنت أرد على هذا السؤال بانه سؤال غير ذي موضوع. لقد حدث ماحدث وتم الامر . وان اهم من الاجـابة عنه ان انظر الى الامام واواجه في شجاعة ماجنته على افكاري وآمالي ومبادئي . انني لو كنت قد أنصت الى مطلب أستاذي البروفسور موريس ، وكان قد طلب الي ملحا ان اعمل في الولايات المتحدة ، لكنت مازلت هناك اكسب الكثير من الدولارات ، ولم يكن من نصيب زوجتي وابنائي سوى ما ارسل لهم من نقود وكان من المتوقع ان تكون نقودا كثيرة . اى اكثر مما كنت ارسلها لهم وانا القاضي مرتب المنحة الشهرى وقدره ١٥٠ دولارا فقط . كنت ساعمل وانا حاصل على درجة الدكتـوراه والقاضي أضعاف مرتب المنحةمافي ذلك من شك . وكنت اذا لبيت دعوة البرت موريس اعيش حياة ارغد واكثر يسرا . ان معظم نقودي على قلتها كنت اصرفهـا على شراء كتبي ولم اكن اشبع من شراء الكتب . لم اشتر ملابس او اشياء غير عادية ابدا . ولكني كنت اشترى الكتب القديمة والجديدة على السواء . كنت كالصحراء التي اذا ما اغرقتها بالماء شربت الماء في التو واللحظة .

وكانت كتبي مائي وكنت انا الصحراء التى لم تكن تشبع من هذه الكتب اى من هذا الماء .. ماء الحيـــاة .. حياتى . لم ألب مطلب البروفسور موريس أو مطلب ه ه فى البقاء فى مجتمع الولايات المتحدة لعـــوامل عديدة منها بل ربما يكون همها الحرص على كيان اسرتى الصغيرة . ومع ذلك فقد لاحظت وانا اقترب من ميناء الاسكندرية ان اهم ماكان يقلقنى كانوا هؤلاء « الرفاق الثلاثة الاعزاء » سمير وتيسير ومسعد . كانوا أعزاء على قلبى وعقلى ، وكان كل مايمكن ان اعطيهم ، فضلا عن واجباتى كأب ، هو الحب والاحترام . وكنت ارجو ان يكون ما اعطى كافيا . وكنت متفائلا فقد تعلمت بأن عطاء الحب للناس الغرباء واحترامهم كان عطاء مجزيا فما بالك وهؤلاء هم دمى واعصابى واحبائى . وكنـت متاكدا من النجاح ، ولكننى كنت متاكدا أيضا من ان الضرورة كانت تحتم على الصبر اى أن احبس نفسى عن الجزع ما استطعت الى ذلك سبيلا . وفى لحظـة رأيت أن السفينة قد رست على الميناء العتيد . فسارعت الى حجرتى لكى اضع حاجاتى فى اماكنها فى الحقـائب الثلاثة . وكانت معى حقيبة من الورق مملوءة بالاقمشة التى لا اعرف نوعها ولا أعرف ثمنها ، كان قد أعطـاها لى الزميل شلبى لكى اوصلها الى صديق له لم اكـن اعرفه ولم يكن يعرفنى . وحملت الحقائب وصـناديق الكتب الى ظهر السفينة ومعى الحقيبة المصنوعة مـن الورق بما فيها . وما أن مكثت برهة الا وسمعت صوتا يناديني باسمى مشفوعا بلقب « الدكتور » ولاول مرة أسمع ذلك . واذا كنت قد دهشت للمناداة على اسمى فلم يكن للقب الدكتور تاثير مافى نفسى . كانت الدهشة تملأ على كيانى فلم أر او اسمع شيئا آخر غير عادى.

واجبت من ناداني وعرف مكاني وسرعان ماجاء الرجال يحملون امتعتي كلها بما فيها كتبي . وكنت أول من غادر السفينة وكان المنادي مندوب صاحب الحقيبة المصنوعة من الورق اقصد صاحب هذه الحقيبة بما فيها من اقمشة ، وكان الرجال الذين جاءوا يحملون امتعتي هم الذين ارسلهم ليفعلوا ذلك . واخذ الرجل الحقيبة مني وبعد ان ذكر اسم صديق الزميل شلبي وخرجت من الجمرك بامتعتي ومن بينها كتبي وكأنني خرجت من حمام ! ولم يقف في سبيلي احد فقد يسر المندوب الطريق امامي ، وركبت « الحنطور » ومعي الامتعة والكتب الى محطة السكة الحديد ، ثم ركبت القطار الى مدينة القاهرة الحبيبة . وبدأ القطار في السير في الموعد المحدد وكنا في الضحى . وكنت في بيتي بعد ظهر يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وحاولت وانا في القطار ان لا أتحدث مع احد ولكنني لم اتمكن من ذلك . وكانت الاحاديث المتداولة بيني وبين الركاب، على تفاهتها ، بردا وسلاما . فقد مر الوقت الطويل وكأنه لحظات . وبدأت استعد نفسيا للقاء احبائي واعزائي : زوجتي واحمد وآمال وسمير وتيسير وسعد .

كتاب الهلال يقدم

محمد على الكبير

بقلم
شفيق غربال

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٨٦

رقم الايداع : ٤٧١١ / ٨٦

الترقيم الدولى : ٧ ـ ٢٥٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٢٥ قرشا : ـ

سوريا ٤٠٠٠ ق . س ، لبنان ٤٠٠٠ ق . ل ، الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠ فلس ، العراق ٢٨٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢٢٥٠ مليم، الخليج ١٥ درهما ، البرازيل ٧ دولارات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، المغرب ٢٠ درهما ، غزه والضفة ١٥٠ سنتا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، جيبوتى ١٥٠ بنسا .



هـذا الكتاب

« ماء الحياة » الجزء الثانى من رائعة الدكتور سيد عويس « التاريخ الذى احمله على ظهرى » ، الكتاب الذى استقبله القراء استقبالا حارا ، والذى اعتبره العديد من النقاد اهم كتاب صدر عام ١٩٨٥ ..

والذى يقوم ناشر فرنسى بترجمته إلى اللغة الفرنسية ، ويساهم فى نقل تجربة صادقة عن المجتمع المصرى ومشاكله الاجتماعية ..

وفى هذا الجزء يكتب سيد عويس رؤيته للحضارة الأوربية فى أول رحلة له إلى بريطانيا بعد بلوغه الخامسة والثلاثين .. وكما كتب توفيق الحكيم تجربته مع أوروبا فى «عصفور من الشرق» وكتب يحيى حقى رؤيته للعلاقة بين الشرق والغرب فى « قنديل أم هاشم » ، يعالج سيد عويس نفس القضية من خلال سيرته الذاتية ، التى هى فى الواقع مزيج بين التجربة الذاتية ودقة الملاحظة والبحث العلمى ، والتى صاغها فى حكاية شيقة .. تجمع الجوانب الثقافية والاجتماعية والتاريخية ، بعد أن غاص فى أعما[...] والفنون ، وامتدت تجربته إلى التراث العربى من [...] الأوربية من جانب آخر .

وتلمح بين سطوره المستقبل المشرق الذى ينت[...] التفاؤل القائم على الاستقراء والبحث العلمى و[...]

الجزء الثانى
عدد خاص

